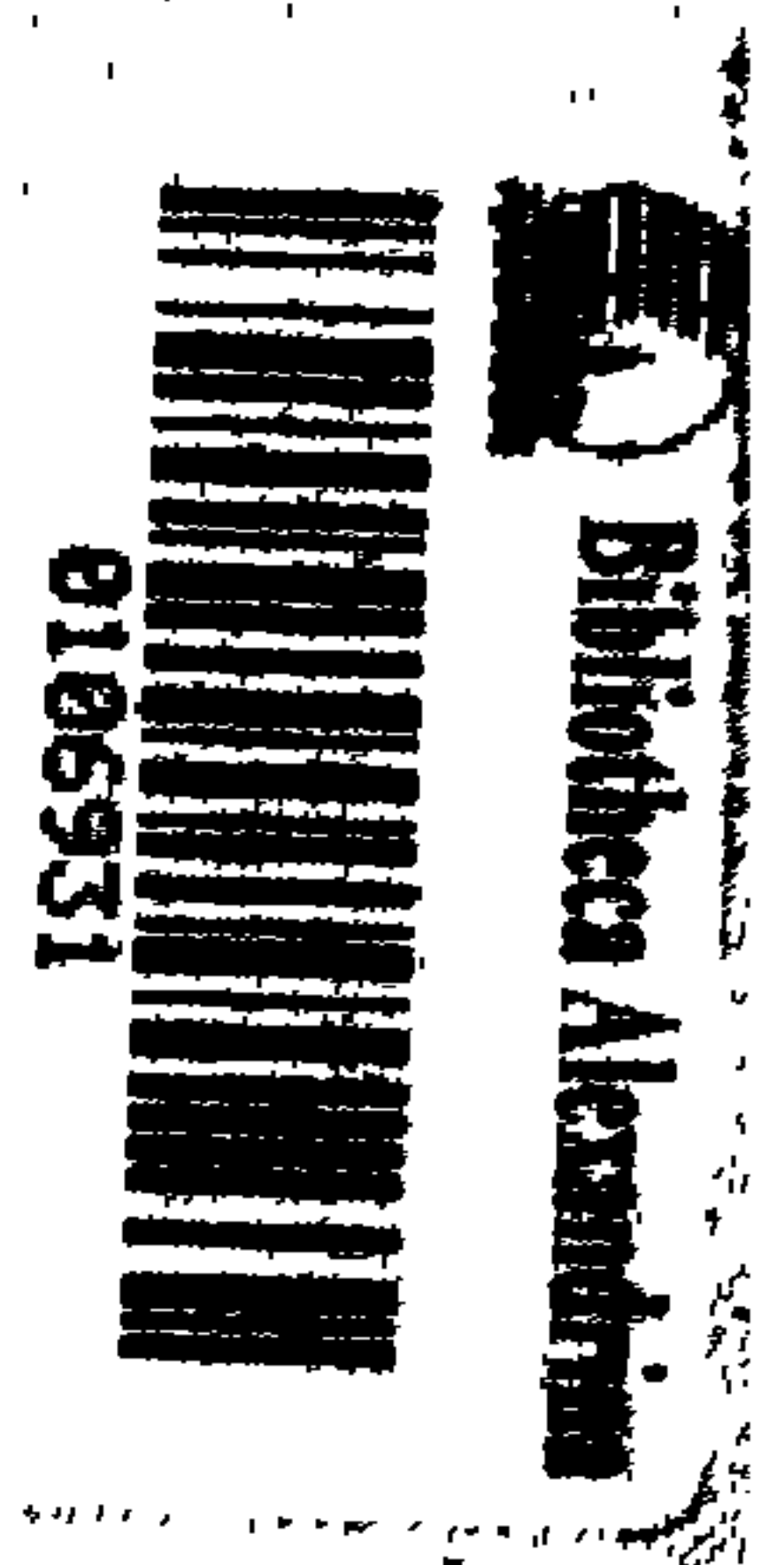


دكتور
محمد زكريا عناني
أستاذ بكلية الآداب
جامعة الاسكندرية

تاريخ الأدب الأندلسي



دار المعرفية الجامعية
٤٠ بن مونتير - الأزارطة - ٤٨٣٠١٦٣
٣٨٧ بن قنال السويين - العنجلين - ٥٩٧٣١٤٦

تاريخ الأدب الأندلسي

دكتور

محمد زكريا عناني

أستاذ بكلية الآداب - جامعة الاسكندرية

١٩٩٩

دار المعرفة الجامعية

٤٨٣-١٩٣ شارع بورسعيد - الإسكندرية
٣٨٧ شارع فؤاد الأول - القاهرة ٥٩٧٣١٢٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

إن تاريخ الأدب العربي حافل بالصفحات المشرقة ، مما يجعل منه أحد الآداب الكبرى في العالم وهو أدب ولد ناضجا أو بمعنى أدق إن أقدم ما وصل إلينا منه يحمل سمات الشخصية الأدبية الحية الأصيلة، الجديرة بأن تعيش على مر العصور ...

وينفرد الأدب الأندلسي من بين المراحل المختلفة بأنه يجمع مزايا كثيرة هي بنت اللقاء بين الشرق والغرب، ففيه الرصافة التي طالما بهرت الناس في الأدب العربي القديم ، وفيه الجودة التي تتحرك في الموشحات والأزجال و "الرومانسية" الطاغية التي تأتي عند ابن زيدون ، والظرف وخفة الروح التي تتمثل عند أبي الحكم الغزالي ، فيه - باختصار شديد - أروع ما يمكن أن يوجد في أدب أمة من الأمم ، ومن هنا لقيت كتب الأدب الأندلسي القديم كل تقدير، ومنها:

كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة	لابن بسام
المغرب في حلج المغرب	لحلج بن سعيد
قلائد العقيان	للفتح بن خافان
مطمع الأنفس	للفتح بن خافان
زاد المسافر	لصفوان التجيب
نفع الطيب	للمقريبي ... الخ

فضلا عن عشرات الدواوين (مثل ديوان ابن عبد ربه ، وديوان ابن دراج وديوان ابن زيدون وديوان الأعمى التطيلي ..الخ) وعديد المجموعات وكتب الأدب الأخرى .

أما في العصر الحديث فقد أرخت لهذا الأدب أعمال متنوعة منها على سبيل المثال :

نظرات في تاريخ الأدب الأندلسي	لكامل كيلاني
بلغة العرب في الأندلس	ط. أحمد ضيف
الأدب الأندلسي	ط. أحمد هيكل
الأدب العربي في الأندلس	ط. عبد العزيز عتيق
تاريخ الأدب الأندلسي [جزءان]	ط. إحسان عباس
قصة الأدب في الأندلس	ط. محمد عبد المنعم خفاجي
الأدب الأندلسي : موضوعاته وفنونه	ط. مصطفى الشكعة
عصر الدول والامارات [الأندلس]	ط. شوقي ضيف
بامع الشعر الأندلسي	ط. عمر الدقاق الخ ...

وهناك مئات الرسائل الجامعية ، والمؤلفات التي تتناول عصرا أو ظاهرة أو جنسا أدبيا أو شخصية بعينها ، يضاف إليها ما ألف المهتمون بتاريخ الأدب الأندلسي من المستشرقين ، ومن أهم هذه الأعمال :

محاضرات في أدب الأندلس وتاريخها	ل بروفنسال
الشعر الأندلسي	نيكل
الشعر الأندلسي المقطعي [الموشحات والأزجال]	س. شتون
الشعر الأندلسي	أ.ج . جومث
الشعر الأندلسي	أ.ج . كراتشكوفسكي

وتأتي هذه المحاضرات لتحاول أن تستفيد من الدراسات التي سبقتها ،
وتعالج بصورة مبتكرة، عددا من أهم الظواهر والشخصيات الأندلسية، وقد
روعى فيها أن تكون مركزة وواضحة، وأن تدعم بنماذج تمثل عيون الشعر
الأندلسى على مر العصور .

ونسأل الله عز وجل أن يلهمنا الصواب ، ويهين ما فيه الخير.

ط. للشليكة محمد رمضان

استاذ الأدب العربى .

كلية الآداب جامعة طنطا

الأندلس ، عبقرية المكان والزمان

من المسلم به أن المادة الأدبية : ينبغي أن تكون جوهر الاهتمام ومركز الرؤية، ومع ذلك فإن لكل ابداع أدبي مجاله الزماني والمكاني الذي يولد فيه، وأيا كانت الاعتبارات "الذاتية" ، فإن الأمر لا يخلو من "موضوعية"، ومن الضروري أن نتعرف على الخطوط الرئيسية للبيئة والعصر والمجتمع حتى تزداد معرفتنا بالعمل الأدبي أصالة وعمقا و "الأندلس" في المفهوم العربي الإسلامي تشمل الفترة التي تبدأ بالفتح العربي - سنة ٩٢ هـ - وتمتد حتى سقوط غرناطة سنة ٨٩٨ هـ كما تطلق تلك التسمية على كل الأقاليم المفتوحة من شبه الجزيرة الأيبيرية ، فها نحن أمام فترة تبلغ ثمانية قرون وتمتد ، مكانيا، امتدادا شاسعا، والشئ المسلم به، علاوة على هذا، أن التفهم الصحيح ينبغي أن يلقى الضوء كذلك على ما قبل الفتح، ولا يجعل من تاريخ سقوط غرناطة في أيدي الأعداء إلا مجرد نهاية لمرحلة سياسية ، على اعتبار أن التأثيرات العربية لم تنته بين يوم وليلة . ولن تشغلنا، في هذه المحاولة التفصيلات والتفريعات، إذ إن الفترة الزمانية والرقعة المكانية من الاتساع بمكان، وقد وقعت على أرض الأندلس في خلال ذلك، أحداث لا حصر لها، وبرزت ظواهر أدبية وثقافية وفنية بالغة الأثر ، ومن ثم فإن غاية مانصير اليه الآن أن نبرز الخطوط الكلية الموجزة، مكتفين بالإحالات على المصادر والمراجع، لمن شاء التوسع .

وربما كان من الضروري تحديد وتبسيط هذا الكم من الأسماء المتداخلة من قبيل شبه الجزيرة الأيبيرية "Peninsula Iberica" (التي تكتبها المصادر الغربية عادة Iberica) - والتي تشمل كل ما يعرف الآن باسم اسبانيا والبرتغال - ولا يعرف بالضبط منشأ هذا الجنس فهم "شعب مجهول الأصل والمصدر، عاصر في اسبانيا القديمة دول القلت Celtes والفينيقيين واليونان والرومان وقد انتشر في اسبانيا كلها وجنوبي فرنسا فالأيبيريون على هذا

الحساب هم أقدم أمم غربى أوربا^(١) وفى بعض المراجع أن الشعبين - الأيبيرى والقلتى اختلطت انسابهما بعد فترة من الحروب الدامية وكونا معا نسلا جديدا عرف باسم القلتبيري Celtibères.

وأما تسمية Espagne فإنها تنحدر من التسمية اللاتينية Hispania ولعلها تطوير عن لفظة Hespérie التى كانت تعنى بلاد الغرب، وأما المصادر العربية فإنها لاتقدم مادة يعتد بها بالنسبة لهذه التسميات القديمة، وماكتب فى هذا الميدان يخضع لقدر من التصورات الأسطورية فمن ذلك ماياتى به المقرئ فى "نفح الطب" من أن هذه البلاد كانت أولا تحت سيطرة الأفارقة ثم صار ملك الأندلس بعدهم إلى عجم رومة، وملكهم اشبان بن طيطش وباسمه سُميت الأندلس اشبانيا ، وكر بعضهم أن اسمه اصبهان وهو الذى بنى اشبيلية، وكان اشبانيه اسما خالصا لبلد اشبيلية الذى كان ينزله اشبان هذا، ثم غلب الاسم بعده على الأندلس، فالعجم الان يسمونه اشبانيا لأثار اشبان هذا فيه، وكان أحد الملوك الذين ملكوا أقطار الدنيا فيما زعموا ولا يبقى بعد هذا إلا اسم "الأندلس" الذى اكتسب هذه الصيغة على أيدى العرب الفاتحين، ولم يكن له وجود قبلهم، وليس معنى هذا أن الاسم محض ابتكار خالص .

وقد زعم ياقوت الحموى ، صاحب "معجم البلدان" أن التسمية تعود الى "أندلس بن طويان بن يافث بن نوح" وجاراه فى ذلك عدد من المصادر العربية، وهذا بدوره محض تفسير أسطورى لا يستند الى حقائق تاريخية واضحة ، وأما المراجع الحديثة فإنها تتفق فيما بينها على فرضية أن الاسم مشتق من فنداليشيا Wandalaria نسبة الى الاقاليم الجنوبية (التى كانت تعرف قبلا باسم Baetica) والتى احتلتها قبائل الفندال الجرمانية - أو الفندالوس،

(١) الأندلس ، ص ٤١ (من دائرة المعارف الإسلامية)

مستغلة ضعف الدولة الرومانية - ثم كان الفتح العربى فتحولت الكلمة إلى الأندلس^(١) والأندلس - وسنستخدم هنا المفهوم العربى للكلمة - شبه قارة ترتبط بأوروبا بسلسلة جبال البرانس (البيرونيه) فى الشمال الشرقى، ومن أشهر المعالم فيها جبال سيرا نيفادا Sierra Nevada وسماها العرب: شارة، وجمعوها على شارات وفى ذلك يقول الشريف الإدريسي:

" وجزيرة الأندلس مقسومة من وسطها فى الطول بجبل طويل يسمى الشارات فما خلفه فى جهة الجنوب يسمى اشبانية وماخلفه من جهة الشمال يسمى قشتالة الجبلية يعرف باسم جبل الثلج أو جبل (شليرا) ومن ثلوجه الهطالة - وهذا معنى: نيفادا - يتغذى نهر شنيل - على مقربة من غرناطة - وفى وصفه يقول أحد المغاربة :

يحل لنا ترك الصلاة بأرضكم

وشرب الحميا وهو شئ محرم

فرارا الى نار الجحيم فإنها

أخف علينا من شليرا وأرحم !

وبذا فإن الأرض فى شبه الجزيرة الأيبيرية مرتفعة نسبيا كما تتسم بالجفاف ، وتغذى البلاد سلسلة من الأنهار أهمها الوادى الكبير Guadalquivir وله روافد منها نهر شنيل، وقد لخص المقرئ - نقلا عن

(١) راجع فى ذلك مادة "الأندلس" فى دائرة المعارف الإسلامية ومراجعها العديدة ود. الطاهر مكي، دراسات أندلسية - الفصل الأول - ود. أحمد هيكمل فى مستهل كتابه "الأدب الأندلسي"

وبلاحظ أن نصارى شبه الجزيرة الأيبيرية لم يكونوا يستعملون هذه التسمية إذ كانوا يطلقون نعت اسبانيا على الأراضى التى كانت خاضعة لنفوذ العرب بينما استعملوا أسماء خاصة للدلالة على المناطق التابعة لهم مثل قشتالة Castille وأراجون Aragon واشتورش Astucias الخ ثم أصبح لفظ الأندلس Andalusia يدل على المناطق الجنوبية التى تضم غرناطة وقرطبة واشبيلية وأيضا مالقة وجيان وقادس ولبه .

غيره - طبيعة البيئة الأندلسية بقوله ان الأندلس عند علماء أهله أندلسان: فالأندلس الشرقي منه ماصبت أوديته إلى البحر الرومي المتوسط المتصاعد من أسفل أرض الأندلس إلى المشرق، وذلك ما بين مدينة تدمير إلى سرقسطة والأندلس الغربي ماصبت أوديته إلى البحر الكبير المعروف بالمحيط أسفل من ذلك الحد إلى ساحل المغرب فالشرقي منهما يطر بالرياح الشرقية ويصلح عليها، والغرب يطر بالرياح الغربية وبها صلاحه، وجباله هابطة إلى الغرب جبلا بعد جبل، وإنما قسمته الأوائل جزئين لاختلافهما في حال أمطارهما وذلك أنه مهما استحكمت الرياح الغربي كثر مطر الأندلس الغربي وقحط الأندلس الشرقي ومتى استحكمت الرياح الشرقية كثر مطر الأندلس الشرقي ومحط الغربي، وأودية هذا القسم تجري من الشرق جبلا بعد جبل تقطع من الجوف إلى القبلة والأودية التي تخرج من تلك الجبال تقطع بعضها إلى القبلة وبعضها إلى الشرق وتنصب كلها إلى البحر المحيط بالأندلس القاطع إلى الشام، وهو البحر الرومي، وما كان من بلاد جوفى الأندلس من بلاد جليقية ومايلها، فإن أودينه تنصب إلى البحر الكبير المحيط بناحية الجوف" وقد انعكست ظواهر الطبيعة هذه على الإبداع الأدبي بصورة واضحة - على ماسرى - وهذا ما عبر عنه شاعرهم بقوله :

يا أهل أندلس لله دركم

ماء وظل وأنهار وأشجار

ماجنة الخلد إلا في دياركم

ولو تخيرت هذا كنت اختار

ومن ذلك أيضا تلك الأبيات التي تنسب إلى شاعرة أندلسية تدعى

حمدة بنت زياد المؤدب :

وقانا لفحة الرمضاء واد
سقاء مضاعف الغيث العميم
حللنا دوحه فحننا علينا
حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالا
ألد من المدامة للنديم
يروع حصاه حالية العذارى
فتلطم جانب العقد النظيم

ولابن خفاجة :

أن للجنة بالأندلس
مجتلى حسن وريا نفس
فسنا صبحتها من شنب
ودجى ليلتها من لعس
وإذا ماهبت الريح صبا
صحت : واشوقى إلى الأندلس

وقيل فى مناقب الأندلس أنه "يشقها أربعون نهرا كبارا ، وبها من
العيون والحمامات والمعادن مالا يحصى ، وبها ثمانون مدينة من القواعد الكبار
وأزيد من ثلاثمائة من المتوسطة . وبها من الحصون والبروج والقرى مالا يحصى
كثرة، حتى قيل : إن عدد القرى على نهر اشبيلية اثنا عشر ألف قرية، وليس
فى معمور الأرض صقع يجد المسافر فيه ثلاث مدن وأربعا من يومه إلا
بالأندلس" (١)

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٢١٠

شئ من التاريخ :

لايكاد تاريخ الأندلس ينفصل عن تاريخ المغرب - بالمعنى العام للكلمة - ونحن نعتبر أن المغرب مايلى مصر من ناحية الغرب، وإن كانت هذه مسألة تختلف حولها المؤرخون والجغرافيون فعلى زمن العباسيين كانت مصر اقليما "مغربيا"، ووفقا لهذا الفهم تكلم عنها ابن سعيد ضمن كتابه "المغرب فى حلى المغرب" ولكن معظم المؤرخين يقسمون المغرب إلى :

أ - المغرب الأدنى : ويسمى أيضا افريقية - وعاصمته القيروان على زمن الأغالية ثم المهدية على زمن الفاطميين ثم تونس اعتبارا من دولة الحفصيين ، ويشمل مايعرف الآن بتونس والأطراف الشرقية من الجزائر .

ب - المغرب الأوسط : ويشمل مايعرف الآن بالجزائر واختلفت العاصمة فيه بحسب توالى الدول فيه، ففي زمن الدولة الرستمية الإباضية الخارجية كانت عاصمته تاهرت (تياريت الآن بولاية وهران) اما على زمن دولة بنى زيرى - من صنهاجة - فكانت العاصمة مدينة أشير (مكانها بنية قرب مدينة الجزائر الآن) وصارت - في زمن بنى عبه الواد - فى تلمسان ثم تحولت العاصمة إلى الجزائر - المغرب الأقصى : ولا يفصله عن المغرب الأوسط الا نهر مولويه وكثيراً ماكان يشكل مع المغرب الأوسط وحدة سياسية وكانت عاصمته اما فاس (على زمن الأدارسة) أو مراكش (على زمن المرابطين ثم الموحدين) أما فى زمن بنى مرين (ومن بعدهم بنى وطاس) فإن مدينه فاس أصبحت العاصمة مرة أخرى فلما تولى السعديون الملك جعلوا عاصمتهم مراكش أما فى العصر الحديث فإن دولة المغرب اتخذت من مدينه الرباط عاصمة لها، وهى مدينة قديمة، بنيت فى عهد الخليفة الموحدى يعقوب (المنصور).

وقد كان اتجاه المسلمين لفتح المغرب بعد فتح مصر مسألة منطقية من كافة الوجوه ، وهكذا غزا عمرو بن العاص منطقة برقة وطرابلس سنة ٢٣ هـ،

وفى سنة ٢٧هـ سارت حملة بقيادة عبدالله بن سعد بن أبى سرح، وإلى مصر (وشقيق سيدنا عثمان بن عفان فى الرضاعة، ومعه عبدالله بن الزبير حتى وصلت إلى افريقيه وانتصرت على البيزنطيين عند موضع يسمى سبيطله ثم انتصر عبدالله بن سعد على أساطيل بيزنطة فى معركة ذات الصواري سنة ٣٥هـ وتجددت محاولات فتح افريقية فى زمن معاوية الذى سبر فى سنة ٤٥ حملة بقيادة معاوية بن حديج الكندى ثم كانت فترة الولاية الأولى لعقبة بن نافع . من سنة ٥٠ الى ٥٥) فكانت بداية لمرحلة زاهرة من الفتوح والعمران ، إذ شيد مدينة القيروان وتولى بعده سياسى محنك هو أبو المهاجر دينار (٥٥-٦٢) الذى استطاع أن يستميل البربر الى صفوف العرب ويجعلهم يعتنقون الإسلام، ونتيجة لهذه الخطوة تمكن المسلمون من مد نفوذهم على المغرب الأوسط كله حتى تلمسان .

وقد مر فتح المغرب بين مد وجزر إلى أن تولى أمر المغرب موسى بن نصير سنة ٨٦ فى زمن الوليد بن عبد الملك - وفى عهده كانت أركان الدولة الإسلامية قد استقرت هناك، فقد انتشر الإسلام بين البربر وتكونت منهم فرق مقاتلة الى جانب العرب وهذا التحول الفريد الذى طرأ على بلاد المغرب كانت له آثار ايجابية فى فتح الأندلس بعد ذلك، لأن معظم قبائل البربر أخذت بعد اعتناقها الإسلام تتوق إلى الحرب والجهاد، ونفسية البربر المغربية مثل نفسية العرب قلقة دائماً، وتريد الحركة والكفاح ولاشك أن القائد العربى موسى بن نصر كان على علم تام بنفسية البربر وطبيعتهم فرأى أنهم إذا تركهم صارت الحياة الإسلامية تافهة بالنسبة لنفوسهم المتعطشة للحروب ولهذا حرصت على اتباع نزعة البرر نحو الحرب وكسب الغنائم بدفعهم الى الحرب وتوجيههم الى الفتوحات الخارجية " (١)

(١) د. أحمد مختار العبادى: تاريخ المغرب والأندلس ص ٥٠

فتح الأندلس :

خضعت شبه الجزيرة الأيبيرية للهيمنة الرومانية قرابة ستة قرون، إذ حكموها منذ أوائل القرن الثاني قبل الميلاد وحتى أوائل القرن الخامس الميلادي، وأخضعوا في خلال هذه المدة الإمارات والمستعمرات المختلفة التي كانت قد استقرت فيها أو في شمال المغرب ، وبخاصة الفينقيين الذين كانوا قد استقروا بالشواطئ الساحلية جنوب وشرق الأندلس حيث أسسوا مدنا منها مالقة وقادس كما أسسوا في الساحل الأفريقي عدة مراكز أهمها مدينة قرطاجنة .

وقد نشر الرومان لغتهم كما نشروا الكاثوليكية بين السكان، وغرسوا حضارتهم إبان هذه المدة الطويلة، إلا أن أركان هذه الامبراطورية الضخمة مالبثت أن أخذت في التهاوى، مما مكن القبائل الشمالية الجرمانية من الانحدار من بلادهم جنوبا - حيث الدفء والرخاء - ومن هذه القبائل الوندال الذين استقروا في جنوب شبه الجزيرة الأيبيرية وكذلك القوط Visigodes الذين تمكنوا من طرد الوندال - مما دفع بهؤلاء للعبور الى الشاطئ الأفريقي، إلى أن تم التحالف بين هذه القبائل المتناحرة، تحت زعامة ملوك القوط، وأخبرهم رودريجو Rodrigo (الذي يعرف في المصادر العربية باسم لذريق) وكانت أحوال البلاد في عهده قد ساءت الى أبعد حد وعمت الاضطرابات والفتن ، وفي عهده بدأ الفتح الإسلامي .

وعلى الرغم من أن هناك حقائق بارزة في الفتح العربي للأندلس، إلا أن المسألة لم تخل من بعض الأساطير ، من أشهرها ما تردد في بعض المصادر العبرية من أن الأمير يولييان - حاكم سبته - هو الذي أغرى العرب بفتح الأندلس انتقاما من ملكها لاعتدائه على ابنته . (فلورندا، التي تنعت في المصادر الشعبية الإسبانية بنعت قبيح، إذ تسميها La Cava، أي الفاجرة)

لكن المؤرخين المحدثين يردون الأمور الى مسارها الصحيح على اعتبار أن هذا الفتح كانت تحتمه الأوضاع السياسية والعسكرية ، فضلا عن الاعتبارات الدينية القوية .

وبعد بعض المحاولات الاستطلاعية . مثل حملة طريف سن ٩١ التى تكللت بالنجاح (جاءت الخطوة الكبرى بتلك الحملة التى قادها طارق بن زياد - ومعظم المصادر ترجح أنه ضابط بربرى من قبيلة نفزة ، ومنها كذلك كان معظم الجند الذين بلغ عددهم سبعة آلاف مقاتل، وكان ذلك سنة ٩٢هـ، وتقول بعض الروايات إن طارقا بعد أن خرج من "العدوة" أحرق سفينه وخطب فى جنوده خطبة بليغة قوامها أن :قاتلوا أو موتوا، ولو صح ذلك الخبر لكانت "أول نص أدبى عربى؛ قيل على أرض الأندلس، لكن الدارسين المعاصرين يرفضون كل ما قيل فى هذا الصدد، ويردونه الى الخيال الشعبى الذى يسعى الى تجميل مثل هذه المواقف وإضفاء الطابع الأسطورى أو الخرافى عليها .

والنص المتداول من الخطبة يقول :

أيها الناس، أين المفر؟ البحر وراءكم والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر، واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مأدبة اللثام ، ولا أقوات لكم إلا ماتستخلصون من أيدي عدوكم وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً، ذهب ربحكم، وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم. فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من زمركم بمناجزة هذا الطاغية، فقد ألقى به إليكم مدينته الحصينة، وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت . وإنى لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة، ولا حملتكم على خطة - أرخص متاع فيها النفوس - أبرأ منها بنفسى . واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلا. استمتعتم بالألذ الأرفه طويلا. فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى فما حظكم فيه بأوفر من حظى. وقد بلغكم

مأنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسن ، من بنات اليونان، الرافلات فى الدر والمرجان، والحلل المنسوجة بالعقيان، المقصورات فى قصور الملوك ذوى التيجان. وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عرباناً ، ورضيكم ملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً، ثقة منه بارتياحكم للطعان، واستماحكم بمجالد الأبطال الفرسان ، ليكون حظكم منكم ثواب الله على إعلاء كلمته وإظهار دينه بهذه الجزيرة، وليكون فتحها خالصاً لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم. والله تعالى ولى إنجادكم على ما يكون لكم ذخراً فى الدارين . واعلموا أنى أول مجيب لما دعوتكم إليه، وأنى عند ملتقى الجمعين حامل بنفسى على طاغية القوم لذريق فقاتله إن شاء الله تعالى . فاحملوا معى ، فإن هلك بعدى ، فقد كفيتكم أمره ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم إليه، وإن هلك قبل وصولى إليه فاخلقوني فى عزيمتى هذه ، واحملوا بأنفسكم عليه، واكتفوا إليهم من فتح هذه الجزيرة بقتله ، فإنهم بعده يخذلون" (١)

والمسألة لم تقف عن هذا الحد بل تعدتها إلى الشعر فقد نسبوا له هذه الأبيات :

ركبنا سفينا بالمجاز مقيرا
عسى أن يكون الله مناقداً اشترى
نفوساً وأموالاً وأهلاً بجنة
إذا ما اشتبهنا الشئ فيها تيسراً
ولستنا نبالي كيف سالت نفوسنا
إذا نحن أدركنا الذى كان أجدرنا

(١) نفع الطيب ج ١ ص ٢٤١ (ط. احسان عباس) ولا يختلف كثيراً عما ورد فى الروايات (ترجمة موسى بن نصير) ج ٥ ص ٣٢٢ فى حين ترد فى الامامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة بصورة مغايرة مختصرة .

وليس هذا بغريب فقد نسبوا من قبل شعرا لقابيل وهابيل ولأبناء نوح ولقوم عاد وثمود ...

وبعيداً عن تفاصيل وقائع الفتوحات نكتفى بالإشارة إلى النصر الحاسم الذى أحرزته جيوش طارق بن زياد عند شذونه Sidona (قرب وادى البرباط) بجيش قوامه اثنا عشر ألفاً (بعد أن أمده موسى نصير بمدد قوامه خمسة آلاف جندي) فى مواجهة جيش ضخّم يقال إنه بلغ مائة ألف مقاتل، وبما ضاعف من أهمية هذا النصر أن للزريق نفسه قتل فى المعركة، ولم يعثر له على أثر، ولم تلبث الأندلس أن استسلمت للفتح العربى فى غضون ثلاثة أعوام .

وبما ساعد على سرعة تحقيق هذا الفتح أن موسى بن نصير خرج سنة ٩٣ بجيش عربى قوامه ثمانية عشر ألف جندي ، أستولى على مدن قرمونة واشبيلية ووشقة و لاردة ثم تقابل مع جيوش طارق بن زياد على ضفاف نهر التاجو حيث كان القائد البربرى يحاصر طليطله عاصمة القوط التى سقطت فى النهاية، وربما جاز أن نتخيل أن القائدين كان من الممكن أن يتما فتح شبه الجزيرة كلها بعد ذلك لولا أن جاءت اليهما أوامر الخليفة تأمرهما بالتوجه الى دمشق، وكان قد اتجه عدد ضئيل من الجيش القوطى - بقيادة بلايو- فى الفرار الى الجبال الشمالية الغربية ومن هناك كونوا نواة للمقاومة أو الحركة الاسترداد Reconquista وتأسست على أيديهم مملكة ليون أما القلاع التى كانت تحيط بهه المملكة فإنها لاتلبث ان تكون بدورها إمارة صلية عرفت باسم كاستيا Castilla وهى التى تسميها المصادر العربية بامارة قشتاله وسيكون لها شأن كبير بعد ذلك فى مجريات الاحداث وقد اصطلح الدارسون على تقسيم عصور الأندلس تاريخيه وأدبه - وفقاً لأقسام هي :

أ - مرحلة عصر الولاة :

وتبدأ من الفتح حتى استيلاء الأمير الاموى عبد الرحمن الداخل على مقاليد الامور في قرطبة (سنة ١٣٨هـ - ٧٥٥ م)

وفى خلال هذه المدة كانت الاندلس مجرد ولاية تابعة للدولة الأموية بالشرق ، وقد عرفنا كيف أن موسى بن نصير وطارق بن زياد اتجها إلى دمشق بأمر من الخليفة الأموى وعين عبد العزيز بن موسى بن نصير واليا على الأندلس ، وبدأت معه مرحلة جديدة من الفتوح لكنها أجهضت بمقتله سنة ٩٧هـ، وتوالى محاولات الفتح من بعده خاصة فى عهد عبد الرحمن الغافقى الذى وصلت غزواته الى اقليم اكيثانيا - فى الجنوب الغربى من فرنسا واستولى على مدينة بورجو لكن جبرشه لقيت هزيمة مباغتة عند مدينتى تور وبواتيه (سنة ١١٤هـ/٧٣٢م) - وتعرف هذه المعركة فى الكتب العربية باسم بلاط الشهداء .

وقد اوقفت هذه الهزيمة المد العربى، كما جاءت عوامل أخرى داخلية فزعزعت الكيان هناك ذلك أن الفتن الداخلية اشتعلت بين المسلمين بسبب عوامل الفساد والاستبداد وضيق الأفق ، وقد شعر الأيبيريون الذين اعتنقوا الإسلام بالغبن لأنهم طولبوا بأداء الجزية على الرغم من إسلامهم وكذلك البربر الذين شعروا بأن العرب يتعالون عليهم ويعاملوهم معاملة الأسباد للعبيد ومن ثم اشتعلت الفتنة البربرية فى المغرب والأندلس حتى إذا ماتم القضاء على هذه الفتنة ثارت القلاقل بين العرب الحجازيين (البلديين) وعرب الشام

عصر الامارة الأموية (١٣٨-٣١٦)

ويبدأ هذا العصر مع استيلاء عبد الرحمن الداخل على مقاليد الأمور سنة ١٣٨ ويستمر حتى سنة ٣١٦.

ففى سنة ١٣٨ أي بعد فترة وجيزة من سقوط الدولة الأموية فى المشرق نجح هذا الأمير الأموى فى الفرار الى الغرب، ودخل الأندلس فالتف حوله أنصار بنى أمير ونجح فى الاستيلاء على قرطبة ومضى يوطد أركان ملكه على مدى أكثر من ثلاثين سنة ، ومن ثم لقب بـ "صقر قریش" لأنه "عبد البحر وقطع القفر وجند الاجناد ودون الدواوين ونال ملكا بعد انقطاعه بحسن تدبيره وقوة شكيمته" كما قال عنه أبو جعفر المنصور بحسب ما نقل ابن الخطيب فى كتابه أعمال الأعلام .

وبغض النظر عن الكفاءة السياسية والحربية للداخل، فإن التاريخ يسجل له الاعتناء بالجوانب الحضارية فقد اهتم بتجميل قرطبة وبنى فى شمالها الغربى قصرا سماه الرصافة - على غرار قصر جده هشام بن عبد الملك فى بادية الشام وحدد مسجدها الجامع ، فضلا عن أنه كان أدبيا شاعرا ، على ماسنرى .

وقد توالى على عرش قرطبة عدد من الأمراء من نسل الداخل أولهم ابنه هشام الرضا (سنة ١٧٢ ثم الأمير الحكم (١٨٠) ثم عبد الرحمن الثانى (الأوسط) سنة ٢٠٦ وفى عهده بلغ الترف فى قرطبة درجة عالية من الرقى ، وأصبحت تنافس بغداد فى هذا المضمار خاصة بعد أن انتقل اليها زرياب الموسيقى (ولاتزال آثار موسيقاه ماثلة فى ألحان أهل المغرب حتى اليوم) وكان زرياب شخصية اجتماعية ، وأحد أساطين فن الذوق والسلوك (الاتيكييت) فعلم الأندلسيين طريقة الترتيب فى تقديم الأطعمة وابتكر فى الأزياء والألوان، وقد نفس بعض أهل الأندلس على زرياب هذه المكانة التى احتلها ومن هؤلاء الشاعر يحيى بن الحكم الغزالى وقد مرت الأندلس بعد وفاة عبد الرحمن الثانى بفترة اد لمرايات وتكونت دويلات كثيرة هنا وهناك وظهر عدد من الثوار أهمهم عمر ابن حفصون ولكن قبض الله للإسلام هنا اميرا بطلا هو عبد الرحمن الثالث (الناصر) والذى حكم البلاد خمسين عاما (من ٣٠٠ الى ٣٥٠) بلغت فيها درجه رفيعة من الاستقرار والرخاء وعلو الشأن فى ميادين العلم والثقافة كافة.

وفى سنة ٣١٦ تسمى عبد الرحمن الناصر بالخليفة واستمر ذلك من بعده الى سقوط البيت الأموي فى الأندلس كما أنشأ مدنة الزهراء - شمال قرطبة - وقد تولى من بعده الحكم الثانى (المنتصر بالله) وكان ملكا حكيما محبا للكتب وفى عهده وفد أبو على القالى على الأندلس فكان من عوامل نشاط الحياة الثقافية فى الأندلس ، والحكم هذا آخر الملوك الأمويين الأقوياء إذ تولى من بعده ابنه هشام الثانى (المؤيد بالله) وكان صغيرا غرا مما حدا بالحاجب أبى منصور العامرى لأن يستبد بالأمر ويتولى بحنكة إدارة سفينة الأندلس التى كانت الأخطار تحلق بها من كل جانب الى أن توفى (سنة ٣٩٢) ثم كان ماكان من أمر ابنه عبد الرحمن (شنجول) الذى طمع فى الخلافة فكان فى ذلك نهايته ونهاية البيت الأموي معا .

دول ملوك الطوائف :

تفرقت الكلمة بعد ذلك فى الأندلس وأصبح لكل مدينة أو اقليم حاكمه المستبد بالأمر فيه، ومن أبرز هؤلاء الملوك :

- بنو عباد، وحاضرتهم اشبيلية ، ودام ملكهم : سبعين سنة، وامتد نفوذهم الى قرطبة وغيرها.

- بنو جهور ، وكانت عاصمتهم قرطبة ، وحكموا فيه أربعين سنة، إلى أن استولى بنو عباد على دولتهم

- بنو حمود وعاصمتهم مالقة

- بنو الأفطس ، وحاضرتهم بطليوس ، وحكموا فيه ١٠٠ سنة

- بنو ذى النون ، وعاصمتهم الباطنة، وحكموا فيه ١٠٠ سنة

- بنو عامر وحاضرتهم بلنسية، وحكموا نحو ١٠٠ سنة

بنو هود، وحاضرتهم قسطة، وحكموا سبعين سنة.

بنو صمادح، وعاصمتهم المرية، وحكموا نحو نصف قرن .

وهناك ، فضلا عما ذكرنا ، دويلات أخرى كثيرة مثل دولة بنى القاسم فى الفنت ، ودولة بنى رزين فى شنتمرية الشرق (أو شنتمرية ابن رزين) وإمارة سعيد بن هارون وابنه محمد على شنتمرية الغرب، وإمارة بنى مزين فى شلب، وبنى يحيى فى لبله وبنى بكر فى ولبه وبنى برزال فى قرمونة

وعلى الرغم من هذا التمزق السياسى الخطير ، الذى كان يؤذن بأسوأ العواقب إلا أن الحياة الثقافية شهدت فى ظل هذه الانقسامات انتعاشا ضخما مداه المنافسة بين هؤلاء الأمراء والتهافت على الشهرة وحب الاستماع الى مدائح الشعراء فيهم ، فهو انتعاش عارض لم يستند الى دوافع دينية او قومية أو فكرية حقيقية وقد أحسن ابن رشيق عندما قال فى وصفهم :

مما يزهدنى فى أرض أندلس

أسماء معتمد فيها ومعتضد

ألقاب مملكة فى غير موضعها

كالهر يحكى انتفاضا صولة الأسد

دولة المرابطين (أو الملثمين) :

لدولة المرابطين تاريخ طويل بالغ التعقيد والغموض، إذ يبدأ فى تلك المناطق الإفريقية المجهولة الشاسعة فى الشمال الغربى من افريقية، فيما يعرف اليوم بصحراء شنقيط (بموريتانيا) ووسط قبائل البربر المعروفين باسم صنهاجة ومن أهم فروعها لتونة ومسوفة وجد اله وكان هؤلاء يتلثمون وبذلك اختلفوا عن الصنهاجيين الشماليين مثل بنى زيرى الذين حكموا المغرب الأدنى والأوسط وغرناطة فى فترة من الزمن

وقد انتشر الإسلام بينهم مبكراً، ولكنه لم يقو إلا في غضون القرن الخامس بفضل زعيمهم يحيى الجدالي والفقيه عبدالله بن ياسين الجزولي، إذ توطدت على أيديهما دعائم المذهب المالكي أو استقام له مفهوم ديني سلفي متين، ومن ثم فإن اسم "المرابطين الذي أطلقوه على أنفسهم كان اسماً على مسمى. وعلى رأسهم لتونة - للشمال، أي لتلك الاصقاع التي كان يسيطر عليها آنذاك قبائل غمارة في الشمال وقبائل برغواطة في الغرب وإلى جوار هؤلاء كانت تقيم كذلك قبائل زنانة وبعض الرافضة ومن إليهم، ونجح المرابطون في فرض هيمنتهم هناك واتخذوا من اغمات عاصمة لهم ثم شرعوا في بناء مدينة مراكش التي سوف تصبح العاصمة بعد ذلك ويأتي التحول حين يتحول زعامة المرابطين للأمير يوسف بن تاشفين الذي تسمى بأمير المسلمين فقد برزت أهمية هذه الدولة الجديدة في مقابل ما كان عليه مسلمو الأندلس من هوان وتفكك، ثم جاءت استعانة المعتمدين عباد به ليدراً عنه خطر الفونسو السادس وفي سنة ٤٧٩ عبر يوسف بن تاشفين وجيوشه مضيق جبل طارق ليتقابل مع جيوش المعتمد بن عباد ومن آزره من ملوك الطوائف ولتكون معركة الزلاقة حيث انتصر المسلمون انتصاراً حاسماً ورجعت جيوش المرابطين إلى مراكش لتكون لتعود مرة أخرى على الأندلس بعد ذلك بأربعة أعوام وقد عزم ابن تاشفين هذه المرة على تخليص البلاد من حكم ملوك الطوائف وتوحيد المغرب والأندلس تحت إمرته

ولم تستمر فترة الزهو طويلاً بالنسبة للمرابطين فبعد موت يوسف بن تاشفين سنة ٥٠٠) تولى الملك ابنه علي، وكان حاكماً ورعاً قليل الخبرة بالسياسة وشؤون الحكم، ومن ثم بدأ الاضطراب يتسلل إلى الدولة، ووقعت حوادث شديدة الخطر لم يتنبه إلى نتائجها، فمن ذلك ظهور دعوة ابن تومرت وكثرة أشياعه، وقد سكنت عنه علم بن يوسف طملاً، ولم تحرك ساكناً إلا بعد قوات الأوان وقد خضع المرابطون لسيطرة الفقهاء، وبعد ثروات الأندلس

الهائلة أمراء المرابطين بالدعة وحياة الملذات والخمول ، ففقدوا مسوغات بقائهم على رأس السلطة، ولم تدم دولتهم إلا زهاء ستين سنة.

وقد تم إسقاط المرابطين، من الناحية العملية نحو سنة . ٥٤ ، ففي هذا التاريخ أعلن أهل اشبيلية مبايعتهم لتلك الدولة الجديدة التي ظهرت بالمغرب والتي تسمت باسم الدعوة الموحدية ، وهكذا انطوت صفحة تلك الدولة التي شاخت قبل الأوان بعد أن أحرزت انتصارات باهرة ونحت في إلحاق الهزيمة بألفونسو السادس واستطاعت أن تسترد بلنسية سنة ٤٩٥ من يدى السيد القمبيطور (رودريكو دياز) وأضاعتهأ أبدى الإهمال وسوء التدبير

دولة الموحدين :

وللدولة الموحدين بداية غامضة شيئا ما، ولكن خطوطها العامة معروفة على كل حال، وربما تمثلت هذه البداية بصورة أساسية فيما تسلل الى كيان المرابطين من وهن وفساد، وما كان يعج به المغرب والأندلس من اضطرابات وفتن وتيارات فكرية واجتماعية وعسكرية وروحية متصارعة متلاطمة .

على أن التصدع الفعلى فى كيان المرابطين يظهر على نحو واضح سنة ٥١٤ هـ اذ تتردد فى مراكش أصداء دعوة محمد بن تومرت مناديا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مظهرا الغلو فى تطبيق تعاليم الدين، ناشرا دعوته بين القبائل، متلقيا بالمهدى المنتظر" و- "الامام المعصوم" واذا بالجموع تلبى نداه ويصطنع من بينهم عددا من "الخواريين" على رأسهم عبد المؤمن بن على الذين يتولى زمام قيادة "الموحدين" على أثر وفاة ابن تومرت سنة ٥٢٤ هـ

وعبد المؤمن بن على بربرى من كومية - بطن من زناتة- اتسم بالعبقرية العسكرية والدهاء السياسى، واستطاع بعد معارك طاحنة أن يستولى على مراكش - حاضرة المرابطين فى المغرب - سنة ٥٤١ ، ويؤسس دولة وطيدة الأركان انتقل بها من نصر إلى نصر إلى أن توفى سنة ٥٥٨ هـ

وكان من البديهي للدولة الموحدية، بعد أن تمكنت من سحق المرابطين فى المغرب، أن تتجه إلى استئصالهم فى الأندلس، وكان أمرها موزعا بين هذه الزعامات الإسلامية وبين أطماع ملوك الفرنجة الذين أضرموا حروب الاسترداد، وساعدهم عليها ما عثرى أهل الأندلس من خلل وثورات وأطماع ونزوات أدت إلى سقوط طليطلة مبكرا (سنة ٤٧٨) - على زمن ملوك الطوائف ولولا أن تدارك الله الإسلام آنذاك بالانتصار فى معركة الزلاقة سنة ٤٧٩ لكان انهيار الأندلس قد وقع بأسرع مما كان .. ثم توالى سقوط المدن فاستسلمت تطيلة سنة ٥١١ هـ ثم سرقسطة سنة ٥١٢ وتمكن ألفونسو المحارب من الاستيلاء على

العديد من الحصون والمواقع المنيعه مما أدى إلى استسلام مكناسة - سنة ٥٢٧هـ - ثم طرطوشة ولاردة وإفراغة من قواعد الثغر الأندلسي الأعلى ، وفى ظل هذه الحالة برزت قوة الموحيدين .

وأول جيش موحدى دخل الأندلس نحو سنة . ٥٤٠هـ ، واستطاع هذا الجيش أن يخضع اشبيلية سنة ٥٤١هـ ، وتوالت استجابة العديد من المدن الأخرى لحركة الموحيدين ، بما فى ذلك قرطبة التى اضطر أميرها المرابطى يحيى بن غانية إلى التخلي عنها للموحيدين بعد أن اشتدت عليه مطالب ألفونسو السابع ملك قشتالة ، وتمكن الجيش الموحدى من انتزاع مدينة المرية من أيدي الفرنجة بعد أن بقيت فى حوزتهم زهاء عشرة أعوام ، وانضوت غرناطة آخر الأمر لملك عبد المؤمن الموحدى .

أما مااستعصى عليه فيتمثل اساسا فى مرسية التى كانت خاضعة لأبى عبدالله محمد بن سعد بن مردنيش الملقب بـ " صاحب شرق الأندلس " (١)

ولسنا بصدد تناول تاريخ أمراء بنى عبد المؤمن ، ولكن من الضرورى التعرّيج على اسمين هامين أولهما يوسف بن عبد المؤمن ثم ابنه يعقوب .

أما الأول فكان فقيها حافظا متقنا ، لأن أباه هذبه وقرن به وبإخوته أكمل رجال الحرب والمعارف ، فنشئوا فى ظهور الخيل بين أبطال الفرسان ، وفى قراءة العلم بين أفاضل العلماء ، وكان ميله إلى الحكمة والفلسفة أكثر من ميله إلى

(١) تملك ابن مردنيش شرق الأندلس (مرسية وبلنسية) سنة ٥٤٢ هـ ، وحمل الدعوة لفكرة استقلال الأندلس عن المغرب ، ومن ثم تصدى لمحاولات الموحيدين الرامية لضم شرق الأندلس : براطوريتهم ، واخذ عليه تحالفه مع القشتاليين ، وكان من مؤرّيه ابن همشك الذى تغلب على شقورة ، واستطاع ابن مردنيش أن يحافظ على استقلاله حتى وفاته سنة ٥٦٧ فخضعت مرسية لسيطرة الموحيدين ، وسوف نعود للتعريف بابن مردنيش فى موضعه .

الأدب وبقية العلوم^(١) ، وبما يؤثر له أنه أعد العدة لجهاد الفرنجة في الأندلس عندما عبر إليها سنة ٥٦٦هـ بجيوش جرارة أفضت الي استيلائه على مرسية وماجاورها ، وكان ذلك على أثر وفاة ابن مردنيش (سنة ٥٦٧هـ) .

وكان آخر ما قام به يوسف بن عبدالمؤمن أن تحرك من المغرب الي الأندلس على رأس جيش جرار ليحرر مدينة شنترين من قبضة البرتغال (وملكهم انذاك ألفونسو هينريكيث الذي تسميه الروايات العربية ابن النفق وابن الرنك) ، ولكن هذه الحملة باءت بالخسران ، وقتل الخليفة في أعقابها ، سنة ٥٨٠هـ .

وهكذا يفضى بنا القول الي الشخصية التالية أي الي أبي يوسف يعقوب ابن يوسف بن عبد المؤمن ، الملقب بالمنصور ويوصف بأنه الفارس الذي أظهر أبهة ملكهم ، ورفع راية الجهاد ونصب ميزان العدل وبسط أحكام الناس على حقيقة الشرع ونظر في أمور الدين والورع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأقام الحدود حتي في أهله وعشيرته الأقربين كما أقامها في سائر الناس أجمعين ، فاستقامت الأحوال في أيامه ، وعظمت الفتوحات " (٢)

وكان من أعظم مآثر المنصور انتصاره الساحق على نصاري اسبانيا في معركة الأرك في سنة ٥٩١ حيث تقدر بعض المصادر - مثل الكامل لابن الأثير - أن قتلهم تجاوزت مائة ألف قتيل .

وقد توفي المنصور (سنة ٥٩٥) وتولي الحكم من بعده ابنه محمد الناصر لدين الله ، وكانت فيه سمات من نخوة أبيه لكنه لم يكن مثله في الحزم وإدارة الجيوش وقد منى جيشه الضخم في سنة ٦٠٩هـ بهزيمة شعاء في معركة تعرف

(١) وفيات الأعيان ج ٧ ص ١٢٠ وما بعدها

(٢) المصدر السابق ج ٧ ص ١٩-٢

وللمزيد من التفاصيل يراجع محمد عبدالله عنان: عصر المرابطين . وحدين في المغرب والأندلس ، القسم الثاني ومراجعته .

باسم معركة العقاب - . بالكسر - وبهذه الهزيمة تقهقر الإسلام فى الأندلس بصورة مروعة، وعلى الرغم من أن دولة الموحدين استمرت بعد ذلك لفترة من الزمن - حتى نحو سنة ٦٦٨ هـ ، ١٢٦٩ م ، إلا أن معركة العقاب كانت بمثابة النهاية الفعلية لدولة الموحدين ، بل وللعرب والمسلمين فى سائر الأندلس ، ماعدا منطقة غرناطة وما حولها فى الجنوب الشرقى من شبه الجزيرة الأيبيرية ، وقد عبر أحد شعراء ذلك العصر - ابن الدباغ الاشبيلي - على معركة العقاب بقوله :

وقائلة أراك تطيل فكرا :

كأنك قد وقفت على الحساب

فقلت لها أفكر فى عقاب

غدا سيبا لمعركة العقاب

فما فى أرض أندلس مقام

وقد دخل البلا من كل باب (١)

مملكة غرناطة :

وتسمى أحيانا بـ "دولة بنى الأحمر" و "بالدولة النصرية" و أيضا بـ "الأندلس الصغرى" ، وتمثل آخر المعاقل فى اسبانيا.

وكانت الأندلس خلال فترة الانهيار الموحدى قد شهدت عدد من الشخصيات المكافحة على الرغم من كل الظروف العسيرة التى أحاطت بهم انذاك ، ومن هؤلاء الأمير الفارس أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود - من نسل بنى هود أصحاب سرقسطة - وبدأ حركته سنة ٦٢٥ فى مرسية ، مستغلا فترة

(١) نفع الطيب ٤/٤٦٤

انهيار البيت الموحدى ونادى بتخليص الأندلس من كل من النصارى والموحدين معا وحث الدعوة للعباسيين بما دعا الخليفة العباسى الى تشييع المراسيم له، وتلقب به "المتوكل على الله؛

وسرعان ما استطاع أن يبسط نفوذه على جيان وقرطبة وماردة وبطليوس، كما انتزع غرناطة من قبضة الموحدين فى سنة ٦٢٨هـ ، وعنه يقول لسان الدن بن الخطيب انه كان "شجاعا كريما حيباً وفياء، متوكلا عليه ، سليم الصدر ، قليل المبالاة بالأمر ، محدودا ، لم ينصر به جيش ، ولا وفق له رأى ، لغلبة الخفة عليه واستعجاله الحركات، ونشاطه الى لقاء الأعداء من غير كمال استعداد^(١) والحق أن عوامل كثيرة أسهمت فى زعزعة ملك ابن هود، أهمها فورة الحماس التى سرت فى نفوس نصارى الأندلس ، ومن ثم سقطت قرطبة - التى كانت لفترة طويلة من الزمان حاضرة الخلافة، وقد انتهت حياة ابن هود فجأة، وهو فى ثغر المرية، سنة ٦٣٥ .

وتعرضت بلنسية بدورها للمصير التعس، عندما تحالف أميرها الموحدى (السيد أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن يوسف بن عبد المؤمن) مع ملك أراجون خايمى الأول - بعد أن نجح أبو جميل زيان بن مردنيش فى انتزاع المدينة منه - ولم يلبث السيد ابو زيد ان تنصر وأصبح من قواد النصارى وأزروهم حتى تمكنوا من الاستيلاء على بلنسية، ثم توالى سقوط المدائن الكبرى: مرسية (٦٣٦) واشبيلية (٦٤٥) وغيرهما، ووضح ان النهاية الدامية باتت على وشك ان تخيم على سائر الأندلس .

وفى هذه الآونة العاصفة استطاع أحد القادة العرب : محمد بن يوسف الملقب بابن الأحمر، سليل بنى نصر أصحاب حصن أرجونه، من بسط هيمنته

(١) أعمال الأعلام ٢/٢٧٨، والإحاطة ٢/١٢٩

١١١ نفع الطبيب ج ١ ص ٢١

على عدد من المواقع والحصون الى أن استولى عل غرناطة سنة ٦٣٥ وفى ظل هذه الظروف "كانت وشائج القومية والدين والخطر المشترك كلها تفيض أمام الأطماع الشخصية الوضيعة، وكان فرناندو الثالث ملك قشتاله يرى فى ابن الأحمر، بعد اختفاء ابن هود، زعيم الأندلس الحقيقى والخصم الذى يجب تحطيمه. وكان ابن الاحمر من جانبه يقدر خطورة المهمة التى ألقاها القدر على عاتقه ، وكان يضطرم عزمًا واقدامًا لمحاربة النصارى واستخلاص تراب الوطن من أيديهم^(١) ومع ذلك فإنه اضطر الى دفع الجزية لملك قشتاله وسلم له جيان وأرجونة وبركونة وغيرها، فى مقابل توقيع معاهدة سلام بينهما ثم عاد فى سنة ٦٦٥ فتنازل عن قرابة مائة موضع وحصن مما كان فى حوزته ، خاصة فى غرب البلاد ، وخلقت هذه الأحداث جراحا غائرة فى نفوس الناس، وعلى اثرها كتب أبو البقاء الرندى مرثيته المشهورة :

لكل شئ اذا ماتم نقصان

فلا يغرب بطيب العيش انسان

وتوفى محمد بن الأحمر سنة ٦٧١هـ، بعد أن ابتنى قصر الحمراء ، وبعد أن استطاع دفع ملوك بنى مرين بالمغرب لأن يعينوا الأندلس، وتكونت تبعا لذلك "مشيخة الغزاة" وتبعا لذلك تمكنت مملكة غرناطة من مجالدة أعدائها فترة طويلة من الزمن ، الى أن آذنت شمسها بالغروب وكان النصارى قد وحدوا صفوفهم ، بقيادة ايسابيللا ملكة قشتاله وفرناندو الخامس ملك أراجون ، وشدوا الحصار على غرناطة إلى أن اجبروا ملكها أبا عبد الله محمداً الذى تسميه المراجع الأوربية Boabdil أو أبا عبدالله الصغير على توقيع معاهدة استسلام غرناطة، وذلك فى سنة ٨٩٧ (١٤٩٢م)، وبذا انطوت اخر الأعلام الإسلامية عن أرض شبه الجزيرة الأيبيرية .

(١) محمد عبدالله عنان: نهاية الأندلس ص ٤٢

مابعد الرحيل:

هناك مرحلة كثيرا ماتنسى من عمر الأندلس، وإذا ما ذكرت في كتب التاريخ فإنها عادة ماتهمل في كتب الأدب ونعنى بها المرحلة "الموريسكية"، التي تتناول فترة مابعد الأندحار، أي المرحلة التي تبدأ بسقوط غرناطة وماتلاها من أحداث جسام، وقد تناولتها - تاريخيا - بعض الكتب العربية، من بينها كتاب محمد عبدالله عنان الضخم: "نهاية الأندلس، وتاريخ العرب المنتصرين"، وكتاب عادل سعيد بشتاوي "الأندلسيون المواركة"، فضلا عن الترجمة العربية لكتاب : هورتز وب. بنثنت: تاريخ مسلمي الأندلس : الموريسكيون، حياة ومأساة أقلية" الخ ... وأما الأدب فلا نكاد نجد له ذكرا إلا عند د. عبد العزيز الأهواني في : الزجل في الأندلس والذين يعرضون لأحوال المسلمين "المدجنين" Las Mudejares و (المدخاروس) لابد وأنهم يتذكرون الفتح العربي لاسبانيا وماكان يلاقيه المستعربون Los Mozarabs من حسن معاملة وجميل رعاية، وماآل إليه أمر مسلمي الأندلس من مهانة وتشريد واجبار على التنصر ونقض للمواثيق.

ويتمثل نقض المواثيق بصورة أساسية من خلال معاهدة تسليم غرناطة والتي تضمنت سبعة وسبعين شرطا منها "تأمين الصغير والكبير في النفس والأهل والمال وإبقاء الناس في أماكنهم ودورهم ورباعهم وعقارهمهم، ومنها إقامة شريعتهم على ماكانت ولا يحكم أحد عليهم إلا بشريعتهم ، وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك، وأن لا يدخل النصارى دار مسلم ولا يغصبوا أحدا وأن لا يولى على المسلمين إلا مسلم .. وأن يفتك جميع من أسر في غرناطة من حيث كانوا وخصوصا أعيانا نص عليهم .. ومن أراد الجواز للعدوة (للمغرب) لايمنع .. وأن لا يؤخذ أحد بدين غيره، وأن لا يقهر من أسلم على الرجوع للنصارى ودينهم، وأن من تنصر من المسلمين يوقف أياما حتى يظهر حاله ويحضر له حاكم من المسلمين وآخر من النصارى، فإن أبى الرجوع إلى الاسلام تمادى على ماأراد، ولايعاتب على من قتل نصرانيا أيام الحرب..

ولا يحمل علامة كما يحمل اليهود.. ولا يمنع مؤذن ولا مصل ولا صائم ولا غيره من أمور دينه "

لكن هذه الشروط نسخت شرطا بعد شرط وهكذا تم طرد المسلمين من غرناطة الى ماحولها، ثم بدأت عملية إجبارهم على التنصر وتمت ابادته من لم يفعل - وكان ذلك سنة ٩٠٤ وفي ذلك يقول المقرئ: "وبالجملته فإنهم تنصروا عن آخرهم بادية وحضرا، وامتنع قوم من التنصر واعتزلوا الناس فلم ينفعهم ذلك، امتنعت قرى وأماكن كذلك منها بلفيق وأندرش وغيرهما فجمع لهم العدو واستأصلهم عن آخرهم قتلا وسبيا .. ثم بعد هذا كله كان من أظهر التنصر من المسلمين يعبد الله في خفية ويصلي، فشدد عليهم النصارى في البحث حتى انهم أحرقوا منهم كثيرا بسبب ذلك؛^(١) ثم حمل الموريسكيون بعد ذلك على مغادرة الأندلس - سنة ١١٧٠ هـ حيث نقلوا الى فاس وتلمسان وتونس وغيرها، وكانت أحكام القتل والإحراق تصدر جزافا على الأندلسيين ذوي الأصول العربية، وتم كذلك منع وإحراق الكتب العربية والتسمي بأسماء إسلامية الخ^(٢) . ونتيجة لذلك أخذت الكتابة العربية تختفى شيئا فشيئا وإن بقيت آثار منها تعكس اللوعة والإحساس الدامي بالقهر والضياع .

(١) نفح الطيب ج ٤ ص ٥٢٨

(٢) راجع : تاريخ مسلمي الأندلس (الموريسكيون) ص ١٢٥ حيث يشير الى ما اكتشف من كتب إسلامية مخبوءة في ثقب الجدران في بعض المدن الأسبانية

ملاحظات حول الثقافة والمجتمع

كان التركيب السكاني في الأندلس خليطا من أجناس شتى وحضارات متباينة شرقية وغربية، بحيث يمكن القول بأن الأندلس تمثل "حالة خاصة" في تاريخ البشرية .

فهناك السكان الأصليون الذين ينحدرون بدورهم من أصول مختلفة بعضها محلي قديم، وبعض آخر جاء إليها من روما أو من فينيقيا، وأيضا من أقصى شمال المعمورة) مثل الوندال والقوط) ، على أن هؤلاء السكان يمكن أن يصنفوا بعد الفتح العربي إلى عدة فئات :

- المستعربة (Los Mozarabes) ، وهم الذين بقوا على ديانتهم الأصلية (النصرانية وفقا للمذهب الكاثوليكي) ولكنهم اتصلوا بالثقافة العربية وحاولوا التجانس مع الحياة الجديدة التي أحاطت بهم، والكتب العربية تسميهم عادة : عجم الأندلس أو عجم الذمة، وقد ذكرهم ابن حوقل - الذي جاء وافدا على الأندلس في زمن الخليفة الناصر - في عبارته: "وبالأندلس غير ضيعة فيها ألوف من الناس لم تمدن وهم على دين النصرانية، روم ، وربما عصوا في بعض الأوقات ، ولجأ بعضهم الى حصن فطال جهادهم لأنهم في غاية العتو والتمرد"

- المولدون ، وهم نسل المسالمة ، وقد وصف ليفي بروفنسال هؤلاء المسلمين الجدد بقوله انهم زاولوا في القرى تربية المواشى والزراعة، وفي السواحل الصيد والصناعات البحرية بينما كانوا في المدن يقومون هم والموالي بالحرف والتجارة، وهذا كله يبين الدور القوي الذي قام به المولدون في حين ان الاقتصاد العام للبلاد، وهم يشكلون القسم الأكبر من سكان الأندلس . وقد برهن الأمويون على أفضل سياسة وأحكمها عندما ساعدوهم على الارتقاء وسمحوا

لكثير منهم بالاغتناء وبالتغلغل فى المجتمع الإسلامى. وكانت سياسة اللين لا سياسة القهر هى المتبعة فى نشر الإسلام، ومالبثت هذه السياسة أن اثمرت وأمدت النظام الأموى بجماعة كبيرة من ذوى القيم العليا الذين استطاعوا باستقامتهم - غير مرة - أن يفضوا الخلافات السياسية التى كانت تنشب بين العناصر المهاجرة من عرب وبرايرة ..^(١) وقيت أسر من هؤلاء المولدين محافظة على أسمائها القديمة مثل بنى مرتين Martin وبنى مردنيش Martinez وبنى قومس Comes وبنى شبريق Savarico وبنى القبطرنة Kabturno وبنى اللونقة Longo وبنى قرلمان Karluman الخ .

- اليهود ، وكانوا على زمن القوط أقلية مضطهدة (ومن ثم أزروا الفتح الإسلامى للأندلس) ، واعتادوا أن يعيشوا فى أحياء خاصة بهم، واستطاع بعضهم - مثل ابن النغلة- أن يحتل مناصب رفيعة فى الدولة . وكان منهم شعراء وكتاب بالعربية .

- أهل البلاد المعادون للعرب

ونقصد بهم سكان البلاد التى لم يفتحها العرب حيث تكونت الإمارات التى قادت حركة "الاسترداد" - Reconquista - حتى تمكنوا فى النهاية من طرد المسلمين من سائر الأندلس

- العرب الفاتحون ومواليهم ، وقد أشرنا اليهم فى ايجاز عند الحديث عن الفتح عبر المرحلة الأموية من تاريخ الأندلس

ويمكن القول فى يسر إن المرحلة "العربية" كانت متأثرة الى حد بعيد بالطابع الشامى فى كل شئ ، وربما ساعد على ذلك أن قرطبة نفسها كانت تشبه

(١) بروفنسال: تاريخ اسبانيا الإسبانية (بالفرنسية) ، نقلا عن د. ألبير جيب مطلق:
الحركة اللغوية فى الأندلس ص ٢٨

مدينة دمشق من عدة وجوه إذ كانت تقع على الشاطئ الأيسر من نهر الوادي الكبير كما كانت حاضرة الأمويين تقع على الضفة اليسرى من نهر بردى، وكانت حاضرة الأندلس يحف بها جبل العروس بينما يحف بدمشق جبل مشابه هو قاسيون، وقد عرفنا أن جامع قرطبة شيد على نحو يشبه المسجد الأموي بدمشق "أما الناحية الدينية في الأندلس في هذه الفترة فكانت هي الأخرى متأثرة بالشام، فقد اعتنق الأندلسيون في بادئ الأمر مذهب عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي امام الشام المتوفى سنة ١٥٧هـ ، ومقامه يزداد في بيروت، وكان الأوزاعي من المجاهدين الذين رابطوا في مدينة بيروت التي كانت في ذلك الوقت رباطا على العدو البيزنطي لذا اهتم مذهبه بصفة خاصة بالتشريعات الحربية وأحكام الحرب والجهاد. وهذا الاهتمام كان يناسب وضع الأندلسيين في هذه الفترة الأولى من حياتهم ، القائمة على الحرب والغزو".^(١)

ومن الطبيعي أن ذلك كله سينعكس بدوره على طبيعة الأدب والثقافة في الأندلس آنذاك

ويحتاج حزب "المولدين" الى وقفة خاصة ، لأنهم احتلوا في تاريخ الأندلس مكانة متميزة، وقد كان لهم فطهم الخاص في كل شئ ، فقد اعتاد معظم ارتداء الثياب البيض حزنا على الموتى، وفي ذلك يقول شاعرهم

ألا يا أهل أندلس فطنتم

بلطفكم الى أمر عجيب

لبستم في مآتمكم بياضا

فجئتم منه في زى غريب

صدقتم فالبياض لباس حزن

ولا حزن أشد من المشيب

(١) د. العبادي ، السابق ص ١١٤ .

وكان من عادتهم فى الثياب ارتداء البرنس وهو عباءة ذات غطاء للرأس وتسمى أيضا بالغفارة ، بينما كان الخصيان يرتدون الخمار ، وتدل بعض الإشارات على أن الصقالبة - بما فى ذلك الأمراء منهم - كانوا يرتدون الأقراط ويضعون الخمار، وفى ذلك قول ابن دراج القسطلى فى مدح واحد منهم :

فتصبح فيما بين قرطيك مطلع

وقد سكن الليل البهيم خماركا

وقد تولى الأندلسيون عن العمامة فى الغالب الأعم، وإن ظل العلماء والقضاة يحرصون عليها وفى ذلك يقول المقرئ فضلا عن ابن سعيد: "وأما زى أهل الأندلس فالغالب عليهم ترك العمام، لاسيما فى شرق الأندلس ، فإن أهل غربها لا تكاد ترى فيهم قاضيا ولا قاضيها مشارا إليه ألا وهو بعمامة ، وقد تسامحوا بشرقها فى ذلك، ولقد رأيت عزيز بن خطاب اكبر عالم بمرسية ، حضرة السلطان فى ذلك الأوان، وإليه الإشارة، وقد خطب له بالملك فى تلك الجهة، وهو حاسر الرأس ، وشيبه قد غلب على سواد شعره ، وأما الاجناد وسائر الناس فقليل منهم من تراه فى شرق منها أو فى غرب .. وكثيرا ما يتزى سلاطينهم وأجنادهم بزي النصارى المجاورين لهم .." (١)

والظاهرة العامة أن البربر، على الأقل فى الأندلس ، لم يحظوا بالقدر الكافى من التقدير، واعتبروا ، أكثر من غيرهم، بمثابة الدخلاء على البلاد، وحقيقة اننا قد نصادف بعض أقوال فى مدحهم ، مثل البيت المعروف فى تعليل تمسكهم بالثام:

لما حروا إحراز كل فضيلة

غلب الحياء عليهم فتلثموا

(١) نفع الطيب ج ١ ص ٢٢٣ (ط. احسان عباس)

لكننا ، فى مقابل ذلك ، نحمد مثل قول الشاعر السميسر:

رأيت آدم فى نومى فقلت له

أبا البرية، إن الناس قد حكموا

أن البرابر نسل منك ، قال : إذن

حواء طالقة ان كان مازعموا

والحكاية المشهورة تقول إن المعتمد بن عباد بعث ليوسف بن تاشفين على أثر عودته لبلاده بعد الانتصار فى معركة الزلاقة برسالة ضمنها قول ابن زيدون:

بنتم وينا فما ابتلت جوانحنا

شوقا اليكم ولا جفت مآقينا

حالت لفقدكم أيامنا فعدت

سودا وكانت بكم بيضا ليالينا

والخبر يقول ان ابن تاشفين قال لقارئ الرسالة معلقا على
البيتين :

"يطلب منا جوارى سودا وبيضا؟ قال : لا يامولانا. ماأراد إلا أن ليله
كان يقرب أمير المسلمين نهارا لأن ليلالى السرور بيض ، فعاد نهاره ببعده ليلا
لأن أيام الحزن ليال سود. فقال: والله جيد اكتب له : إن دموعنا تجرى عليه،
ورؤوسنا ترجعنا من بعده " ! ولا شك ان هذا محض لعم فهد كا. ابن تاشفين
حصيفا داهية، وهو الذى استشهد فى الرد على تهديد النورسو السادس بقول
المتنبى :

ولا كتب إلا المشرفية والقنا

ولا رسل الا والخميس .

بل لقد تمكن الصقالبة من التأثير فى مجريات الأحداث، وهؤلاء الصقالبة (وبعض المؤرخين مثل دوزى يرجع التسمية إلى كلمة Slaves) كانوا من الرقيق المشتري من المناطق السلافية وكانت القبائل الجرمانية تغير على بلادهم وتبيعهم فى أسواق الرقيق، واشترى أمويو الأندلس أعدادا كبيرة منهم ودربوهم على فنون القتال (على نحو ما فعل الصالح أيوب فى مصر فى اقتنائه للماليك)

وبعد انهيار البيت الأموى ظهر من الصقالبة بعض الزعماء البارزين مثل أبى الجيش مجاهد العامرى الصقلى الذى شيد امارة فى دانية والجزر الشرقية

وهذا التركيب المتنوع المعقد سوف يخلف أثارا عميقة فى الأوضاع الاجتماعية فى نظام الحكم، إذ يلاحظ أن مفهوم "السيادة القرشية" لا يلبث أن يتزعزع بعد سقوط البيت الأموى ويصبح الملك أمرا مشاعا لا يخضع الا للغلبة أو الانتخاب ، وهذا ما آلت اليه الحال فى قرطبة سنة ٤٢٢ عندما أعلن الوزير أبو الحزم بن جهور " انتهاء رسم الخلافة جملة لعدم وجود من يستحقها " وأديرت قرطبة وفقا لنظام "جمهورى" واستطاع المولدون والبربر والصقالبة أن تكون لهم الكلمة النافذة فى بعض المناطق ، على نحو ما هو مبسوط فى كتب التاريخ .

وهناك وجهتا نظر بشأن طبيعة هؤلاء السكان، فبعض الدارسين وبخاصة العرب يؤمن بأنه يجب اعتبار سكان الأندلس عربا، على اعتبار أن العروية كانت العنصر المهيمن الغالب الذى احتوى كافة الأجناس الأخرى التى ارتبطت به، وهكذا كان الإسلام - دين العرب - هو الأساس ، ولغتهم هلى السائدة وطبائعهم هى المسيطرة .

أما المستشرقون الإسبان، وعلى رأسهم خوليان ريبيرا، فيرون أن أهل الأندلس هم اسبان دينهم الإسلام ولغتهم العربية، على أساس أن العرب قدموا

إلى شبه الجزيرة الأيبيرية فرسانا ولم يكن معهم أسر ومن ثم فإنهم تزايدوا عن طريق الزواج بالأيبيريات وبذا فإن الدم الأيبيري كان يزيد جيلا بعد جيل بينما يتناقص الدم العربى مرة بعد أخرى .

ولعل الاستقرار الصحيح لواقع المجتمع الأندلسى يقود الى استخلاص رأى يجمع بين وجهتى النظر، فيبرز اثر العنصر العرب دون أن يقلل من أهمية الاجناس الأخرى، والأدلة التى تدفع للأخذ بهذا الرأى كثيرة للغاية

فلا شك أن اللغة العربية كانت اللغة الرسمية للدولة فضلا عن أنها كانت لغة الإبداع الأدبى - شعرا ونثرا - وامتد نفوذها الى المستعربين أنفسهم ولعل أوضح دليل على ذلك شكوى أحد كبار رجال الدين النصارى (الفارو القرطبى) الذى ترك وثيقة يقول فيها :

"إن إخوانى فى الدين يجدون لذة كبرى فى قراءة شعر العرب وحكاياتهم ويقبلون عي دراسة مذاهب أهل الدين والفلسفة المسلمين، لا ليردوا عليها وينقضوها، وإنما ليكتسبوا من ذلك أسلوب عربيا جميلا صحيحا. ان الموهوبين من شباب النصارى لا يعرفون اليوم الا لغة العرب وآدابها ويؤمنون بها ويقبلون عليها فى نهم ، وهم ينفقون أموالا طائلة فى جمع كتبها ويفخرون فى كل مكان بأن هذه الآداب حقيقة جديرة بالإعجاب .

لقد نسى النصارى حتى لعنتهم ، فلا تكاد تجد فى الألف منهم واحدا يستطيع أن يكتب الى صاحبه كتابا سليما من الخطأ. فأما عن الكتابة فى لغة العرب فإنك واجد منهم عددا عظيما يجيدونها فى أسلوب منمق، بل هم ينظمون من الشعر مايفوق شعر العرب أنفسهم فنا وجمالا "

على أن هذه الشكوى لاينبغى أن تستأثر بكل الانتباه ففى مقابلها ينبغى أن نلتفت الى ظاهرة انتشار اللاتينية المحلية (التي تعرف بالرومانث) حتى بين العرب أنفسهم وهاهو المقدسى صاحب :أحسن التقاسيم فى معرفة

الأقاليم" يذكر أن عددا من أهل الأندلس كان يتكلم فى موسم الحج بلهجة تستعصى على الفهم ولغة أخرى أعجمية. وابن حزم فى "جمهرة أنساب العرب" يقول إن جماعة من العرب، هم بنى بلى، كانوا "لا يحسنون الكلام بالطينية"، لكن بالعربية فقط رجالهم ونساؤهم" وفى هذا التخصيص مايدل على انتشار الرومانث بين سائر عرب الأندلس وخلف هذا التداخل بين الأجناس من عرب واسبان وبربر وصقالتة أثره فى اللغة المتكلمة حتى إن ابن حزم يقول إن لهجة أهل فحص البلوط - على مقربة من قرطبة - تستعصى على الفهم فمن سمعها "كاد يقول انها لغة أخرى غير لغة أهل قرطبة، وهكذا فى كثير من البلاد فإنه بجاورة أهل البلدة لأمة أخرى تتبدل لغتها تبديلا لا يخفى على من تأمله"

وفى التاريخ الأندلس أن ابن حفصون - وهو من الثوار المولدين - كان يمزج كلامه بالألفاظ من الرومانث وكذلك كان يفعل ابن مردنيش أحد كبار ملوك شرقى الأندلس

وستأتى فى الموشحات والأزجال طائفة كبيرة من الألفاظ والجمل الرومانثية التى جرت على السنة الشعراء هناك

وقد استخلصت بعض الظواهر المكونة للشخصية الأندلسية التى نوجزها فى النقاط التالية :

القلق وعدم الاستقرار :

ان التاريخ الأندلس كله تاريخ مواقف متتابعة من القلاقل والاضطرابات ومحاولات الانفصال، وتعلييلهم لهذه الظاهرة التباين الواضح بين الاجناس التى تركيب منها المجتمع الأندلسى، ومن هنا يمكن أن نتصور الشخصية الأندلسية التى عاشت فى ظلال هذه الظروف شخصية قد عانت نوعا من القلق جعلها

تسعى الى ما يشعر بالزمن أو إلى ما يسكن على الاقل بعض هذا القلق، وربما كانت من أسباب مانع من ميل الأندلسيين إلى الوان من المتعة وصنوف من اللهو كالشراب والغناء والرقص الموسيقى ، وما أشبه ذلك مما كلف به الأندلسيون؛

الاحساس بالنقص بإزاء المشرق :

لقد حبا الله الأندلس بطبيعة لاتضاهى ، وبثروات لا تبارى، وتميز أهلوه بالذكاء والنظافة والظرف والاقبال على الحياة، ومع ذلك فإن الناظر فى أحوالهم يلحظ فى أسر أنهم كانوا يحسون إحساسا عميقا بالنقص بإزاء المشرق على الرغم من كثرة ما ألفوا من كتب ورسائل فى المباهاة ببلادهم (بل ان هذه المباهاة فى حد ذاتها يمكن أن تفسر على انها ثمرة احساس داخلى بالنقص)^(١) وقد كانوا يتظاهرون بالحرص على النواحي التقليدية ولكن هواهم كان على الدوام مع الجديد ، والميل الى التحرر من التقاليد . واليكم هذه الأبيات لابن حزم، وفيها ما يكشف عن بعض جوانب النفسىة الأندلسية :

أنا الشمس فى جو العلوم منيرة
ولكن عيبى أن مطلعى الغرب
ولو أننى من جانب الشرق طالع
لجد على ماضع من ذكرى النهب
ولى نحو أكناف العراق صباية
ولا غرو أن يستوحش الكلف الصب

(١) من ذلك رسالة ابن حزم ف فضائل أهل الأندلس ورسالة الشقندى (وتأتیان فى نفع الطيب) وهناك أيضا رسالة لصفوان صاحب زاد المسافر

فكم قائل أغفلته وهو حاضر
وأطلب ماعنه تجيئ به الكتب
هنالك يدري أن للبعد غصة
وأن كساد العلم آفته الغرب
فواعجبا ، من غاب عنهم تشوفوا
له ودنو المرء من دارهم ذنب

ومن البديهي ان يعول أهل الأندلس كثيرا على المشرق، على نحو
ما تكشف عنه بصورة خاصة كتب الفهارس - مثل "فهرست مارواه عن شيوخه
من الدواوين المصنفة في ضروب العلم وأنواع المعارف أبو بكر بن خير الاشبيلي
وكتب البرامج ، مثل برنامج الوادي أشي الخ

وعدنا فهرست ابن خير بمادة غزيرة عن كتب اللغة والنحو مما شاع في
عصره - القرن السادس الهجري - فمن ذلك^(١) كتاب سيبويه والعين للخليل بن
أحمد. و"المقتضب" لأبي العباس المبرد و "الأصول في النحو" لأبي بكر بن السراج
و"الجمال" للزجاجي و "الكافي" والمقنع " هما لأبي جعفر بن النحاس .

ومن الكتب المشرقية التي انتشرت بين الأندلسيين : البيان والتبيين
للجاحظ ، والفصوص لصاعد البغدادي (الذي هاجر للأندلس وأهدى كتابه هذا
للمنصور العامري) وكتاب المجالس لثعلب (وانظر لابن عبد البر: بهجة المجالس
وانس المجالس) وأدب الكتاب لابن قتيبة وكتاب الأمثال للأصمعي (ولابن
القوطية: شرح صدر أدب الكتاب) وشرح المعلقات لأبي جعفر بن النحاس وكتبا
اليتيمة وأجناس التجنيس للثعالبي (بإجازة من الحافظ السلفي)^(٢) ، وكذلك

(١) فهرست ابن خير، ص ٣٠٥ وما بعدها

(٢) فهرست ابن خير ص ٣٧٠

"أشعار هذيل" برواية الأصمعي ومجموعة "المفضليات" : شعر ذي الرمة وشعر
أعشى بكر وشعر الخطيئة وكتاب الكامل للمبرد الخ .

وأما أبو علي القالي فإنه خلف آثارا عميقة في الحياة الأدبية هناك من
خلال دروسه بقرطبة، ومن خلال مؤلفاته مثل النوادر والأمالى التى أولع بها
أهل الأندلس (ولأبى عبيد البكرى: كتاب اللآلى فى شرح الأمالى)، وأيضا من
خلال ما حمل لهم من مؤلفات أدبية مشرقية ذكرها ابن خير فى فهرسه ، ومنها:

شعر ذي الرمة

شعر الخنساء

شعر الخطيئة

شعر جميل

شعر معن بن أوس

المفضليات

شعر النابغة الذبياني

نقائض جرير والفرزدق

شعر مالك بن الربيع

شعر النابغة الجعدي

شعر عدي بن زيد

شعر عمر بن أبى ربيعة

شعر أبى نواس

جزء من شعر أبى تمام

وفى فهرست ابن خير أيضا حديث مستفيض عن الأندلس أن أبى

تمام وبالمتنبى.

أما أبو تمام فإن شعره ذاع هناك عن طريق عدة روايات منها رواية الرحالة

البغدادى أبى اليسر ابراهيم بن أحمد الرياضى وهو الذى نشر فى افريقية
والأندلس شعر المحدثين وأخبارهم ^(١) كما يذكرون فى هذا الصدد اسم عثمان بن
المثنى، أحد مؤدبى قرطبة (ت سنة ٢٧٣) وفى شأنه يقول الزبيدى فى طبقاته:
إنه "رحل الى المشرق فلقى حبيب بن أوس ، فقرأ عليه شعره، وأدخله
الأندلس"، وأيضاً اسم الأديب الشاعر مؤمن بن سعيد الذى تقابل مع أبى تمام
فى بغداد .

كما ذاع ديوان الحماسة بين أهل الأندلس واعتنوا بشرحها ومن شراحها ابن
سيده وعاصم بن أيوب البطليوسى وأبو عامر بن ينق الشاطبى وأبو اسحاق بن
ملكون صاحب "إيضاح المنهج" وفيه جمع بين كتابى التنبيه والمبهبج لابن جنى
فى شرح الحماسة ^(٢)

ولا ينبغي أن يفهم من هذا أن الأندلسيين كانوا عالة على المشاركة فى
اللغة والأدب ، فقد كانت لهم جهود ذات شأن فى كل ميدان، ومما ألفوه فى
النحو واللغة : الاستدراك على سيبويه وطبقات النحويين واللغويين ولحن العوام
للزبيدى، واصلاح الخلل الواقع فى الجمل لابن السيد البطليوسى (صاحب
الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب ، وكتاب الانتصار ممن عدل عن الاستبطار
والحل فى شرح أبيات الجمل والرد على النحاة لابن مضاء القرطبى والمخصص
لابن سيدة الخ .

ومن مؤلفاتهم فى الأدب ، غير ما ذكرنا، كتاب العقد لابن عبد ربه
واحكام صنعة الكلام للكلاعى وبغية الملتبس فى تاريخ رجال أهل الأندلس
للضبى ، وتاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس لابن الفرضى والحلة السيرا

(١) فهرست ابن خير ص ٤٠٢، وأقرأ دراسة شيقة للدكتور محمد بن شريفة بعنوان : أبو تمام
وأبو الطيب فى أدب المغاربة ، بيروت ١٩٨٦ .

(٢) منه مخطوطة فى الاسكوريال (رقم ٣١٢) وأنظر عنها د. بن شريفة ، السابق ص ٧٩

لابن الأبار وقلائد العقيان ومطمح الأنفس ومسرح التأنس فى ملح أهل الأندلس
للفتح بن خاقان والدحيرة فى محاسن أهل الجزيرة لعل بن بسام الشنترنى -
ويعد أهم مؤلفاتهم ذى تاريخ الأدب ولعبادة بن ماء السماء الشاعر الوشاح -
وهو من تلاميذ الزبيدى - كتاب (ضائع) فى أخبار شعراء الأندلس والأعلم
الشنتمرى (ت ٤٧٦) أشهر من عكف على جمع وشرح المجاميع والدواوين
الشعرية مثل شعراء الستة الجاهلين وكتاب الحماسة ودواوين زهير وعلقمة الفحل
والنابعة ، وقدم أبو بكر عاصم بن أيوب البلوى شروحا على الحماسة وأشعار
الستة الجاهلين ، كما ألفوا بدورهم مجموعات على غرار حماسة أبي تمام منها
حماسة الأعلم الشنتمرى التى ضمنها حماسة أبي تمام والحماسة البصرية وحماسة
الجرجاني وغيرها ورتب أشعارها وأبوابها وشرحها شرحا مفيدا^(١) الخ وقد
ضاعت آثار كثيرة بسبب العوامل التاريخية التى ذكرناها ، ولاتزال أعمال
أندلسية جليلة القدر مخبوءة عن القراء ، متوارية فى خزائن المخطوطات العامة
والخاصة ، وهناك - بما هو مطبوع - غير ما ذكرنا:

- البديع فى وصف الربيع ، لأبى الوليد اسماعيل بن عامر الحميرى
نشره هنرى بريس بالمغرب سنة ١٩٤٠ ، وأعيد نشره مؤخرا ، وموضوعه واضح
من عنوانه ، وكل مادته - ما خلا مقطعات لابن الرومى - أندلسية خالصة

- زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر^(٢) لى بحر صفوان بن ادريس
التجيبى المرسى ، وكان عبد القادر سحداد قد نشره فى بروت ١٩٣٩ ثم أعيد
نشره فيها سنة ١٩٧٠ ، وهو منتخبات نفيسة من دواوين شعراء عصر الموحدين
مثل ابن حبوس وأبى العباس الجراوى وابن مجبر^(٣) وابن دؤاد ونس القسطللى
وابن زهر الحفيدو وترجع أهميته إلى أن معظم الدواوين التى رجع إليها - ان
لم تكن كلها - مفقودة .

(١) د. بن شريفة ، السابق ص ٧٩

- المطرب من أشعار أهل المغرب لأبى الخطاب عمر بن حسن بن دحية، وفيه ترجمات ونصوص قلما توجد فى غيره، خاصة ماتعلق بابي الحكم الغزال
- تحفة القادم لابن الأبار ، وقد عارض به كتاب "زاد المسافر" ، وفيه بدوره ترجمات ونصوص ممالا يوجد فى غيره
- الحلة السيرة لابن الأبار أيضا، وقد وصفه محقق الكتاب د. حسين مؤنس بأنه دون شك أحسن كتب ابن الأبار وأعظمها فائدة بل هو من عيون مآلف أهل الأندلس قاطبة، ومن المراجع التى لا يستغنى عنها من يؤرخ له أو يكتب فى أي ناحية من نواحي الحياة فيه "
- المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد: وهو موسوعة أدبية ضخمة تشمل الأندلس وصقلية والمغرب ومصر ، وقسم بحسب المدن والأقاليم وفائدته أعم من أن تحصى
- ومن كتب ابن سعيد كذلك :
- القدح المعلى فى التاريخ المحلى ونشر منه اختصار بالقاهرة (١٩٥٩)
- بعناية ابراهيم الإبيارى ثم أعيد نشره ١٩٨٠
- الفصون اليانعة فى محاسن شعراء المائة السابعة ، ونشره ابراهيم الابيارى بالقاهرة سنة ١٩٤٥ ثم أعيد نشره سنة ١٩٦٧
- رايات المبرزين وغايات المميزين ونشره جومث فى مدريد سنة ١٩٤٢ ثم حققه بالقاهرة د. عبد المتعال القاضى سنة ١٩٧٣
- كتاب الغراميات، وهو مفقود ، ونشر قسم منه بتحقيق د. سعيدة محمد رمضان فى مجلة معهد المخطوطات العربية بالقاهرة
- المقتطف من أزاهر الطرف، وقد نشر د. عبدالعزيز الأهوانى قسما منه بتعلق بالموشحات والأزجال ثم نشره كاملا د. سيد حنفى بالقاهرة سنة ١٩٨٤.

عنوان المرقصات والمطربات، طبع بالقاهرة سنة ١٢٨٦هـ، ثم نشر في بيروت سنة ١٩٧٣ في طبعة سقيمة

- الإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب ، احد أساطين الأدب والعلم في الأندلس في العصر الغرناطي ، وكتابه هذا وان ركز على غرناطة إلا أنه يعد في واقع الأمر بمثابة تاريخ شامل للأندلس وقد نشره بالقاهرة محمد عبد الله عنان. ولسان الدين بن الخطيب حشد من المؤلفات ، من أهمها في مجال الأدب :

الكتيبة الكامنة في شعراء المائة الثامنة

ريحانة الكتاب ولجعة المنتاب

السحر والشعر

جيش التوشيع

روضة التعريف بالحب الشريف

- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب. وهذا الكتاب موسوعة عامة عن الأندلس تاريخها وأدبها، وهو "أقدم كتاب أندلسي ظهر للنور وعرفته المطبعة العربية، وكان مصدرا لأكثر ما عرفه المشاركة عن الأندلس في مدى مائة عام أو أكثر ؛ وقد طبع في بولاق سنة ١٢٧٩ ونشر القسم الألي من النفح في ليدن سنة ١٨٥٥ بعناية طائفة من المستشرقين على رأسهم دوزي ، كما ظهرت منه طبعة بإشراف الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد . القاهرة ١٩٤٩) وأخرى نشرها د. احسان عباس (بيروت ١٩٦٨)

وللمقرى كتب أخرى ذات فوائد أدبية جمة أهمها ولاشك "أزهار الرياض في أخبار عياض" طبعت منه ثلاثة أجزاء بالقاهرة (١٩٣٩-١٩٤٢) بعناية مصطفى السقا ومن معه ثم نشرت بقية الكتاب بالمغرب مؤخرا (١٩٨٠).

وربما كان فى تناول أوضاع المرأة مايساعد على إبراز بعض ملامح الشخصية الأندلسية، وبعيدا عن التفاصيل : فالثابت أن المرأة كان لها فى المجتمع الأندلسى مكانة بارزة ، ولعل من أوضح الأدلة على ذلك كثرة عدد الشاعرات، وأقدمهن ، فيما يذكر صاحب "نفع الطيب"، "الجارية العجفاء" - من شاعرات القرن الثانى ، وكانت من جوارى عبد الرحمن الداخل ولها شعر رقيق فى الغزل، وهناك أيضا حسانة التميمية التى تعد أول شاعرة "أندلسية" بمعنى الكلمة، إذ انها ولدت على أرض الأندلس، وعاشت فى أخريات القرن الثانى الهجرى، ومن الشاعرات المبرزات حفصة بنت حمدون الحجازية - وكانت فى المائة الرابعة، على حد تعبير صاحب "المسهب"^(١) - وهناك شاعرة حجازية أخرى من أصل بربرى هى أم العلاء بنت يوسف ^(٢) وبعضهن ينتمى لعائلات ذات حسب ونسب مثل ولادة بنت المستكفى - ولنا إليها عودة - ومثل أم الكرم بنت المعتصم بن صمادح

ومن شاعرات الأندلس المشهورات نزهون الغرناطية - بنت القليعى - وحفصة بنت الحاج -وهى غرناطية أيضا - وقد أحبها أبو جعفر أحمد بن سعيد وزير بنى عبد المؤمن ونافسه فى حبها الملك الموحدى أبو سعيد عثمان بن عبد المؤمن بن على ومن جميل شعرها الغزلى :

أغار عليك من عيتى رقيبى

ومنك ومن زمانك والمكان

ولو أنى وضعتك فى عيونى

إلى يوم القيامة ما كفانى

(١) المغرب ٣٧/٢

(٢) شرحه ٣٨/٢

وهى لا تتورع أن تكتب الى وزيرها العاشق:

أزورك أم تزور فإن قلبى

الى ماتشتهى ابدأ يميل

وقد أمنت أن تظمى وتضحى

إذا وافى الى بك القبول

فشغرى مورد عذب زلال

وفرع ذؤابتى ظل ظليل

فعجل بالجواب فما جميل

أناك عن بثينة يا جميل

وفى هذه الأبيات ما يذكر بما وجهه النقاد من نقد لعمر بن أبي ربيعة أذ جعل النساء فى شعره يعربن عن مشاعرهن تجاهه ، على نحو ماأورد صاحب "العمدة" الذى أضاف بعد ذلك :

قال بهم - أظنه عبد الكريم : العادة عند العرب أن الشاعر هو المتغزل المتماوت ، وعادة العجم أن يجعلوا المرأة هى الطالبة، والراغبة المخاطبة، وهذا دليل كرم النخيزة فى العرب وغيرتها على الحرم ^(١) وأظن أن ذلك ينطبق على الشاعرة حفصة بوضوح

والباحثون متفقون على أن الأندلسيين ذهبوا بتبجيل المرأة الى مدى بعيد للغاية ويمكن القول بأن الشعراء لم يصنعوا شيئا أكثر من أنهم عكسوا أفكار مجتمعهم، وإذا كان لكثير من معاصريهم أفكار مختلفة فقد استطاعوا تحت تأثير هذا الأدب المصفى دائما أن يعدلوا موقفهم إزاء المرأة، وأن يقووا فى

(١) العمدة ج٢ ص ١٤٨ وراجع د. عبد العزيز الأهواني: الزجل فى الاندلس ، ص ٥ .

أنفسهم علاقتهم بها لكي يجعلوها تبرز أكثر صفاتها الطبيعية أو ان شئت الدقة لتكون أكثر فطنة والطف رقة وأروع تهذيباً وأصقل ذوقاً.. والنماذج المحموده في اسبانيا الإسلامية ليست ميزة للطبقة المتميزة . انها تمتد في كل مكان وتظهر عفويا ، ملونة هنا وهناك بالسخرية البريئة ، وبالتربية المصقولة^(١)

والخلاصة أن أوضاع المرأة في الأندلس كانت ، بصورة عامة ، أفضل من مثيلاتها في الشرق، حقيقة إننا لا نجد فيه من تناظر "شجر الدر" مثلا ، ولكن المرأة في الأندلس تولت عدداً من المناصب الهامة في الدولة " فكانت لبنى كاتبة للخليفة الحكم بن عبدالرحمن ، وهي نحوية شاعرة بصيرة بالحساب، عروضية خطاطة، وكانت موزنة كاتبة الخليفة الناصر لدين الله حاذقة في الخط، وشارك بعضهن في رواية الحديث، ^(٢) وما ينبغي أن يذكر في هذا الصدد أن ابن حزم في "الفصل" رأي أن الحديث القائل بأن النساء ناقصات عقل ودين لا يؤخذ على الإطلاق وفي جميع الأحوال "اذ بالضرورة تدري أن في النساء من هن أفضل من كثير من الرجال، وأتم ديناً وعقلاً.." ^(٣)

هذا قليل من كثير مما يمكن أن يقال عن الأندلس ، ولاشك أن هناك مخفضات ينبغي أن تساق بشأن بيئات محلية معينة، وبشأن مراحل تاريخية مختلفة، ولكننا نعتقد أن تلك الخطوط العريضة التي مرت ترسم - على علاقتها - صورة عامة عن الأندلس ، ولاشك أن أبعاد هذه الخطوط العامة سوف تزداد وضوحاً من خلال الحديث عن مسارات الأدب الأندلسي عبر عصوره المختلفة ..

(١) د. بيرييس : الشعر الأندلسي في عصر الطوائف : ترجمة د. الطاهر مكي ص ٣٧١

(٢) د. احسان عباس : تاريخ الأدب الأندلس (عصر سيادة قرطبة) ص ٢٦

(٣) الفصل ج ٤ ص ١٣٢

الشعر الأندلسي من البدايات إلى مرحلة النضج

إن التقسيمات التاريخية والسياسية التي مرت بها يستعين به دارس الأدب لاعتبارات كثيرة لسنا في مجال حصرها الآن، ولكنها - على كل حال- لا يمكن أن تلزمنا بإخضاع دراسة نشأة وتطور الأدب لها، على الرغم من أن صور الأحداث السياسية التي مرت بها الأندلس كانت ماثلة في صميم هذا الأدب، وأصداء التحولات الاجتماعية كانت تتبدى مع كل مرحلة مرت بها أعمال هؤلاء الأدباء . فإذا ما فتشنا عن سبيل لقياس "أندلسية" الأديب من غيره لم نجد إلا مقاييس نسبية من قبيل ما أورده ابن حزم من أن الإجماع معقود "على أن ينسبوا الرجل إلى مكان هجرته التي استقر بها ولم يرحل عنها رحيل ترك لسكنائها إلى أن مات .. فمن هاجر إلينا من سائر البلاد فنحن أحق به وهو منا بحكم جميع أولى الأمر منا، الذين اجماعهم فرض اتباعه ، وخلافه محرم اقترافه ومن هاجر منا إلى غيرنا فالنظر لنا فيه، والمكان الذي اختاره أسعد به " (١) ويقول كذلك :

"ويلدنا هذا على بعده من ينبوع العلم، ونأيه من محلة العلماء ، فقد ذكرنا من تأليف أهله ما إن طلب مثلها بفارس والأهواز وديار مضر وديار ربيعة واليمن والشام، أعوز وجود ذلك، على قرب المسافة في هذه البلاد من العراق التي هي دار هجرة الفهم وذويه ، ومداد المعارف وأربابها .

ونحن إذا ذكرنا أبا الأجر جعونة بن الصمة الكلابي في الشعر لم نباه به

(١) ابن حزم في رسالة في فضل الأندلس ، راجع بشأنها د. احسان عباس: تاريخ الأدب الأندلس ج ١ ص ٤٣ ، ونص الرسالة ص ٣٤٧ - ٣٦٩

الا جريرا والفرزدق لكونه فى عصرهما ، ولو أنصف لاستشهد بشعره ، فهو جار على مذهب الأوائل لا على طريقة المحدثين . ولو لم يكن لنا من فحول الشعراء الا احمد بن دراج القسطلى لما تأخر عن شأو بشار بن برد وحبيب والمتنبى فكيف لنا ومعه جعفر بن عثمان الحاجب وأحمد بن عبد الملك بن مروان واغلب ابن شعيب ومحمد بن شخيص واحمد بن فرج وعبد الملك سعيد المرادى ، وكل هؤلاء فحل يهاب جانبه .." (١)

وفى إشارات ابن حزم ما يدل دلالة قاطعة على أن جيل "الرواد" من الشعراء بالأندلس كان يضم بين جنباته أسماء كثيرة جاءت الي الأندلس من المشرق، والملاحظة الثانية أن جميع من ذكرهم - باستثناء ابن دراج - فقدت دواوينهم ، ولم تبق لهم الا شذرات مبعثرة هنا وهناك ، مما يكشف عن مدى حجم الضياع الذى تعرض له التراث الأدبى والعلمى الأندلسى.

ولا يعرف شئ كبير عن جعونة هذا إلا أنه كان شاعرا فارسا ، ولذا يلقب بـ "عنتره الاندلس" (وسبتدا ظاهرة تلقيب شعراء الأندلس بألقاب مشرقية تتوالى تباعا) وأنه كان يعيش فى نواحي قرطبة فى أخريات عصر الولاة

وهناك شاعر آخر ظهر فى هذه الفترة هو أبو المخشى عاصم بن زيد (٢)، ونهجه كذلك نهج البداوة فى شعره (وهو أبو الشاعرة حسانه التى ذكرت قبلا) ولم تحفظ الكتب له الا مقتطعات قليلة منها قوله :

وهم صافنى فى جوف ليل

كلا موجيهما عندى كبير

(١) رسالة فى فضل الأندلس ، ص ٣٦٨

(٢) يعود أصله الى نصارى الحيرة، وكان هجاء ، مترددا على الأمراء بمذائحه . راجع عنه ابن القوطية فى تاريخ افتتاح الأندلس ص ٣٦ وفى الحميدى : جذوة المقتبس ص ٣٧٧ وابن سعيد فى المغرب ١٢٣/٢ الخ ..

فبتنا والقلوب معلقة

وأجنحة الرياح بنا تطير

والبيتان فيهما رهافة ، وصور حية رائقة، والصورة الأخير "وأجنحة الرياح بنا تطير " تهين السامع لوثة شعورية من خلال مقطع عن الترحال والاغتراب أو نحو ذلك لكن النص - مع الأسف - يبتز عند هذا الحد، ولعله من قصيدة فى المديح، فقد كان أبو المخشى يتردد على أمراء البيت الأموى ، والمرجح أنه توفى فى اخريات القرن الثانى الهجرى .

وهناك أيضا عباس بن ناصح الجزيرى ، نسبة للجزيرة الخضراء ، ولكن نشأته بمصر، وله رحلة للحجاز وللعراق ولقاء مع أبى نواس ثم عودة للأندلس، ولا توجد من شعره الا نتف لا تكشف على نحو واضح عن مدى قيمته ومن عجيب الأمر أن ابن حزم أغفل الإشارة الى عبدالرحمن (الداخل)، فهل مرجع ذلك الى أنه كان أميرا فارسا مشيدا للدول فاتحا للممالك ، قبل أن يكون منشئا للقصائد، مدبجا للأبيات؟ ربما، على أن مؤرخى الأندلس لم يغطوا الداخل نصيبه من الشاعر، وهما المراكشى يصفه فى "البيان المغرب" بأنه "كان فصيحاً بليغاً حسن التوقيع جيد الفصول مطبوع الشعر"، وسنتوقف أمام هذا الشعر لأنه جيد حقاً، ولأنه يكشف عن أزمة هؤلاء الوافدين الذين أحسوا بأن مصيرهم مرتبط بالأندلس ، لكنهم كانوا يشعرون فى الوقت ذلك بفرط الحنين الى الديار المشرقية الغائبة وراء الأفق ، مفعمة بالذكريات الندية الآسرة ، مترعة بصور الطفولة اللاهية والشباب الذى انطفأ وميضه مع الأيام. هكذا تنداح أبيات الداخل وقد رأى من يتأهب للرحيل للمشرق :

أيها الراكب الميمم أرضي

أقر من بعضى السلام لبعضى

ان جسمى كما علمت بأرض
وفؤادى ومالكه بأرض
قدر البين بيننا فافترقنا
وطوى البين عن جفونى غمضى
قد قضى الله بالفراق علينا
فعمسى باجتماعنا سوى يقضى
أو يقول (بديهة ، فيما يذكرون) وقد مر على رصافة قرطبة، فهاجت فى
صدره الذكريات، وحركت "نخلة منفردة" أشجانه ، فصدق لسانه بهذا النشيد
الملتاع :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة
تنامت بأرض النخل عن بلد النخل
فقلت: شبيهى فى التغرب والنوى
وطول التنائى عن بنى وعن أهلى
نشأت بأرض أنت فيها غريبة
فمثلك فى الإقصاء والمنتأى مثلى
سقتك غوادى المزن من صوبها الذى
يسح ويستمرى السماكين بالويل
لماذا حركت النخلة كل هذا الشجو الطاغى ، ودفعته لأن يرى فيها
"معادلا" لغريبته، يعترف أمامه بما تخفيه لواعجه، لماذا يتكرر ذكر النخلة فى
البيت الأول ثلاث مرات متواليات ولماذا هذا الالحاق على "التغرب" و "النوى" و
"الاقصاء" و "المنتأى" ، حتى لنحس بالدموع تنساب على وجنتيه، واختلاجة
الأسى تنتفض بين أضالعه ...؟

ومن الملاحظ أن هناك مقطوعة أخرى على غرار السابقة تقول
أبياتها :

يانخل أنت غريبة مثلى
فى الغرب نائية عن الأصل
فابكى وهل تبكى
عجما لم تطيع على خيل
لو أنها تبكى إذن لبكت
ماء الفرات ومنبت النخل
لكنها ذهلت، وأذهلنى
بغضى بنى العباس، عن أهلى

والمقطوعة الأخرى تنسب أحيانا لأمير أموى آخر هو عبدالملك بن عمر
ابن الحكم الذى اجتاز فى قصده قرطبة ... بمدينة اشبيلة فرآى فى موضع
منها.. نخلة مفردة، فلحقته رقة عند النظر اليها ، وقال بديها الأبيات المذكورة"
أيا كان الأمر فإن فى شعر الداخل ظواهر لاتخفى^(١)، منها أنه فى
معظمه يأتى "مقطوعات" لاقصائد، ومدارها حول "الذات" فى ضعفها وأيضا فى

(١) راجع أيضا مقطوعته التى أولها:

شتان من قام ذا امتعاض	منتضى الشفرتين نصلا
فجساب قفرا وشق بهرا	مساميا لجة ومحلا
فشاد مجدد ويز ملكا	ومنبرا للخطاب مصلا
وجند الجند حين أودى	ومصر المصر حين أخلى
ثم دعا أهله جميعا	حيث انتأوا أن هلم أهلا
فجاء هذا طريد جوع	شريد سيف اباد قتلا
فنال أمنا ونال شيعا	وحاز مالا وضم شمالا
ألم يكن حق ذا على ذا	أعظم من منعم ومولى

توثبها وإبانها وما يندلع فيها من روح التحدى والكبرياء، مثل أبياته التى قالها
وقد بلغه أن أحد المقرين له قال مامعناه ان الداخل لم يبلغ ما بلغ من شأن إلا
بفضل مؤازرته له ، فاعترت الداخل غصبة عبر عنها شعرا بقوله :

لا يلف ممتن علينا قائل

لولاى ماملك الأنام الداخل

سعدى وحزمى والمهند والقنا

ومقادير بلغت وحال حائل

ان الملوك مع الزمان كواكب

نجم يظالعنا ونجم آفل

والخزم كل الخزم ألا يثقلوا

أيريد تدبير البرية غافل

ويقول قوم سعده لاعقله

خير السعادة ما حاماها العاقل

ابنى أمية قد جبرنا صدعكم

بالقرب رغما والسعود قبائل

ما دام من نسلى إمام قائم

فالملك فيكم ثابت متواصل

وامتد الإحساس الشعري الى الكثيرين من أمراء بنى أمية فى الأندلس
، مثل هشام الأول (الرضا) ابن عبد الرحمن الداخل، وعنه يقول المقرئ إنه كان
"إذا حضر مجلسا امتلأ أدبا وتاريخا وذكرًا"، أما الحكم (الريضى) ابن هشام
ففيه يقول صاحب الحلة السيرة: "كان أدبيا مفتنا ، وخطيبا مفوها وشاعرا
مجودا ، تحذر صولاته ، وتستندر أبياته" وله قصيدة مشهورة قالها عند فتكه

بأهل الرض لما ثاروا عليه، ووصفت بأنها ؛ أحسن شعر قيل فى معناه" (١)

وأولها :

رأيت صدوع الأرض بالسيف راقعا
وقدما لأمت الشعب مذ كنت يافعا
فسائل ثغورى هل بها اليوم ثغرة
أبادرها مستنضى السيف دارعا
وله أيضا قصيدة أخرى ذات طابع بطولى ، يقول فيها:
غناء صليل البيض أشهى الى الأذن
من اللحن فى الأوتار واللهو والردن
إذا اختلفت زرق الأسنة والقنا
أرتك نجرما يطلعن من الطعن
ومع ذلك فإن للحكم شعرا كله شكوى من هجر المحبوب وعذاب الهجران
والتذلل والتضرع على نحو ما يأتى فى قوله :
ظل من فرط حبه مملوكا
ولقد كان قبل ذاك مليكا
ان بكى أوشكا زيد ظلما
وبعادا بدنى حماما وشيكا
هكذا يحسن التذلل فى الحب
(م) اذا كان فى الهوى مملوكا

(١) المغرب ٤٤/١

ومن ابرز الأمراء الشعراء أبو عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن وكذلك
المستعين . سليمان بن الحكم) الذى تأثر بالأبيات المنسوبة لهارون الرشيد :

ملك الثلاث الأنسات عنانى
وحللن من قلبى بكل مكان
مالى تطاوعنى البرية كلها
وأطيعهن وهن فى عصيانى
ماذاك إلا أن سلطان الهوى
- وبه قوين - أعز من سلطانى

فكتب هو :

عجبا يهاب الليث حد سنانى
وأهاب لحظ فواتر الأجفان
وأقارع الأهوال لامتهيبا
منها سوى الإعراض والهجران
وتملكى نفسى ثلاث كالدنى
زهر الوجوه نواعم الأبدان
ككواكب الظلماء لحن لناظر
من فرق أغصان علي كشبان
هذى الهلال وتلك بنت المشتري
حسنا وهذى أخت غصن البان
لا تعذلوا ملكا تذلل للهوى
ذل الهوى عز وملك ثان

ومن شعراء البيت الأموي أيضا (المستظهر) - عبد الرحمن بن هشام ،
الذي يوصف بأنه كان على حداثة سنه يقظا ذكيا صاحب "بديهة روية ويصوغ
قطعا من الشعر مستجادة"^(١) ومن أشهر شعره قصيدته في محبوبته "العشمية"
التي نوهت به مصادر الأدب الأندلسي مثل "الذخيرة" و "الحلة السراء" و
"المعجب"، ولهم الحق في هذا التنويه فإنها نمت رفيع من الشعر، يجمع بين
الكلاسيكية التعبير وصدق الشعور وبراعة الصور وحيوية الأداء ، وقد استهلها
بما لاقاه من عدم ترحاب أهل محبوبته به ، ثم انتقل إلى "الحبيبة" - وكان اسمها
كذلك - ليقول في صدق وسذاجة:

جعلت لها شرطا على تعبدى

وسقت إليها في الهوى مهجتي مهرا.

تعلقتها من عيد شمس غريرة

محدرة من صيد آباتها غرا

حمامة بيت العشيمين رفرقت

فطرت إليها من سراتهم نسرا

لقد طال صوم الحب عنك فما الذى

يضررك منه أن تكونى له فطرا

وانى لأستشفى بمرى بداركم

هدوا واستسقى لساكنها القطرا

وألصق أحشائي ببرد ترابها

لأطفئ من نار الأسى بكم جمرا

وفى هذه القصيدة نفحات من غرر قصائد ذى الرمة وجميل بثينة ولعلها

(١) الذخيرة ١ / ٥٧

من أجود ما ألف في زمانها نصاعة عبارة وصدق إحساس .

ويمكن القول بأن حركة الشعر إبان هذه الفترة تخضع لمجموعة اعتبارات ، منها ان الأسماء البارزة في الأدب ذات أصول مشرقية واضحة ، وأن هذا الشعر يتأرجح بين الطابع القديم النمط الجديد الذي بدأ يتألق بالمشرق على أيدي المجددين الكبار من أمثال بشار وأبي نواس وكأنما كان الشعر انذاك في مرحلة ترقب، ينتظر من يعينه ليصل الى مرحلة النضج والاكتمال ، ويضفى عليه طابعا يميزه عبر الزمن .

يحيى بن الحكم الغزال واكتمال الشخصية الأدبية الأندلسية

مرت بنا فى الصفحات السابقة ملامح مما كتب فى الأندلس على أيدى الشعراء الطارئين، وبعض أمراء البيت الأموى من ذوى الميول الأدبية، وهذا كله يمثل البدايات التى لم تشكل تياراً أو اتجاهات واضح المعالم محدد السمات ، ذلك أن الحركة الأدبية فى بلد من البلدان لا تنهض بين يوم وليلة كما قد تنشأ الدول ، وإنما هى نتاج محاولات شتى لا تنضج إلا ببطء ، ومن خلال عشرات التجارب والمحاولات والرأى السائد فى هذا الصدد يقول إن :

" الشعر الأندلسى الذى رسخ أصوله أناس نبتوا فى البيئة الأندلسية لم يبدأ بالظهور إلا فى حدود سنة ٢٠٠ هـ - وهذه حقيقة هامة فى نشأة ذلك الشعر وفى النماذج التى احتذاها والمجالات التى كان يرودها، فهو من الناحية الزمنية أخذ يتكون حين كان الشعر المشرق يشهد تجديد بشار وأبى نواس، ويقف على مفترق الطرق بين مذهبى أبى تمام والبحتري ، ولما كان الأندلسيون حينئذ يلتفون فى كل شئ إلى المشرق فقد اتخذوا شعر المحدثين مثالا يقلدونه ومناراً يهتدون به ، أى أن الشعر المحدث لا شعر العرب الأوائل هو النموذج الكبير الذى استوحوه فى أشعارهم وليس معنى هذا أنهم لم يعرفوا شعر العرب الأوائل، ولكن نماذج الشعر المحدث نالت القسط الأكبر من إعجابهم" (١)

ومن حسن حظ الأندلس أنها شهدت مع أخريات القرن الثانى الهجرى ظهور شاعر يصح أن يقال عنه إنه "أندلسى" بحق، بحياته، وبالروح الشعرى الذى نضج عنده ، وبطبيعة الموضوعات التى عالجه، هذا الشاعر هو يحيى بن

(١) د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ج ١ ص ٤٨

الحكم الغزال (١٥٠ - ٢٥٠ هـ ، ٧٧٠ - ٨٦٤ م)، وصدق من قال إن الشخصية الغزال سحرها الخاص، لا يملك من يتعرف عليها إلا الإحساس بالإعجاب والمحبة، المعاشة ان لتلقى فيه الشاعر الساخر في الموقف العصيب، أو الدبلوء. سى البارع الخفيف الظل ، فتعجب به، وتلمع في سريره النقاء والصفاء الهندسى فتحبه وتطلع على من اعماقه ومحاوراته فتحسن أنك تعيش على مقربة منه، ويبقى السحر الخاص أبعد من أن تفسره علاقات المعاشة والمحبة والإعجاب، ثمة شئ آخر، شئ يشبه أن يكون "سرا" معلقا حاول الأندلسيون أن ينفكوا طلاسهم فزادوه انغلاقا حين سموا الغزال: "عراف الأندلس"، وفي المعجم "وقال للحازي: عراف، وللقناقن: عراف وللطبيب عراف والحازي هو الذى يقرأ الأسرار ويدعى علم الغيب، والقناقن: المهندس الذى يعين مواضع الماء تحت الأرض، فأى ذلك كان الغزال حين أطلق عليه عراف الأندلس"؟ أسئلة تتوالى - وكثير منها بقي بلا جواب، عن هذا الشاعر الداهية، التى أضيف الى جوانبها "الأسرارية" أنه ارتحل الى العراق متنكرا ، فيما يقال،^(١) وفى بعض الإشارات عنه مايكشف عن تطلعه لأن يكون وريث زعامة الشعر من بعد أبى نواس ، ثم نرى له عودة إلى بلاده، وسعى إلى الثراء يقوده إلى السجن، ورحلات وسفارات إلى "بلاد المجوس" - حكايات كثيرة عن هذا الشاعر الوسيم "ومن ثم لقب بالعلل" هى التى سوف نحاول التعرف عليها من خلال ما سلم من شعره، ذلك أن ديوانه قد فقد وماوصل إلينا من أعماله ، لا يكاد يبلغ ثلاثين أو أربعين صفحة.

ولسنا نريد أن نشغل طويلا بتفصيلات حياته أو بالأحرى بما وصل إلينا منها وبحسبنا أن نذكر أنه ينحدر من أصول عربية عريقة (من بنى بكر بن وائل) وأنه ولد فى مدينة جيان فى الجنوب الغربى من شبه القارة الأيبيرية، سنة ١٥٠ أو نحوها (وبعض المراجع تجعل تاريخ مولده سنة ١٥٤ هـ) فى زمن

(١) مقدمة كتاب من صادق الهنداق : يعبى بن الحكم الغزال (احسان عباس)

إمارة عبد الرحمن الداخل ، وتربى تربة دينية جيدة ، كما نشأ على "أخلاق الفروسية" كما تقول المصادر ، وقد عمر قرابة مائة سنة مما يدل على قوة بنيانه وعاصر خمسة من أمراء البيت الأموي هم :عبد الرحمن الداخل وابنه هشام ثم الحكم وعبد الرحمن الناني، وجانبيا من إمارة الأمير محمد، وله فى ذلك - من أرجوزة :-

أدركت بالمصر ملوكا أربعة

وخامسا هذا الذى نحن معه

واكتسب خلال عمره هذا المديد قدرا فوفورا من الثقافة فى علوم اللغة والبلاغة والأدب والفلسفة والفقه والفلك ، كما يذكرون أنه كان يجيد الرومية - اللاتينية - واهتم بالتاريخ ، ويذكرون له فى هذا الصدد أرجوزته - التى ذكرنا شيئا منها - فى التاريخ لفتح الأندلس ، وقد اطلع عليها مؤرخ الأندلس ابن حيان ، صاحب "المقتبس" و "المتين" وأشاد بها بما يكشف عن أنها كانت جميلة طويلة عرض فيها أسباب الفتح والوقائع التى جرت بين المساحين وأهل البلاد، وأطال الحديث عن أمراء هذا العصر فى أسلوب جميل فيه عمق، وكانت شائعة متداولة بين أيدي الناس، وقد ضاعت هذه الأرجوزة^(١) ولعلها من أوائل الأراجيز التعليمية التاريخية فى الادب العرب ان لم تكن أولها جميعا، ذلك انها أسبق من أرجوزة ابن المعتز فى تاريخ البيت العباسى ، وأسبق بطبيعة الحال من أرجوزة ابن عديريه فى التاريخ الأندلسى .

وفى بعض المصادر مايدل على أن الغزال حاول محاكاة القرآن الكريم فيها هو القاضى عياض فى "الشفاء" يقول: "وكان يحيى بن حكم الغزال بليغ الأندلس فى زمنه، فحكى أنه رام شيئا من هذا، فنظر فى سورة الإخلاص ليحذو على مثالها وينسج بزعمه على منوالها. قال: فاعترتنى منه خشية ورقة حملتنى

(١) نقلا عن تاريخ الفكر الأندلسى لبالانسيا ص ٥٦

على التوبة والإنابة" (١) ، ويبدو هذا غريباً على شخصية أندلسية بارزة مقربة من الملوك والأمراء ، وفى هذا التصرف ما قد يكشف عن سلوك فردى أو عن مسلك "أندلسى" وهو - من الناحية الأدبية - يدل دلالة قاطعة على أن الغزال كان مبرزاً فى النثر تبريزه فى الشعر وإيثاراً للإيجاز نترك جانباً الأمور الزخرفية المتعلقة بحياته ، والموضوعات المختلفة التى ترددت فى شعره لنتوقف فحسب زمام السمات الأساسية كما تتمثل فى شعر النقد الاجتماعى وفى حديث سفاراته ؛الدبلوماسية" ببلاد "المجوس"!

- شعر النقد الاجتماعى:

للحميدى فى جذوة المقتبس جملة تقول إن "الغزال رئيس، كثير القول ، مطبوع النظم فى الحكم والجد والهزل" (٢) وقال الضنبى فى "بغية الملمس" إن الغزال ؛جليل فى نفسه وعمله ومنزلته عن أمراء بلده (٣) وأجمل مؤرخ الأندلس فى العصر الحديث محمد عبدالله عنان ، الحديث عن هذه المكانة قائلاً:

بالإضافة إلى صفة الشاعر الفيلسوف، والمفكر الحر، فقد عرف الغزال بصفة أجل وأخطر هى صفة الحكيم الناصح، والسياسى المحنك ، واشتهر بأصالة الرأى وحسن التدبير واللباقة والدهاء ، مع أنه لم يكن من رجال الدولة الرسميين ، لكن هذه الخلال كانت تفسح له فى بلاط قرطبة مكانة خاصة وتجعله موضع الثقة والتقدير" (٤)

ومن المهم أن نشير إلى هذه المكانة ونحن بصدد الحديث عن شعر النقد الاجتماعى عنده لأن الغزال - على ماسنرى - كان سليط اللسان أحياناً بحيث

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢٧٥/١ وراجع نفع الطيب ج ٢ ص ٢٦١

(٢) جذوة المقتبس ، السابق

(٣) بغية الملمس رقم ١٤٦٧

(٤) تراجم إسلامية شرقية وأندلسية ص ١٣٨

أوغر صدر عدد من الناس عليه ، ومن هؤلاء المغنى الشهير زرياب الذى انتقل من بغداد إلى قرطبة حيث اختل عند أميرها عبدالرحمن (الثانى) منزلة مرموقة، وأصبح زرياب شخصية اجتماعية من الطراز الأول فرضت على المجتمع ذوقها ونظرياتها فى الثياب وتناول الطعام وطبيعة الغناء، وربما أثارت هذه المكانة الغيرة فى نفس الغزال فأطلق أهاجيه فى زرياب (ولم يصل إلينا منها شئ) وأثرت هذه الأهاجى فى زرياب فشكاه إلى الأمير، فكان أن أصدر هذا قرارا بنفى الغزال، ونجحت الوساطة فى دفعه للعدول عن أمره هذا ، إلا أن الشاعر الكبير حز فى نفسه أن تؤول الأمور الى هذا الموقف ، فارتحل عن البلاد الى بغداد حيث بقى فيها زمنا وقد خاض الغزال معركة ضارية ضد بعض الفقهاء والقضاة المرتشين والمتعسفين ، وكان مما قاله وقد سأله قاضى قرطبة - معاذ بن عثمان - عن رأيه فى أحد من ولاهم أحباس قرطبة :

يقول لى القاضى معاذ مشاورا

وولى امرأ ، فيما يرى ، من ذوى الفضل

فديتك ، ماذا تحسب المرء صانعا؟

فقلت : وماذا يصنع الدب بالنحل؟

يدق خلاياها ويأكل شهدها

ويترك للذبان ماكان من فضل!

ويقول فى فقهاء عصره اذ رأهم وقد تضخمت ثرواتهم :

لست تلقى الفقيه إلا غنيا

ليت شعرى من أين يستغنونا

تقطع البر والبحار طلاب الر

(م) زق والقوم هاهنا قاعدونا

إن للقوم مضربا غاب عنا

لم يصب قصد وجهه الراكبونا

ولم يكن الغزال يتوانى عن توجيه النصيح لذوى الجاه حتى يرفعوا ،
راسما صورة واقعية لما يؤول اليه خالهم بعد أن ينطوى عنهم بريق السلطان :
وإن أعطيت سلطانا

فحاذر صولة الزمن

أخو السلطان موصوف

بحسن الرأى والفظن

فساعة مايزاوله

رماء الناس باللعن

ويصبح رأيه المحمود

منسوبا الى الأفن

كأن بشاشة السلطا

ن حين تزول لم تكن !

وقد حاول هؤلاء الفقهاء النيل من الغزال ، مستغلين بعض ما جاء فى شعره من تساؤلات حائرة عن القضاء والقدر والواقع أن الغزال لم يكن ملحدا ولا متشككا. لقد كان مسلما وزاهدا ، ولو أنه فى بعض ساعاته نظم ماعن له عن النفس والروح بأسلوب يجوز أن نسميه اليوم بالأسلوب العلمى ، ولكن دون أن ننعت الغزال بالتخلى عن الإيمان والشك بالله عز وجل" (١)

ويبلغ الغزال الذروة من الإجابة والنقد اللاذع فى مقطوعاته "الاجتماعية"

(١) د. البنداق ، السابق ص ٣٨

من قبيل قوله:

وخيرها أبوها بين شيخ
كثير المال أو حدث فقير
فقلت : خطئا خسف وما إن
أرى من حظوة للمستخير
ولكن إن عزمت فكل شئ
أحب إلى من وجه الكبير
لأن المرء بعد الفقر يثرى
وهذا لا يعود إلى صغير

وقوله :

قالت أحبك ، قلت كاذبة
غرى بذا من ليس ينتقد
هذا كلام لست أقبله
الشيخ ليس يحبه أحد .
سيان قولك ذا وقولك إن
(م) الريح نعقدها فتنعقد
أو أن تقولى النار باردة
أو أن تقولى الثلج يتقد

بل إن الرجل لم يتوان عن تناول ذاته من منظور السخرية والنقد اللاذع،
الذى يتجسم فى قصيدته البائية "خرجت إليك وثوبها مقلوب" وتروى كتب
الأدب على لسان تاجر أندلسى يدعى عتبة: "وجهنى الأمير الحكيم وابنه
عبدالرحمن إلى المشرق . وكان عبدالله بن طاهر واليا على مصر من قبل المأمون

مياسى، فلقيته بالعراق فسألنى عن قصيدة الغزال التى مطلعها:

خرجت إليك وثوبها مقلوب

ولقلبها - طربا إليك - وجيب

وعما إذا كتبت أحفظها فقلت نعم، فاستنشدتها فأنشدته إياها، فسر بها
كتيبها، ونلت بها حظا عنده^(١)، فهذه قصيدة يحفظها الناس ويطلبها عشاق
لأدب فى مختلف الأقطار، لأنها نموذج فريد فى نقد الذات على نحو لا يكاد
عرف عند سواه، وهو القائل أيضا فى أرجوزة:

تسألنى عن حالتى أم عمر
وهى ترى ما حل بى من العبر
وما الذى يسأل عنه من خبر
وقد كفاه الكشف عن ذاك النظر
وماتكون حالتى مع الكبر
أريد منى الوجه وأبيض الشعر
ونقص السمع بنقصان البصر
وصرت لا أنهض إلا بعد شر
لو ضامننى من ضامننى لم أنتصر
فانظر إلى واعتبر ثم اعتبر

(١) البنداق، السابق ص ٦٢ وللقصيدة رواية أخرى تختلف فى كثير من الأبيات،
ومطلعها فى الثانية:

لم أنس إذ برزت إلى لعب
طربا وحيث قميصها مقلوب

فإن للحليم في معتبر (١)

سفارة الغزال :

هذا موضوع استهوى المؤرخين ، وكتبوا فيه كثيرا في محاولة للكشف عن غموضه ، خاصة وأن المصدر الأساسي حول هذه السفارة (كتاب ابن دحية الكلبي: المطرب في أشعار أهل المغرب) متأخر عن الغزال بنحو أربعة قرون ، والمعضلة أيضا أن المادة التي يقدمها ابن دحية مضطربة وتخلو من التحديد المفترض في المؤلفات ذات الطابع التاريخي .

ولن نوغل طويلا في الاختلافات التي توقف المؤرخون من قدامى ومحدثين - بإزائها ، ونبدأ بكلام ابن دحية لنورد منه القليل الذي يغنى عن الكثير :

"ولما وفد على السلطان عبد الرحمن (الثاني) رسل ملك المجوس تطلب الصلح بعد خروجهم من إشبيلية وإيقاعها بجهاتها ثم هزمتهم بها ، وقتل قائد الأسطول فيها ، رأى أن يراجعهم بقبول ذلك فأمر الغزال أن يمشى في رسالته مع رسل ملكهم لما كان الغزال عليه من حدة الخاطر وبديهة الرأي وحسن الجواب والنجدة والإقدام ، والدخول والخروج من كل باب ، وصحبته يحيى بن حبيب ، فنهض إلى مدينة شلب ، وقد أنشئ لهما مركب حسن كامل الآلة ، وروجع ملك المجوس على رسالته ، وكوفئ على هديته ، ومشى رسول ملكهم في مركبهم الذي جاؤوا فيه مع مركب الغزال" ..

ثم إن الغزال سلم من هول تلك البحار ، وركوب الأخطار ووصل أول بلاد

(١) انظر أيضا قوله :

قال الأمير مداعبا بمقاله

ابن الجمال من امرئ أرى على

أين الجمال له ، الجمال من امرئ

جاء الغزال بحسنه وجماله

متعدد السبعين من أحواله

لقاه ريب الدهر في أغلاله

المجوس.. وهى جزيرة عظيمة فى بحر المحيط ... وتقرب من تلك الجزيرة جزائر كثيرة ثم يمضى تقرير ابن بدحية ، ليتحدث عن لقاء الوفد - وعلى رأسه الغزال - بالملك ، الذى دهش من ذكاء الشاعر العربى وحسن تخلصه ولباقته ووصفه بتلك العبارة: "هذا حكيم من حكماء القوم، وداهية من دهائهم" أو هكذا كان الغزال حقا، وفى بقية الحديث

"وللغزال معهم مجالس مذكورة، ومقاوم مشهورة، فى بعضها جادل علماءهم فبكتهم، وفى بعضها تناضل شجعانهم فأثبتتهم . ولما سمعت امرأة ملك المجوس بذكر الغزال وجهت فيه لتراه ، فلما دخل عليها سلم ، ثم شخص فيها طويلا ينظرها نظرة المتعجب ، فقالت سله عن إدمان نظره لماذا هو ؟ أفرط استحسان أم لصد ذلك ، فقال: ما هو إلا أنى لم أتوهم أن فى العالم منظرا مثل هذا.." الى آخر المواقف الغزلية التى أفاض ابن دحية فى ذكرها ، ونقل أخبارا مما رويت عن رفاقة فى الرحلة تدل على أن الملكة " أولعت بالغزال فكانت لا تصبر عنه يوما حتى توجه فيه، ويقيم عندها يحدثها بسير المسلمين وأخبارهم وبلادهم ومن يجاورهم ... وكان الغزال فى اكتهاله وسيما ، وكان فى صباه جميلا، ولذلك سمي بالغزال ، ومشى الى بلاد المجوس وهو قد شارف الخمسين وقد خطه الشيب.. ولكنه كان حسن الصورة وفى الحديث الذى مضى إشارة إلى :المجوس" الذين كانوا قد هاجموا إشبيلية ثم ارتدوا عنها مهزومين وأرادوا الصلح ، وهنا ينبغى تفسير تعبير "المجوس" على أنه يعنى "الفايكنج" أو النورمان الشماليين الذين كانت لهم بالفعل غزوة تحدث عنها ابن الأثير فى تاريخه "الكامل" - أخبار سنة ٢٣٠ وسماهم بدوره بـ "المجوس" لكن لسان الابن ابن الخطيب يورد رأيا آخر بشأن هذه الحملة، إذ يقول بصدد عهد الأمير عبدالرحمن الثانى - ابن الحكم - :

" وفى أيامه خرجت مراكب المجوس فدخلت مدينة إشبيلية وقادس وشذونه واشبونة ثم انهزموا والمجوس هم الذين يسمونهم اليوم نصارى قشتالة

بالانقليش وأهل المشرق بالفرنچ وبالانكليز، ومستقر ملكهم بجزيرتين عظيمتين.

وإذن فهناك رأيان بشأن المجوس: أن يكونوا سكان الشمال أو أن يكونوا الإنجليز ، وانعكس هذا الخلاف على كتابات المستشرقين والمؤرخين المحدثين ، وكان من رأي الفريق الأول أن ملك المجوس المعنى هو هوريك ملك الدنمرك "بينما يذهب أصحاب الرأي الثانى (ومنهم المستشرق إلن) الى القول بأن المعنى هنا ملك ايرلندا تورغايس

وتنبغى الإشارة إلى طرف ثالث من أطراف النزاع، ذلك أن التاريخ يتحدث عن سفارة تمت انذاك بين أمير قرطبة - عن الرحمن الثانى - وبين يتوفيلس إمبراطور بيزنطة ، والذي كان يسعى إلى تغذية الصراع بين العباسيين وبين أمراء قرطبة الأمويين حتى لا تتجه كل القوى العباسية ضده وحده وكان ذلك فى سنة ٢٢٥ هـ على وجه التحديد (٨٣٦م) وقد أورد ابن حيان فى "المقتبس" أخبار هذه الفارة، ونقلها عنه المقرئ فى نفع الطب حيث يأتى "أن الأمير عبد الرحمن" بن الحكم المرواني وجه شاعره الغزال إلى ملك الروم، فاعجبه حديثه، وخف على قلبه .. وكان يوما جالسا عنده ، وإذا بزوجة الملك قد خرجت وعليها زينتها وهى كالشمس الطالعة حسنا فجعل الغزال لا يميل طرفه عنها ..."^(١)

وللمستشرق الفرنسى ليفى بروفنسال رأى يرجح فيه أن رحلة الغزال كانت إلى القسطنطينية وأما الرحلة إلى بلاد النورمان (المجوس) فنسجها الخيال الشعبى ، ولم يكن لها وجود فعلى ، إلا أن هناك اتجاه آخر يتحدث عن سفارتين أولاهما إلى بيزنطة والثانية الى ببلاد النورمان و وذلك فى محاولة للتوفيق بين ماجاء عن ابن حيان ثم ابن دحية .

وقد ورد اسم الملكة فى شعر الغزال على أنه (نود) وبصر بروفنسال على

(١) نفع ج ٧ ص ٣٧٢

أن يجعلها: تود لأن زوجة الأمبراطور البزنطى كان اسمها انذاك تودورا ، بينما يرى غيره أن اسم (نود) يمكن أن يكون تحويرا عن اسم نورمانى مألوف عندهم وأيا كان الأمر فإن الشعر الذى خلفه الغزال فى الملكة الأوربية يمثل حالة خاصة لا يكاد يوجد لها نظير فى الشعر العربى ، مثل هذه الأبيات :

كلفت ياقلبي هوى متعبا

غالبت منه الضيفم الأغلبا

انى تعلقت مجوسية

تأبى لشمس الحسن أن تغريا

أقصى بلاد الله فى حيث لا

يلفى إليها ذاهب مذهبا

يانود يارود الشباب التى

تطلع من أزرارها الكوكبا

يابأبى الشخص الذى لا أرى

أحلى على قلبى ولا أعذبا

إن قلت يوما إن عينى رأت

مشبهة لم أعد أن أكذبا

قالت : أرى قوديه قد نورا

دعابة توجب أن أدعبا

قلت له : ماباله إنه

قد ينتج المهر كذا أشهبا

فاستضحكت عجباً لقولى لها

وإنما قلت لكى تعجبا

وهذا الشعر رواه ابن دحية وقال إن الغزال ارتجله بين يدي الملكة عندما سألته - مداعبة - عن عمره ، فرد عليها مداعبا كذلك : - عشرون سنة ، فأبدت دهشتها من الجواب ، فما كان منه إلا أن قال هذه الأبيات على البديهة!

ولسنا مطالبين بأن نصدق ماحيك من حكايات حول بعض شعر الغزال لكن الشئ المؤكد أننا نحس في شعره بذلك الوهج الناضر التلقائي ، الذي يواكب مسيرة الزمن - مهما طال الزمن - فلا يذبل أبدا ، وكان ابن دحية مصيبا عندما علق على الأبيات السابقة بقوله "إن هذا الشعر لو روى لعمر بن أبي ربيعة أو لبشار بن برد أو لعباس بن الأحنف ومن هذا المسلك من الشعراء المحسنين لاستغرب له ، وإنما أوجب أن يكون ذكره منسيا إذ كان أندلسيا ، وإلا فماله أخمل وماحق مثله أن يهمل ؟"

وفي المقطوعات التي مرت يتبدى فن الغزال في قدرته على أن يرسم ببساطة المواقف ويحدد لها الشخصيات ويجعلها تنطق بما يلائم الموقف ، ويصنع في عذوبة عجيبة "تراجيديا" مكتملة الأبعاد ، ولسنا نعنى أن الشعر القصصى لم يكن معروفا قبله ، ولكن مائقصده أنه لم يكن بكل هذه الحيوية والتركيز والاتسجام بين المواقف والصور والجمل والإيقاع .

شعراء عصر الإمارة والفتنة البربرية (القرن الرابع وأوائل الخامس)

إلى أى حد تتبع قوة الأدب قوة الدولة التى يبرز فى زمنها؟ إن هذا التساؤل قد يبدو ضيئل الشأن أحيانا، لكنه - بالنسبة للأندلس - يستمد أهميته الخاصة، لأن "الدولة" هناك مرت بمراحل عجيبة من ارتفاع وانحدار وارتفاع، ولم تخضع هذه التحولات الحادة لمنطق واضح، ولم يخضع الأدب بدوره لهذا التأرجح بين القمة والحضيض....

ونحن مضطرون، فى هذا العرض الموجز، لأن نغفل شعراء لهم شأن مثل مؤمن بن سعيد، الملقب بـ "دعبل الأندلس" لكثرة شعره فى الهجاء، ومن جيد شعره قوله فى الدرهم:

تيمنى حبك يادرهم

فالقلب من برح الهوى مغرم

يامشبه النجم إذا ما بدا

منك استعارت حسنها الأنجم^(١)

وأىضا محمد بن يحيى القلقاط، وعده الحجارى من نحاة قرطبة المعروفين بالإقراء، وهو بدوره معدود ضمن الهجائين، وقد ذكر المقرئ أنه كان صديقا حميما لابن عبد ربه، ثم انقلبت المودة إلى خصام، وتهاجيا بعد عمر من المدائح والمودة!

(١) انظر عنه المقرب ج ١ ص ١٣٤ ومراجعته
السابق ج ١ ص ١١١ والمقرئ ج ٢ ص ١٩٩ الخ

ابن عبد ربه : (٢٤٦ - ٣٢٨)

ولابد ، على كل حال ، من وقفة أمام أحمد بن محمد بن عبد ربه صاحب العقد ، ذلك الكتاب الموسوعي الضخم الذي صنع شهرته ، وربما قلل من شأنه باعتباره شاعرا ، ذلك أنه وجه معظم الاهتمام إلى هذا التصنيف البارع ، فضاء ابن عبد ربه الشاعر وسط ذلك .

وقد اختلفت الآراء حول هذا الشعر ، فقد عده د. أحمد ضيف من قبيل الصناعة وحب الكلام الجميل لأنه كان يميل إلى قول الشعر ونظم الكلام ، لا ممن خلقوا شعراء" وكلام الأستاذ أحمد أمين عنه يشبه ذلك ، فقد اعتبره مجرد صدى للمشاركة ، وأنه كان "يجتهد ما استطاع أن يأخذ معانيهم ويزيد عليها ويختار في كل نوع من الشعر إماما من المشاركة ، فطورا إمامه صريح الغواني ، وطورا أبو العتاهية وغيرهم ، ولم يتحرر تحررا كافيا ، ولم يصغ إلى قلبه قط" (١) بينما رفع آخرون من قدر شعره ، ورأوا في كثير مما وصل إلينا منه صدقا في الإحساس وقوة في التعبير وقد كان القدماء يرون فيه "حجة الأدب ، وإن له شعرا انتهى منتهاه وتجاوز سماك الإحسان وسهائه" (٢) وعده ابن سعيد "إمام أهل الأدب بالمائة الرابعة وفرسان شعرائها في المغرب كله" (٣) وذكر الحميدى أن ديوانه يقع في نيف وعشرين جزءا من جملة ما جمع للحكم بن عبدالله ،

(١) راجع أحمد ضيف في : بلاغة العرب في الأندلس ص ٩١ ، وأحمد أمين : ظهر الإسلام ، ١٢٤/٣ ، ويراجع بصورة خاصة : د. أحمد هيكمل في : الأدب الأندلسي ، ص ٢٢٩

(٢) ابن خاقان : قلائد العقيان

(٣) عنوان المرفصات والمطربات ٥٦

لكن هذا الديوان ضاع مع ماتبده من تراث أهل الأندلس، ولم تبق منه إلا
أشتات متفرقات ، جمعت فيما أطلق عليه اسم "ديوان"^(١) وإذا أسقطنا
المنظومات (في التاريخ وفي العروض) فإن الشعر المتبقى لا يكاد يتجاوز الألف
بيت ومنها قوله :

هلا ابتكرت لبين أنت مبتكر
هيهات يأبى عليك الله والقدر
مازلت أبكى حذار البين من كمد
حتى رثى لى فيك الريح والمطر
يابرده من حيا مزن على كبد
نيرانها بغليل الشوق تستعر
آليت ألا أرى ولا قمرا
حتى أراك فأنت الشمس والقمر

وقوله :

يالؤلؤا يسبى العقول أنيقا
ورشا بتقطيع القلوب رفيقا

(١) نشره محمد التولجي بعنوان : ديوان ابن عبد ربه ، بيروت ١٩٧٧ ، كما نشره د.
محمد رضوان الداية في بيروت أيضا سنة ١٩٧٩ ، وكان شعر ابن عبد ربه : جمع
وتحقيق ودراسة موضوعا لرسالة ماجستير أعدها بجامعة القاهرة موسى رزق ربحان ،
سنة ١٩٧١ ، وراجع عن ابن عبد ربه دراسة د. جبرائيل جبور : ابن عبد ربه وعقده ط
٢ ، بيروت ١٩٧٩ .

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله
درا يعود من الحياء عقيقا
وإذا نظرت إلى محاسن وجهه
أبصرت وجهك في سناء غريقا
يامن تقطع خصره من رقة
مابال قلبك لا يكون رقيقا؟

وعارض قصيدة صريع الغواني:

أديرا على الراح لاتشرها قبلى
ولا تطلبا من عند قاتلتى ذحلى

بأبيات من جيد ما قال ، أولها:

أتقتلنى ظلما ويحصدنى قتلى
وقد قام من عينيك لى شاهدا عدل
أطلاب ذحلى ليس بى غير شادن
بعينيه سحر فاطلبوا عنده ذحلى
أغار على قلبى فلما أتيتـه
أطالبه فيه أغار على عقلى
بنفسى التى ضنت برد سلامها
ولو سألت قتلى وهبت لها قتلى
إذا جنتها صدّت حياء بوجهها
فتهجرنى هجرا أحلى من الوصل

وإن حكمت جارت على بحكمها
ولكن ذاك الجور أشهى من العدل!

فلما تقدمت السن بابن عبد ربه عزف عن هذا الضرب من الشعر الغزلى،
وكتب عددا من "المحصات" وهى قصائد فى الزهد يكفر بها عما كان قد قاله
فى الغزل والخمرىات والمجون، ومن هذا النمط قوله :

أتلهو بين باطية وزير
وأنت من الهلاك على شفير
فيا من غره أمل طويل
يؤديه إلى أجل قصير
أتفرح والمنية كل يوم
ترك مكان قبرك فى القبور
هى الدنيا فإن سرتك يوما
فإن الحزن عاقبة الغرور
ستسلب كل ما جمعت منها
كعارية ترد إلى المعير
وتعتاض اليقين من التظنى
ودار الحق من دار الغرور

ولنا أن نسلم بأن ابن عبدربه كان غزير الشعر ، متنوع الموضوعات وقد
عاش الرجل قرابة ثمانين سنة، شَرقت فيها شهرته وغرّبت حتى إن الفتح بن
خاقان فى "مطمح الأنفس" يسوق نقلا عن أحد الحجاج الأندلسيين (الخطيب أبى
الوليد بن عباد) أنه "حج، فلما انصرف تطلع إلى لقاء المتنبى واستشرف، ورأى

أن لقياءه فائدة يكتسبها ، وحلة فخر لا يحتسبها ، فصار إليه فوجده في مسجد عمرو بن العاص ، ففاوضه قليلا ثم قال: انشدني للمليح الأندلس ، ويعنى ابن عبد ربه فأنشده : (يالؤلؤا يسبى العقول أنيقا) ... فلما أكمل إنشاده استعاده منها ، وقال : يا ابن عبد ربه ، لقد يأتيك العراق حبرا^(١)!

وليس فيما سلم من ديوان ابن عبد ربه ما يجعله يحتل تلك المكانة المرموقة في الشعر ، ولعل الرأي الصحيح أن^(٢) أسلوبه الشعري بصفة عامة أصيل سهل التناول إلا أنه غير عميق الفكر ، ولا دقيق الصورة ولا خصب المعانى ، مع نغمة موسيقية وحاسة فنية تعطى الدارس دليلا على وفرة التجربة وأصالة الشاعرية وطول النفس الشعري وتنوع اتجاهاته^(٣) ، والملاحظ أن ابن عبد ربه أكثر من معارضة المشاركة ، ولعل هذا من مظاهر المحافظة؛ التي غلبت على آرائه وجعلته يسير في ركاب مدرسة مسلم بن الوليد وأبى تمام.

ومن غريب الأمر أن اسمه ذكر في "الذخيرة" وغيرها على اعتبار أنه من السباقين في اختراع الموشحات ، وهذه قضية تناقش في غير هذا المكان!

ابن دراج القسطلی (متنبی الأندلس) ٣٤٧هـ - ٤٢١هـ :

هو أحمد بن محمد بن العاصي ... ابن دراج ، وكنيته أبو عمر ، ينحدر من أسرة بربرية (من صنهاجة) ذات رئاسة في قسطلة ، إلى حد أن هذه البلدة التي تقع الآن في البرتغال تذكر أحيانا باسم قسطلة دراج ، ويشير د. محمود على مكى - ناشر ديوان ابن دراج ، وعليه عوكتنا في هذه الصفحات ، إلى أن

(١) المطمح (ط. شوابكة) ص ٢٧٣

(٢) ع. زمامة: الشاعر الأندلسي ابن عبد ربه القرطبي في : المورد المجلد السابع ١٩٧٧

ص ٤٢

أثر هذه "البربرية" غير واضح في حياة ابن دراج أو في شعره ، وتعليل ذلك أن آل ابن دراج دخلوا الأندلس مع الفتح فتأقلموا تماما حتى أصبحوا أندلسيين خالصين ، ولعل من أدلة ذلك أن ابن دراج لم يجد غضاظة في أن يهجو الزعيم البربري زيري بن عطية المغراوي عندما أعلن العصيان ضد المنصور العامري، وإذا كانت جل مدائحه انصرفت للمنصور وأبنائه فإن شعره بعدهم اتجه الي هؤلاء الملوك الذين كانوا علي عدااء مع البربر ، ولم يقصد أمراء البربر زمن ملوك الطوائف باستثناء الحمدونيين .

ولا يعرف شيء ذويال عن فترة النشأة في حياة ابن دراج، وأول شعر معروف له قاله وهو في الخامسة والثلاثين من عمره ، في مدح المنصور العامري، أي سنة ٣٨٢ وهي حافلة بالنضج والحيوية، مما يدل على أنها مسبقة بعشرات القصائد ، وأولها:

أضاء لها فجر النهى فنهاها

عن الدنف المضنى بحرٌ هواها

وضللها صبح جلا ليلة الدجي

وقد كان يهديها إلى دجاها

والقصيدة ، كما يذكر الحميدى، معارضة لأبى العلاء صاعد البغدادي، الشاعر اللغوي الذي هاجر إلى الأندلس ، وهي ، كما مر، في المديح، وهكذا يأتي معظم محتوي ديوان ابن دراج ، الذي لقبه الأندلسيون بـ "متنبى الأندلس" لا لأنه شاعر مدح فحسب، بل لأنه أيضاً شاعر فحل ينتمى إلى تلك المدرسة العريقة التي انبتت في المشرق شعراء من طراز أبى تمام والمتنبى ، وأبدعت في المغرب تلك الشاعرية الفذة التي أعطت جل طاقتها لفن المديح.

لكن الموضوع المدحى ، عند ابن دراج، لا يعدو أن يكون مجرد موضوع أو زاوية ضمن زوايا أخرى وعلى سبيل المثال فإن القصيدة السابقة تقع في

ثلاثة وخمسين بيتا (وابن دراج هو أول شاعر أندلسي يصل إلينا ديوانه ،
وليس منتخبات منه) استأثر منه المدح بثلاثة عشر بيتا بينما حفلت بوصف
أحوال الترحال وأهواله والحديث عن هموم الذات وآلام البعاد عن الأهل
والأحباب :

ولله عزمى يوم ودعت نحوه

نفوسا شجاني بينها وشجاها

وربة خدر كالجمان دموعها

عزيز على قلبي شطوط نواها

وبنت ثمان مايزال يروعنى

على النأى تذكاري خفوق حشاها

وموقفها والبين قد جد جده

منوطا بحبلى عاتقى يداها

حتى يصل إلى مقطع المديح ليسكب فيه كل ما استطاع أن يضيفه على
المنصور العامرى من سجايا :

لدى ملك إحدى لواظط طرفه

بعين الرضا حسب المنى وكفاها

هو الحاجب المنصور والملك الذى

سعى فتعالى جده فتناهى

سليل الملوك الصيد من سرو حمير

توسط فى الأحساب سمك ذراها

لباب معاليها وإنسان عينها

ويدر دياجيتها وشمس ضحاها

وأنت تقلب في ديوانه الضخم الذي يقع في أكثر من ستمائة صفحة فلا
تكاد تظفر بغير المدائح أما الغزل فهناك مقطعات قليلة منها قوله فيمن خانت
عهده :

سأمنع قلبي أن يحن إليك
وأنهى دموعي أن تفيض عليك
أغدرا ولم أغدر وخونا ولم أخن
لقد ضاع لي صدق الوفاء لديك
بفعلك عيب الحسن عندي وإن غدت
مهاة النقا والشمس مشتبهيك
أصد بوجهي عن سنا الشما طالعا
لأن صار منسوب الصفات إليك
وأصرف عن ذكراك سمعي ومنطقي
ولو نازعتنيها حمامة أيك
ولو عن لي ظبي القلا لاجتنبته
لتمثال عينيك وسالفتيك

وهذه القطعة مما قاله في زمن الصبا، أما بعد ذلك العهد فإن غزله لا ينم
عن فورة مشاعر، والخلاصة أن الغزل نادر في ديوانه، وعادة ما يأتي في صدر
القصائد مثل قوله:

غرام ولا شكوى وعتب ولا عتبي
وشوق ولا لقيا وصبر ولا عقي
وكم حن معشوق وأعتب عاشق
وقلبك ما أقسى وقلبي ما أصبي

سأصدع أحناء الضلوع بزفرة
تطير إليك القلب لو أن لى قلبا
وأسبل آماق الدموع بعبرة
وإن حرمت منك المودة فى القربى^(١)
وقد تأتى مقطعات فى الوصف (ممزوجة عادة بالمديح) مثل قوله فى
النرجس:

شكلان من راح وروضة نرجس
يتنازعان الشبه وسط المجلس
متباهيين تلونا بتلون
متباريين تنفسا بتنفس
لكن هذى بين أحشاء الفتى
نار وهذا جنة للأنفس
فكانها من حد سيفك تلتظى
وكأنه من طيب خلقك يكتسى

ولكن شاعرية ابن دراج فى مجموع شعره المدحى أقوى مما تتبدى فى هذه
المقطوعات الوصفية والتي لا يستبعد أن تكون قد قيلت ارتجالا، ومن ثم خلت
من العمق ومن أصالة التعبير^(٢)

ولكن كل هذه موضوعات ثانوية عنده، لأن الرجل قد فنى فى شعر

(١) راجع أيضا مرثية أخرى فى الديوان ص ١١٩

(٢) راجع الديوان ص ٣٥ وما بعدها (فى روضة سوسن، فى البهار، فى النرجس ، فى
الخيرى ، فى الورد ، فى السوسن وفى النيلوفر)

المديح إلى أبعد مدى ، ولولا أن لهذه المدائح قيمة تاريخية كبرى لضعف شأن ابن دراج، إذ إن كثيرا منها اتصل ببطولات المنصور العامري وحملاته الموفقة على ممالك إسبانيا النصرانية، وأرخ لهذه الفترة العجيبة من عمر "قرطبة" حاضرة الخلافة، وهي تتحول من حاضرة لدولة إسلامية مترامية الأطراف إلى مجرد إمارة صغيرة بعد أن انفرط عقد الأندلس، وأقبل ملوك "الطوائف" يصولون ويجولون ... وأما من حيث الفن فيحسبنا أن نشير إلى قوله :

دعى غزوات المستضام تسير

فتنجد فى عرض الفلا وتغور

لعل بما أشجاك من لوعة النوى

يعز ذليل أو يفك أسير

ألم تعلمى أن الثواء هو التوى

وأن بيوت العاجزين قبور

ولم تزجرى طير السرى بحروفها

فتنبئك إن/فهي سرور

تخوفنى طول السفار وإنه

لتقبيل كف العامرى سفير

دعيني أرد ماء المفاوز آجنا

إلى حيث ماء المكرمات نغير

فإن خطيرات المهالك ضمن

لراكبها أن الجزاء خطير

وهي قصيدة نسجت على غرار قوله أبى نواس

أجارة بيتينا أبوك غيور

وميسور مايرجى لديك عسير

فكيف جاز لابن دراج أن يعارض واحدة من أجمل ما كتب في الشعر
العربي علي بن المنصور^(١)، الواقع أن شاعرنا حاول أن يقدم " تفصيلات"
لموقف الوداع، لم يتطرق إليها أبو نواس، فحالفه التوفيق وهو يصف فراق
الزوجة وطفله الوليد واعنصار الوجدان ولوعة الأسى :

ولما تدانت للوداع وقد هفا

بصبري منها أنة وزفير

تناشدني عهد المودة والهوى

وفي المهد مغموم النداء صغير

عبي بمرجوع الخطاب ولفظه

بموقع أهواء النفوس خبير

وطار جناح الشوق بي وهفت بها

جوانح من ذعر الفراق تطير

عصيت شفيح النفس فيه وقادني

رواح لتدآب السرى ويكور

واستطاع ابن دراج في بعض مقاطع هذه الرائية أن يصل إلى درجة رفيعة
من إضفاء الحيوية على الأبيات وتقديم لوحات فريدة في صفائها وروعة
صورها:

ولو بصرت بي والسرى جل عزمتي

وجرسي لحنان الفلاة سمير

(١) يذكر ابن خلكان في الوفيات ج ١ ص ١٣٥ ط إحسان عباس أن "المنصور بن أبي
عامر أمره أن يعارض قصيدة أبي نواس.."

وأعتسف المومة فى غسق الدجى
وللأسد فى غيل الغياض زئير
وقد حومت زهر النجوم كأنها
كواعب فى خضر الحدائق حور
ودارت نجوم القطب حتى كأنها
كؤوس مها والى بهن مدير
وقد خيلت طرق المجرة أنها
على مفرق الليل البهيم قشير
وثاقب عزمى والظلام مروع
وقد غص أجفان النجوم فتور
لقد أيقنت أن المنى طوع همتى
وأني بعطف العامرى جدير

والقصيدة طويلة نسبيا (وعادة ما يطيل ابن دراج فى مدائحه التى يتجاوز بعضها المائة بيت) ، ومع ذلك فإنها لوحات تترى وآهات تتفجر عن صدر مكلوم ومعان تنساب فى رصانة وعمق فترسم صورة لملك اجتمعت فيه كل صفات النبيل والفروسية والعدل والجود ، وتخلب عبارة ابن دراج اللب بمثانة سبكها واستيعابها الدقيق للمعنى ، وقد يستعمل فيها الغريب أحيانا - على نحو ما كان يصنع أبو تمام أو المتنبى - لكنه الغريب الذى يتفق والمعنى الذى يريد ، مثل قوله فى وصف أهوال الترحال:

ولو شاهدتنى والصواخذ تلتظى
على ورقراق السراب يمور

أسلط حر الهاجرات إذا سطا
على حر وجهي والأصيل هجير
وأستنشق النكباء وهي بوارح
وأستوطئ الرمضاء وهي تفور
وللموت في عيش الجبان تلون
وللذعر في سمع الجريء صفير
لبان لها أنى من الضيم جازع
وأنى على مض الخطوب صبور

والحق أن ديوان ابن دراج يأتى حافلا بأمثال هذه الأبيات التي بلغت ذروة التناسق بين المعنى والأداء مما جعله يعد من بين "الشعراء الفحول"، ونقل ابن بسام في "الذخيرة" عن ابن حيان أنه كان ؛سباق حلبة الشعراء العامرين وخاتمة محسنى أهل الأندلس أجمعين " كما نقل عن ابن شهيد قوله "والفرق بين أبى عمر وغيره أن أبا عمر مطبوع النظام شديد أسر الكلام ، ثم زاد بما فى أشعاره من الدليل على العلم بالخبر واللغة والنسب ، وماتراه من حوكه للكلام ، وملكه لأحرار الألفاظ ، وسعة صدره ، وجيشة بخره ، وصحة قدرته على البديع ، وطول طلقه فى الوصف وبغيته للمعنى وترديده ، وتلاعبه به وتكريره" (١) وهذا قليل من كثير مما قيل فى هذا الشاعر المبدع الكبير (٢)

(١) الذخيرة ط. إحسان عباس ج١ من القسم الاول ص ٦١
(٢) راجع عنه أيضا : الجذوة ١.٢ ، والمغرب ج ٢ ص ٦٠ بيمة الدهر ج٢ ص ١.٤ ،
الوافى ج٨ ص ٤٩ الخ

يوسف بن هارون الرمادى (أبو عمرو)،

هذا شاعر أندلسى من طبقة الفحول ، أوتى فى زمنه القسط الأوفر من الشهرة، ولكنه - فى عصرنا الحديث - لم ينل إلا مكانة ثانوية بسبب ضياع ديوانه، أو بالأحرى دواوينه، بحسب ماسترى ...

وفى اسم "الرمادى" آراء كبيرة، لجعلها فيما يأتى:

- يقول ابن بشكوال فى "الصلة":

"كان يلقب أبى جنيش فنقل إلى الرمادى"

- ويقول الحميدى إن المرجح أن أحد آبائه من رمادة، موضع بالمغرب، وأيد ابن خلكان هذا رأى ونقل عن باقوت فى "المشترك وضعا والمختلف صقعا" أن هناك عشرة مواضع تسمى الرمادة، منها رمادة المغرب التى ينسب لها شاعرنا

- أما ابن سعيد فنقل عن الحجارى أن الرمادى من قرى شلب

- وقد ذكر مؤرخ الأندلس ابن حيان اسمه فى أكثر من موضع ، وسماه فى مرة الشاعر "الرمادى" (وفى بعض) آخر: يوسف بن هارون البطليوسى، الشاعر المعروف بأبى جنيش واختلفوا فى معنى (أبى جنيش) "وفى رأى جونثال (بلانثيا، مؤلف "تاريخ الفكر الأندلسى"، أن الرمادى) لا تعدو أن تكون الصيغة العربية لكنيته بالإسبانية الدارجة (أبو جنيش) إذ إن الجنيش Cenisa بالاسبانية تعنى الرماد وكأن نعتة بهذه اللغة يكون El-Ceniciento أما هنرى بيريس فرجع أن يكون منشأ التسمية امتهانه تجارة الرماد.

- مما يضاف إلى مشكلة الاسم قول ابن سناء الملك عن الخرجة فى

الموشحة : وقد تكون المخرجة عجمية اللفظ بشرط أن يكون لفظها أيضا في العجمي ~~منها~~ نفعيا ورماديا زليا" وفسر "الرمادى" هنا بالشعبي ...

- ومع هذا كله فالمتفق عليه أن شاعرنا عربى الأرومة، إذ إنه ينسب إلى كندة...

وقد ولد الرمادى فى أوائل القرن الرابع الهجرى، وتوفى سنة ٣٠٤ هـ أى أنه عاصر فترة اضطراب كيان الدولة الأموية بالأندلس ، ثم ارتقائها للذروة بعد أن دان الأمر لعبد الرحمن الناصر ، وقضى على الفتن وعم الأمن والرخاء ، وقد شرع الناصر - سنة ٣٢٥ فى بناء قصر "الزهراء" على مقربة من قرطبة، وفى زمنه وفد أبو علي القالى الى الأندلس ، سنة ٣٠٤ هـ فاحتفى به أهل البلاد أيام احتفاء ، وكتب الرمادى فيه واحدة من أشهر قصائده استهلها بمقطع غزلى يقول فيه :

من حاكم بينى وبين عذولى
الشجو شجوى والعويل عويل
أقصر فما دين الهوى كفر ولا
أعتد لومك لى من التنزيل
عجبا لقوم لم تكن أذهانهم
لهوى ولا أجسادهم لنحول
دقت معانى الحب عن أفهامهم
فتأولوه بأقبح التأويل
فى أى جارحة أصون معذبى
سلمت من التعذيب والتنكيل
ان قلت فى عينى فثم مدامعى
أو قلت فى قلبى فثم غليلى

لكن جعلت له المسامح مسكنا
وحجبتة عن عدل كل عدول
وبعد هذا المقطع الغزلى يأتى مقطع آخر فى الحديث عن الترحال ووصف
جواده والحديث عن الصيد والرياض ونحو ذلك مما ترددت أصداؤه طويلا فى
الشعر العربى حتى يفضى به القول إلى القالى:
قسه إلى الأعراب تعلم أنه
أولى من الأعراب بالفضل
حازت قبائلهم لغات جمعت
فيهم وحاز لغات كل قبيل
فالشرق خال بعده، فكأنما
نزل الخراب بربعه المأهول
جمعوا بغيبته وموت شيوخه
عنهم ولما يظفروا ببديل
مذ جاءهم وهم بليل همومهم
منه فصاروا فى دجى موصول
فكأنه شمس بدت فى غربنا
وتغربت فى شرقهم بأقول
ياسيدى هذا ثنائى لم أقل
زورا ولا عرضت بالتنويل
من كان يأمل نائلا فأنا امرؤ
لم أرج غير القرب فى تنويل
ولا غربة ، والقصيدة تتدفق بهذه القوة الآسرة الساحرة ، أن توليها

المصادر قسطا موفورا من الاهتمام، فنرى اقتباسات منها فى عشرات الكتب المشرقية مثل اليتيمة والوفيات والوفاء ومسالك الأمصار والشذرات ، وفى العديد من المؤلفات والمجموعات الأندلسية والمغربية مثل المطمح والمعجب والنفع ورفع الحجب^(١) الخ ..

ومما يذكر عن مرحلة شباب الرمادى أنه كان عكيفا على اللهو ، وسوف يقوده ذلك إلى السجن - فى عهد الحكم (المنتصر) - وفى "المقتبس" أنهم قبضوا على كثير من المجاهدين بالمجون وأودعوا السجن "فكان ممن ألحف الطلب لهم والبحث عليه من مستخفيهم يوسف بن هارون البظليوسى الشاعر المعروف بأبى جنيش زعيمهم، غاب مدة والطلب له حثيث، والنداء عليه متصل ، فلما أيقن أن البقاع لا تطيقه والأرض لا تحمله ، أهدى نفسه كالعبد مستتبسلا لحتفه"

وفى بقية الخبر أن الشاعر اتجه إلى السجن بالزهراء فأسلم نفسه وفى محبسه حتى لان له الخليفة فأطلق سراحه بعد أشهر ، وكان ذلك سنة ٣٦١ ، إلا أنه لم ينعم بالحرية طويلا إذ سرعان ما قبض عليه ثانية بتهمة الإساءة للخليفة إذ شاع أنه هجاه بقصيدة - أو قصائد - لم يسلم منها إلا بيت يتيم يقول فيه:

يولى ويعزل من يومه

فلا ذا يتم ولا ذا يتم

والمرجح أن مقامه طال فى السجن بدليل ماذكروا من أنه "عمل فى السجن كتابا سماه: كتاب الطير، فى أجزاء ، وكله من شعره، وصف فيه كل

(١) أنظر ملاحظات د. أحمد هيكل: الأدب الأندلسى من الفتح الى سقوط الخلافة ص ٢٩٢ حول هذه القصيدة

طائر معروف ، وذكر خواصه وذيل كل قطعة بمدح ولى العهد هشام ، مستشفعا
إلى أبيه فى إطلاقه" ، وقد ضاع كتاب الطير هذا ، كما ضاع ديوان الشاعر ولم
يسلم من شعره إلا قدر محدود - نحو مائه - صفحة ، (جمعها ماهر زهير
جرار) لا توجد فيه عن الطير إلا بضع مقطوعات ، منها قوله فى حمامة:

أذات الطوق فى التغريد أشهى

إلى أذننى من الوتر الفصيح

إذا هتفت على غصن رفيع

بنوح أو على غصن مريح

تضم عليه منقارا ونحرا

كما خر الفجيع على الضريح^(١)

وبيتان فى حمامة هما :

أحمامة فوق الأراكمة بينى

بحياة من أبكاك ما أبكاك؟

أما أنا فبكيت من حرق الهوى

وفراق من أهوى . أنت كذاك؟

وأما السجن فإن لدينا له أكثر من نص مما كتبه وهو معزول عن الدنيا ،

بعيد عما اعتاد عليه من لهو وخمر ونزق ، منها قصيدته "لك الأمن من شجو
يزيد تشوقى" ، وفيها يقول:

(١) يضم كتاب التشبيهات ثلاثة عشر بيتا فى البازى.

أعيني إن كانت لدمعك فضلة
تثبت صبرى ساعة فتدقنى
فلو ساعدت قالت أمن قلة الأسى
تبتت دموعى أم من البحر تستقى

وله من غيرها:

نسائلها هلا كفاك نحوله
ونصبتة أو دمعته وهموله
تكتفه همان : شجر وضبو
فبلغ واشيه المنى وعذوله
فإن يستبني فى وجهه هم سجنه
فقد غاب فى الأحشاء عنك دخيله
معنى بكتمان الحبيب وحيه
فان يقتل الكتمان فهو قتيله
وقد راعنى سجن فشط ولودنا

من السجن لم يسهل على دخوله

والذى يطالع فى شعر الرمادى - أو بالأحرى ماوصل منه - يجد فيه
مقطوعات كثيرة فى الغزل والخمر ووصف الزهور ومناظر الطبيعة ، ولكنه لا يجد
أثرا واضحا لمن اتصل بهم من خلفاء وحجاب وأمرأء وحجاب وتحدثنا كتب
التاريخ إنه "كان مختصا بأبى الحسن المصطفى منضويا إليه" كما يقول المراكشى
فى "المعجب" ، وقد تمت نكبة المصطفى سنة ٣٦٧هـ وقبض على السلطة غريمه
ابن أبى عامر (المنصور العامري) وعندئذ يتحول إليه الرمادى ليصبح من مداحه
- كما يقول ابن سعيد - ومع ذلك فإننا لا نملك شيئا مما قاله فى المنصور ،

الذى مر بنا أمر بأسه وحنكته وتفانيه فى الغزو والجهاد، والمراكشى فى "المعجب
" يتحدث عن هجاء للرمادى فى المنصور (بتأثير من المصحفى) فلما فقد هذا
نفوده تعرض شاعرنا للعقاب والنفى ، ثم بدلت العقوبة إلى الاكتفاء بأن نودى
بمقاطعته "فأقام أبو عمر هذا كالميت إلى أن مات مودة الوفاة فى آخر أيام
المنصور"

وهذا الخبر ينقضه أن نكبة المصحفى كانت سنة ٣٦٧، فى حين إن
الرمادى امتدت به السن إلى أن شهد الفتنة البربرية، أى أنه عاش سنوات بعد
وفاة المنصور العامرى، ومن غير المتصور أنه عاش منزويا عن الناس كل هذه
المدة .

والدارسون لفن الرمادى يرون أن شعره انصبت فيه "ألوان الحياة
الأندلسية، فشعره وثيقة حضارية هامة، إذ إنه مع تبدل الحياة تبدلت طبيعة
الشعر فالبيئة الأندلسية تمثل أجواء جديدة من الاستسلام والاغراء ، وبوجود
طبقة الجوارى والغلمان الصقالبة والبشكنس والنساء الشقراوات تبدلت عواطف
الشعراء ، وتعقدت تصورات اللذة ، فتعقد تبعاً لذلك التصوير الشعرى ،
وأصبحت اللذة غاية بذاتها ولم تعد متعة عارضة، فاقترنت بجمال الطبيعة
وبالغناء والموسيقى والخمر . ثم إن الانكسار الحاصل فى الهوية الاجتماعية من
حيث توزع المال والسلطة من جهة، وسلطة الفقهاء من جهة أخرى التى تصطدم
دائماً مع هذه الأجواء الجديدة، كل هذا عمق الانكسار فى الهوية الفردية وولد
الألم الغامر الذى لا تبتله إلا اللذة المتواصلة ، فتصبح الحياة فراديس مصطنعة

(١) انظر أيضا مقطوعة قالها فى السجن ص ١٧ من مجموعة شعر الرمادى أولها:

حبيسك بمن أتلّف الحب قلبه
ويلدع قلبى حرقه دونها الجمر

وأهنا قصيدته:

هبوا أن سجنى مانع من وصاله
فما الخطب أيضا فى امتناع خياله؟

يبتدعها الشاعر، فالرمادى جمع فى شعره هذه الأمور ، فهو يمثل التمرد على
الفقهاء من جهة، وهذا التهافت على اللذة من جهة أخرى" (١)

ولا نعرف أى لقب شعرى مشرقى أطلق على الرمادى ، وربما كان أقرب
الأسماء اليه اسم أبى نواس، فقد كان صنوه فى التغنى بالخمر ، وإذا كانت
معظم قصائده فيها قد فقدت فبحسبنا أن قسطا لابأس به من الرائية "بخطب
الشاريين" قد سلم من الضياع ، وكان الرمادى كتبها عندما فكر الحكم المستنصر
فى استئصال شجرة العنب من الأندلس وأمر بإراقة الخمر والضرب بيد من حديد
على شاريها ، فراح يتفجع ويتوجع بقوله :

بخطب الشارين بضيق صدرى

وترمضني بليتهم لعمري

وهل هم غير عشاق أصيبوا

بفقد حبات ومنوا بهجر

وضمنها بيت العرجى الشهير :

"أضاعونى وأى فتى أضاعوا

ليوم كريمة وسداد ثغر!"

وأىضا من الظواهر "النواسية" - أو فلنقل الأبيقورية - عنده ذلك التفانى
فى عشق الحياة والابتهاج بالطبيعة من أىضا ذلك التعلق بالغلمان، على نحو
مايكشف عنه قوله فى غلام ألثغ:

لا الرأء تطمع فى الوصال ولا أنا

الهجر يجمعنا فنحن سواء

(١) شعر الرمادى ، ص ٤١

فاذا خلوت كتبتها فى راحتى
ويكيت منتحبا أنا والراءء
والإكثار من الحديث عن مفاتن النساء . ولكن من غير فحش وأحاديث
الهوى . مثل قوله :

وانى لأغضى الطرف عنك جلالة
وخوفا على خديك من لحظاتى
ولو أننى أهملت عينى بأن ترى
سناك لحالت دونها عبراتى
رأيت وشاة الكاشحين أباعدا
ولكن دمعى من عديد وشاتى
زعمت بأنى حلت عنك ولم أكن
اعنيك فى بشى وفى حسراتى
وهل أنا إلا طالب لمنيتى
إذا حلت عنى يديه وفاتى

والنصوص التى مرت تكشف عن خصائص الرمادى ، الذى كان ينتمى
بدوره لمدرسة المحدثين ، إلا أنه كان فى الوقت ذاته بصيرا بالأدوات الفنية
التقليدية على نحو ما تكشف عنها مدحته فى أبهى على القالى، حتى إذا مامال
إلى موضوعات الوصف والتعبير عن الذات لجأ إلى الجملة البسيطة التى
تكسب جمالها من حيوية الصور ، والحق أن الرمادى لم يكن يمعن فى الغوص
تنقيبا - متعمدا - عن المعنى الجديد بل كان يتدفق هذا تدفقا طيعا بين
يديه، فشاعرنا كان شاعر طبع ، إلا أنه كان يحرص فى الوقت ذاته على أن

يجعل عبارته مشرقة وصوره متألقة، لا يحاكي فيها أحدا

ويلحظ القارئ في كثير من مقطوعات الرمادى مواقف ذات أبعاد درامية
محددة مركزة على نحو يذكر بمنهج الغزال ، إلا أن الرمادى كان أكثر صقلا
لعبارته وتجويد الصورة ، من قبيل قوله:

لما بدا فى لازور

دى الحرير وقد بهر

كبرت من فرط الجمال

ل وقلت : ما هذا بشر

فأجابنى لا تنكروا

ثوب السماء على القمر !

والخلاصة إن إبداع النص يتمثل عند الرمادى فى "الصورة" بينما يتألق
عند الغزال فى "الموقف" ، وبينهما ولا شك أواصر قوامها غلبة الروح "الأندلسية"
الفنية على شعرهما .

عصر ملوك الطوائف
(من شعراء القرن الخامس الهجرى)
ابن زيدون

إذا ذكرت الأندلس فإن صوراً كثيرة تتداعى إلى النفس من خلال
ذكرها، يأتى من بينها ولا شك اسم الشاعر العبقري ابن زيدون .

وقد ارتبط اسم هذا الشاعر بعصر ملوك الطوائف خاصة فى قرطبة
واشبيلية، وكان طرفاً فيما جدّ على العصر من أحداث متلاحقة انتهت بسقوط
الخلافة الأموية واختيار أهل قرطبة لأبى الحزم بن جمهور أميراً أو حاكماً لقرطبة
وماحولها، بينما استولى بنو عباد على إشبيلية، واشتعلت الفتن بين الأقاليم
وازداد نفوذ النصارى وضغطهم من كل اتجاه .

وشاعرنا (أحمد بن عبدالله بن أحمد بن غالب بن زيدون) ينحدر من بنى
مخزوم ، وهم بطن من لؤى بن غالب، أى أنه كان قرش العنصر، وكان لأسرته
شأن فى قرطبة، على نحو ما ذكر ابن حيان من أنه كان "من أبناء وجوه الفقهاء
بقرطبة أيام الجماعة والفتنة"، والثابت أن مولده كان بالرصافة، على مقربة من
قرطبة، سنة ٣٩٤هـ، وأنه نشأ محاطاً بالرعاية والتثقيف من قبل أبيه ثم أساتذة
ذلك العصر ومنهم أبو بكر مسلم بن أحمد بن أفلح النحوى الذى يوصف بأنه
كان "رجلاً جيد الدين ، حسن العقل، متصافواً ، لين العريكة، واسع الخلق، مع
نبله وبراعته وتقدمه فى علم العربية واللغة، راوية للشعر وكتب الآداب على
حد تعبير ابن بشكوال صاحب الصلة .

وكان ابن زيدون^(١) فى الثامنة والعشرين من عمره عندما تم اتفاق أهل قرطبة على زعامة أبى الحزم بن جهور ، والمرجح أنه قام بنصيب وافر فى هذا الأمر حتى أن الفتح بن خاقان يصفه بأنه "زعيم الفئة القرطبية، ونشأة الدولة الجمهورية"، وهيات له هذه الزعامة أن يحتل منصب الوزارة ، وقد نقل ابن بسام عن أبى مروان بن حيان قوله :

"وقد أجرى ذكر من اصطنع ابن جهور، من رجال دولته فقال: ونوه أيضا بفتى الآداب وعمدة الظرف والشاعر البديع الوصف والرصف أبى الوليد أحمد بن زيدون ذى الأبوة النبهة بقرطبة والوسامة والدراية وحلاوة المنظوم والسلطنة وقوة المعارضة والافتتان فى المعرفة . وقدمه إلى النظر على أهل الذمة لبعض الأمور المعترضة ، وقصره بعد على مكانه من الخاصة والسفارة بينه وبين الرؤساء ، فاحسن التصرف فى ذلك، وغلب على قلوب الملوك"^(٢)

ومع ذلك فإن أبا الحزم بن جهور كان تخوف فى قرارة نفسه من ابن زيدون ، كما أنه ، من ناحية أخرى ، كان ينقم عليه انغماسه فى حياة اللهو واقتران اسمه باسم ولادة بنت المستكفى (وسنعود إلى ذلك بعد قليل) من خلال قصة حب عاصفة ودفعه طبعه الحاد، وثقته المفرطة فى نفسه، لأن يحط من قدر ابن القلاس وابن عبدوس (منافسه فى حب ولادة) وكان العصر عصر فتن وانقلابات ومن ثم دبرت له تهمة اغتصاب عقار وحوكم محاكمة ظالمة أفضت به على عجلة إلى السجن ، حيث مكث فيه قرابة خمسمائة يوم . ويرى بعض

(١) راجع عنه ابن بسام فى الذخيرة وكتاب ابن نباتة : سرح العيون والصفدى فى : تمام المتون ، وابن سعيد فى : المغرب (ج ١ ص ٦٣) والحميدى فى الجذوة ص ١٢١ وابن خاقان فى القلائد ص ٧٠ وابن دحية فى المطرب ص ١٦٦ الخ ..

وراجع مقدمة ديوانه - نشر على عبد العظيم - القاهرة ودراسة (وهى فى الأصل رسالة للماجستير) نشرت بالقاهرة سنة ١٩٥٥ فى ٥٨٧ ص فضلا عن دراسات أخرى متفرقة

(٢) الذخيرة (القسم الأول من المجلد الأول ١ ط إحصان عباس) ص ٣٣٧

الباحثين أن الشاعر أودع السجن مرتين، لكن الرأي الصائب أنه "لم يسجن إلا مرة واحدة في عهد أبي الحزم بن جهور بعد نقض بيعة هشام بقرطبة سنة ٤٣١هـ ، وبعد أن تولى ابن المكوى القضاء - وهو الذى نيط به أمر محاكمته - لسبع خلون من محرم سنة ٤٣٢هـ، ونحن نعلم أن الشاعر فر من سجنه وكتب رسالته الى أستاذه أبى بكر مسلم بن أحمد الذى توفى لثمان خلون من شعبان سنة ٤٣٣هـ ، ومن هنا نستطيع ان نحزم بان الشاعر سجن فى الفترة بين محرم سنة ٤٣٢هـ وشعبان سنة ٤٣٣هـ^(١).

وقد فر ابن زيدون من السجن بقرطبة، واتجه إلى إشبيلية لاثنا بآل ابن عباد، أعداء ابن جهور، وأمذته فترة السجن ثم الاختفاء والهرب بطائفة من فرائد ماكتب فى السجن والاعتراب والاحساس بالضيق ، مثل قصيدته :

خليلى لا فطر يسر ولا أضحى

فما حال من أمسى مشوقا كما أضحى

وفىها يتحدث عن قرطبة وأحيائها ومعالمها حديث المقيم المشوق، حتى ينتهى إلى الزهراء فيلهج لسانه :

ألا هل إلى الزهراء أوبة نازح

تقصى تنائيبها مدامعه نوحا

مقاصير ملك أشرقت جنباتها

فخلنا العشاء الجون أثناءها صباحا

محل ارتياح يذكر الخلد طيبه

إذا عز أن يصدى الفتى فيه أو يضحى

(١) على عبد العظيم ، مقدمة ديوان ابن زيدان ، ص ٤٣

وكذلك أرجوزته :

يادمع صب ماشئت أن تصوبا
ويافؤادى آن أن تذوبا
إن الرزايا أصبحت ضروبا
لم أر لى فى أهلها ضربيا
قد ملأ الشوق الحشا ندوبا
فى الغرب إذ رحت به غربيا

وأیضا هذه المقطوعة التى كتبها على غرار قصيدة للمتنبى واتخذ من مطلعها "خاتمة" لأبياته:

هل تذكرون غربيا عادة شجن
- من ذكركم - وجفا أجفانه الوسن
يخفى لواعجه والشوق يفضحه
فقد تساوى - لديه - السر والعلن
ياويلتاه ، أبقى فى جوانحه
فؤاده ، وهو بالأطلال مرتهن
وأرق العين -والظلماء عاكفة-
ورقاء قد شفها - إذ شفنى - حزن
فبت أشكو وتشكو فوق أيكثها
وبات يهفو ارتياحا بيننا الغصن
ياهل أجالس أقواما أحبهم
كنا وكانوا - على عهد - فقد ضغنوا

أو تحفظون عهدا لا أضيّعها
إن الكرام بحفظ العهد تمتحن

ومنها:

إن كان عاد لكم عيد قرب فتى
بالشوق قد عاد من ذكركم حزن
وأفردته الليالي من أحبته
قبات ينشدها مما جنى الزمن:
" بم التعلل لا أهل ولا وطن
ولا نديم ولا كأس ولا سكين "

ولم يكف ابن زيدون طيلة هذه المدة عن محاولة التوسل لابن جهور لكي يعفو عنه ، حتى إذا ما مات أبو الحزم وتولى من بعده ابنه أبو الوليد تبدل الحال، إذ كانت أواصر الصداقة تربط بين الرجلين منذ أمد بعيد، وهكذا جاءت العودة المظفرة إلي قرطبة "ورفع - أبو الوليد - مكانته ، ونوه به ، وأسنى خطته واعتمد عليه في السفارة بينه وبين الملوك المجاورين ، وبذا يمكن القول بأن ابن زيدون أصبح - مرة أخرى - " وزير خارجية" قرطبة والمستشار الأول لأميرها الجديدة ولم يخل الأمر من أزمات توالى بين الرجلين ، بفعل المؤامرات والأحقاد وتقلب النفوس وهذا كله سيدفع بالشاعر إلى الرحيل مرة ثانية إلى إشبيلية، واستقبل من أميرها الداهية المعتضد بن عباد أحسن استقبال، وأصبح من وزرائه المقربين ومستشاريه الأثيرين، وتلقب بـ "ذى الوزارتين" كناية عن قيامه بمهام المستشار والوزير ثم استطاع بعد ذلك أن يستحوذ على منصب "الكتابة" الذى أتاح له الاطلاع على كل أسرار الدولة فكأنه أصبح - بتعبير العصر الحديث - رئيس الوزراء فى إشبيلية

وكانت فى المعتضد غلظة وسرعة فتك وكثرة تقلب ، ومع ذلك نجح ابن زيدون فى أن ينجو من بطشه ويحافظ على مكانته ويتخلص من مناوئيه - مثل ابن حصن كاتب المعتضد ، وأيضاً ابن عبد البر .

ثم آل عرش إشبيلية للمعتد سنة ٤٦١هـ ، وكان شاعراً بل وتلميذاً لابن زيدون ، ولذا لم تفلح كل المحاولات التى سعت لإحداث الواقعة بينهما ، بل ان تطور الأمور فى الأندلس زاد من التقارب بين الرجلين ، إذ تطلع المعتد للاستيلاء على قرطبة ومن أدركى بقرطبة وأحوالها من ابن زيدون ؟ ، حتى إذا ما تحقق النصر ازداد شأن الشاعر عند المعتد بن عباد ، خاصة وأن أهل قرطبة كانوا لا يعصون له أمراً ، ويرون فيه "زعيمهم الروحى" ، والمعبر عن أمانيتهم ومجدهم وكيانهم .

ثم وقعت الفتنة فى إشبيلية ، والمعتد فى قرطبة ، فسعى لاختمادها بتسيير جيش ضخم بقيادة أحد أبنائه ، وأمر ابن زيدون أن يسافر مع الجيش ، لما كان يعهده فيه من ذكاء وفطنة ، وما كان يعرفه من حب أهل إشبيلية له ، على أن سفر ابن زيدون كان مكيدة من طرف خصوم الشاعر - وعلى رأسهم ابن مرتين قائد الجيوش فى قرطبة والوزير ابن عمار - ليخلوا لهم الجو هناك ، ويتخلصوا من الرجل الذى كان يحظى بأعلى مكانة عند المعتد وعند أهل المدينة .

وإذا كان جيوش المعتد قد نجحت فى استرداد إشبيلية ، فإن الوزير الشاعر كان قد أجهد بفعل الشبيخوخة وكثرة ما بذل من جهد ، ومن ثم يودع الحياة بعد ذلك بزمان وجيز - فى رجب سنة ٤٦٣هـ ، وكان لموته رنة أسي فى نفوس الناس بالأندلس ، خاصة فى مدينته قرطبة .

ولادة وابن زيدون :

إن لقصة الحب العاصف بين ابن زيدون وولادة أثرا عميقا فى حياة الشاعر وفى آثاره الأدبية ، ومن ثم نتحدث عنها هنا على حدة ، خاصة وانها شغلت الدارسين والأدباء فى القديم والحديث وخلفت أصداء شبيهة بما كان من حكايات وأساطير حول عنتر وعيلة، وليلى والمجنون ، وجميل وبثينة وكثير وعزة الخ

أما ابن زيدون فقد عرفنا شيئا من أمره : شاعرا ووزيرا ورجل دولة من الطراز الأول ، وشخصية اجتماعية مرموقة فتن بها أهل قرطبة ، ورأوا فيها تجسيما حيا لكل مالمدينتهم العريقة من حضارة و "ارستوقراطية" واعتداد بالذات وطموح وإقبال على الحياة .

وأما هى : ولادة ، فإنها أميرة وابنة خليفة . وإن كان أبوها عادة مايوصف بأنه ساقط الهممة دنى النفس ، وهو أحد الذين أسهموا فى القضاء على البيت الأموى بطيشه وضعف همته وعكوفه على الشهوات، وكانت ولادة ، على النقيض منه ، مشهورة بأنها - على حد تعبير ابن بسام - :

"كانت فى نساء أهل زمانها واحدة أقرانها، حضور شاهد، وحرارة أوايد ، وحسن منظر ومخير، وحلاوة مورد ومصدر ، وكان مجلسها بقرطبة منتدى لآحرار المصر، وفناؤها ملعبا لجياد النظر والنثر .. إلى سهولة حجابها، وكثرة منتابها، تخلط ذلك بعلو نصاب وكرم أنساب ، وطهارة أثواب ^(١) لكن ابن بسام

(١) الذخيرة (ط. إحسان عباس) المجلد الثانى من القسم الزول، ص ٤٢٩ ومن الأعمال
|| نية والمسرحية حول الموضوع مسرحية لإبراهيم الأحذب وفصل قصير قمشلى لأحمد
رامى بعنوان: غرام الشعراء ، ومسرحية شعرية لعلى عبد العظيم بعنوان : ولادة وأخرى
لحسين سراج (غرام ولادة) وفاروق جريدة (الوزير العاشق) ونذير العظيمة (سيزيف) ورواية
نثرية لعلى الجارم :هاتف من الأندلس، الخ ..

لا يكتفى بهذا الجانب "طاهر الأثواب" بل يعرج على كونها "اطرحت التحصيل وأوجدت إلى القول فيها السبيل ، بقلة مبالاتها ، ومجاهرتها بلذاتها - كتبت - زعموا - على أحد عاتقى ثوبها:

أنا والله أصلح للمعالي

وأمشى مشيتى وأتبه تيهي

وكتبت على الآخر :

وأمكن عاشقى من صحن خدى

وأعطى قبلتى من يشتهيها

وفى كتب الأدب؛ الأندلسى ، وعلي رأسها "الذخيرة" أطراف من حكاية الحب التى جمعت بينهما ، وكان ذلك أيام شباب الشاعر وفى فترة إقبال الحياة عليه ، ووفقا لروايته فإنها هى التى كتبت له :

ترقب إذا جن الظلام زيارتى

فإنى رأيت الليل أكتم للسر

وبى منك مالوكان للبدر مابدا

وبالليل ماأدجى وبالنجم لم يسر

وأنه أنشدها فى إثر اللقاء مقطوعة من أربعة أبيات بقول فيها :

ودع الصبر محب ودعك

ذائع من سره مااستودعك

يقرع السن على أن لم يكن

زاد فى تلك الخطى إذ شيعك

ياأخا البدر سناء وسنا

حفظ الله زمانا أطلعك

إن يطل بعدك ليلى فلكم
بت أشكو قصر الليل معك

والأبيات ترد بالفعل فى الديوان ، ولكنها ليست بالضرورة مما قيل فى أعقاب "اللقاء الأول " كما قد يوحى نص "الذخيرة" ، والمهم أننا نجد عنده تعلقا "من نوع ما" بولادة ، يرتدى أحيانا قناع العذرية ، ويجمع أحيانا جموحا حسيا ، وكان يقع بينهما ما يقع بين المحبين من غيرة وخصام وقطيعة أيضا ، وقد تحركت الغيرة فى نفس ابن زيدون ، عندما وجد أن غريمه ابن عبدوس يزداد منها تقربا ومودة ، فعمد الشاعر إلى هجائه بالرسالة الهزلية؛ وبعث بالنص لولادة كما هجا غريمه ابن القلاس بأقذع الهجاء ، ولم يستطع مع ذلك أن يجعلها تؤثره بمشاعرها (وفى الذخيرة أنها حنقت عليه لأنها توهمت أنه يميل إلى جاريتها عتبة) ثم تطور الحال به إلى أن سجن ، (ولعل لابن عبدوس يدا فى مسألة السجن هذه) وفر منه إلى إشبيلية ، حيث بعث إليها بقصيدته الفريدة الغريبة:

أضحى التنائى بدىلا من تدانينا
وناب عن طيب لقيانا تجافينا
هلا وقد حان صبح البين صبحنا
حين فقام بنا لى ناعينا
من مبلغ الملبسينا بانتزاحهم
حزنا مع الدهر لا يبلى وبيلينا
أن الزمان الذى مازال يضحكنا
أنسا بقربهم قد عاد يبكينا
غیظ العدا من تساقينا الهوى فدعوا
بأن نغص فقال الدهر آمينا

وقد نكون وما يخشى تفرقنا

فاليوم نحن وما يرجى تلاقينا

والقصيدة تمضى كلها على هذا النمط العذب الرقيق، (الذي يذكر بقصائد الحب الخالدة مثل لامارتين في بحيرته وغير ذلك من روائع الشعر "الرومانتيكى") وفيها دلائل حية على صدق الشاعر، ومع ذلك فإن قصة الحب هذه مألوفة أن تهاوت لأسباب أفاضت فيها كتب التاريخ والأدب، من أهمها أن ولادة كانت مريضة نفسيا، وأنها كانت تعاني من ميل حاد لتعذيب الآخرين - وهو ما يعرف الآن بالسادية - والرغبة في تلويث سمعتهم، وقد يستدل على ذلك من قول العمرى: وكانت ولادة ذات بوادر يشيب لها رأس الوليد، وفي نظر نيكل أن سلوكها كان متسما بالخشونة المتطرفة والاتجاه المادى الطبيعى الذى يذكرنا بجورج صائد، وأنها ورثت عن أبيها بعض ملامح الخشونة^(١)، ولكن هذا الحب، على كل حال، جعل ابن زيدون يصدق بقصائد خالد مثل "أضحى التنائى" ومثل:

إنى ذكرتك بالزهراء مشتاقا

والأفق طلق ووجه الأرض قد راقا

وللنسيم اعتلال فى أصائله

كأنما رق لى فاعتل اشفاقا

والروض عن مائه الفضى مبتسم

كما شققت عن اللبات أطواقا

يوم كأيام لذات لنا انصرمت

بتنا لها - حين نام الدهور سراقا

(١) راجع على عبد العظيم، مقدمة الديوان، ص ٣٩

كل بهيج لنا ذكرى تشوقنا
إليك لم يعد عنها الصدر أن ضاقا
لا سكن الله قلبا عن ذكركمو
فلم يطر بجناح الشوق خفاقا

ألوان أخرى من الفن :

دارت موضوعات الشعر عند ابن زيدون حول موضوعات الغزل والوصف والموضوعات التقليدية من مديح ورثاء وهجاء وقد عرفنا أنه شاعر حب من الطراز الأول - وسنكتفى بما قلناه عن حبه لولادة ، وهى قصائد تخللتها عادة لوحات وصفية متألقة (انظر مثلا مستهل قافيته : إنى ذكرتك بالزهراء مشتاقا) ، وأما جانب المدائح فإن الناس عادة ما يتجاهلونه لأن شهرته فى الشعر العاطفى ، لكن المؤرخين المدققين عرفوا له قوة باعده فى أكثر من فن ، على نحو ما ترجم ذلك عبارة المراكشى من أن ابن زيدون "كان إذا نسب أنساك كثير عزة، وإذا مدح أزرى بزهير ، وإذا فخر أناف على امرئ القيس " ، والحق أن مدائح الشاعر تأتى رصينة رنانة طيبة، فيها نفثات "بحترية" لاتنفى عنها الأصالة، وتدور حول ماهو مألوف من المعانى المدحية، لكن ابن زيدون بث فى جنباتها من حرارة روحه ودقة تعبيره ما جعلها تموج بالإيحاء والإشراق والنبيل واقرأ قوله فى أبى الحزم بن جهور :

هذا الصباح على سراك رنبا
فصلى بفرعك ليلك الغريبا

ومن أبياتها مما يمتزج فيه التمهيد بالعتاب بالمديح :
مالى وللأيام ؟ لج مع الصبا
عدوانها فكسا العذار مشيبا

محقت هلال السن قبل تمامه
وذوى بها غصن الشباب رطيبا
لألم بى مالو ألم بشاهق
لا نهال جانبه فصار كشييا
فلئن تسمنى الحادثات فقد أرى
للجفن فى العضب الصقيل ندوبا
ولئن عجبت لأن أضام وجهور
نعم النصير لقد رأيت عجيبا
من لاتعدى النائبات لجاره
زحفا ولا تمشى الضراء ديبيا
ملك أطاع الله منه موفق
مازال أوابا اليه منيبا
بسام ثغر البشر إن عقد الحبا
قرأيت وضاحا هناك مهيبا
ملأ النواظر صامتا ، ولربما
ملأ المسامع سائلا ومجيبا

وقد تأخذ مدائحه مسارا آخر أكثر نعومة وكأنه نسجها هذه المرة بخيوط
من حرير ، وكأن الكلمات يهمس بها همسا ينساب على إيقاع موسيقى هادئة
رقيقة ، ومثل هذه القصيدة التى أعرب فيها عن شكره للمظفر بن الأفطس
أمير بطليوس ، عندما وفد إليه ، فارا من قراطبه ، فأحسن استقباله ونعنى
بذلك قصيدته :

هى الشمس مغربها فى الكلل
ومطلعها من جيوب الحلل

ومن أبيات الشكر :

سأشكر أنك أعليتني

بأحظى مكان وأدنى محل

وأني إن زرت لم تحتجب

وإن طال بي مجلس لم تمل

تبسمت ثم ثنيت الوساد

فحسبى من خطر ما أجل

فلو صاقح الترب خدى لهان

ولو كاثر القطر شكرى لعل

بأمثالها يسترق الكريم

إذا مطمح بسواه أخل

وابن زيدون فى معظم شعره واضح فى معانيه ، سهل فى ألفاظه ، وهو فى كل هذا يكشف عن ثقافة لغوية وأدبية ضخمة ، وما يميزه كذلك هذا الفيض من الصور المتألقة ، التى تكشف عن ولعه بالتشبيه وبالطباق على نحو خاص ، وهذه القدرة الموسيقية التى يضيفها على الأبيات فتنبض بالغنائية وتنسل إلى الفؤاد .

وشعر ابن زيدون مرآة صادقة للشعر العربى - إجمالاً - بكل مزاياه وعيوبه ، وإذا كان قد استوعب كل مآذركنا من مفاخر فإنه لا يشف عن رؤية إنسانية خاصة إلا فى القليل النادر ، ولا شك أن جوانب الجودة عنده هى الأساس ، ومن ثم اتفق الدارسون على الإشادة به ، ورأوا فيه " أعظم شاعر قديم أنجبته الأندلس " على حد تعبير جومث .

المعتمد بن عباد

شهد الربيع الأول من القرن السادس الهجري سقوط الخلافة الأموية سنة (٤٢٢) واشتداد ساعد حركة " الاسترداد " النصرانية ، وتمزق الدولة إلى أشلاء متناثرة بعد الجاه والمنعة وعلو الشأن علي زمن الفاتحين الأوائل وحتى أيام عبد الرحمن الداخل والخليفة الناصر وأيضا المنصور العامري .

وشهدت الأندلس بعد ذلك ، من بين ما شهدت ، سطوع نجم بني عباد الذي تتابعوا علي ملك إشبيلية وكان منشئ دولتهم القاضي محمد بن اسماعيل ابن عباد (وأصوله من عرب الحيرة) رجلا داهية واسع الطموح ، استطاع أن ينصب نفسه أميرا علي المدينة ، وأعلن أنه يحكم في ظل " الشرعية " ويتعاضد ممن زعم أنه هشام بن الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر " وكانت أخباره انقطعت منذ نيف وعشرين سنة ، ثم قيل إنه حي في قلعة من قلاع الأندلس ، فدعاه القاضي وجعل له اسم الملك ووطد به سلطانه ، وثبت إمارته توفي الرجل المدعو هشاما^(١) ، وكان هذا الموقف واحدا من عجائب التاريخ ، الحافلة بالخداع والادعاء^(٢) .

وقد استمرت إمارة محمد بن القاسم قرابة عشرين عاما (من ٤١٤ - ٤٣٣ هـ) ، فلما مات خلفه ابنه أبو عمرو ، الملقب بالمعتضد الذي حكم قرابة

(١) د. الوهاب عزام : المعتمد بن عباد ، القاهرة ١٩٧٦ ص ٨ .

(٢) يصفه ابن بسام في الذخيرة - المجلد الأول من القسم الثاني ، ص ٣٧ . بـ " صاحب الرجعة " وقد توقفت الخطبة له في أشبيلية سنة ٤٥١ . وكان هشام المؤيد قد اختفي علي أثر استيلاء أحد أمراء البيت الأموي علي مقاليد الأمور في قرطبة وتواري عن الأنظار طويلا حتي حيكّت حوله الأساطير راجع أيضا : د . حرجي طربية : الوجدية وأثرها في الأندلس ، بيروت ١٩٨٣ ص ٥٩ وما بعدها .

ثلاثين سنة ، قويت فيها دعائم الدولة حتي أصبحت دولة بني عباد أقوي
إمارات عهد ملوك الطوائف ، ، لكن هذا المجد لم يقم إلا علي القسوة في
أنكي صورها ، حتي لتذكر كتب التاريخ أن بستان قصره حفل بالعديد من
الأخشاب التي نصبت وعليها رؤوس من فتك بهم من رجالات الأندلس وكان
يقول : في مثل هذا البستان فليتنزه :! ، وعبر ابن حيان عن رأيه في باب
فرط القسوة وتجاوز الحدود " حكايات شنيعة لم يعد في أكثرها للعالم بصدقها
دليل يقوم عليها ... ومهما برئ من مغبتها فلم يبرأ من فظاعة السطوة وشدة
القسوة .. " وكان المعتضد شديد الشغف بمقطوعة قال فيها بعد أن أخضع
مدينة " رندة " لنفوذه :

لقد حصلت يارندة

فصرت للمكنا عقدة

أفادتناك أرماح

وأسياف لها حدة

وأجناد أشداء

إليهم تنتهي الشدة

غدوت يروني مولى

لهم وأراهم عدة

سأفنى مدة الأعدا

• إن من طالت بي المدة

وتبلى بي ضلالتهم

ليزداد الهوي جدة

فكم من عدة قتل

ت منهم بعدها عدة

نظمت رؤوسهم عقدا

فحلت لبة السُدة (١)

ومما يذكر أنه لم يتورع عن قتل ابنه وولي عهده اسماعيل إذ شك في ولائه له وانه بالخيانة .

وربما كان المعتضد أعظم ملوك " الطوائف " قوة ومنعة لكن ابنه المعتمد (أبو القاسم محمد بن عباد) هو الذي خلد ذكره في التاريخ باعتباره شاعرا إلى جانب أنه كان الأمير الذي دانت له الأصقاع وعمرت قصوره بأعظم آيات الترف ، ثم هوي من علم وتحولت حياته اللاهية إلى مأساة بالمعنى الدقيق للكلمة .

وغير بايجاز علي حياة المعتمد ، علي الرغم من أبعادها " الدرامية " العجيبة ، التي استحوذت علي الاهتمام في القديم وفي العصر الحديث ووجد فيها الروائيون وكتاب المسرح مادة خصبة للحديث عن البطولة والحب والدهاء والذكاء والطموح و أيضا تتناول مأساة الإنسان في ارتقائه قمة المجد ، ثم في انحداره إلى الدرك الأسفل من الضياع والهوان

وتتلخص حياة المعتمد أبي القاسم محمد بن عباد في أنه ولد في مدينة باجة ، غربي الأندلس في وكان يتلقب في بداية أمره باسم الظافر المؤيد بالله ، ثم تحول إلى المعتمد بعد توليه العرش سنة ٤٦١ هـ ولا يعرف شئ عن أمه

(١) الذخيرة (القسم الثاني) المجلد الأول ص ٣٢ .

(وكان المعتضد قد تزوج من ثمانمائة فتاة) وقرس منذ شبابه علي الأعمال العسكرية والسياسية ، فقد ضم إلي مملكة العبادة عددا من المدن والقلاع ، منها شلب (وعين أميرا عليها) فلما تولي الملك عين عليها صديقه الشاعر ابن عمار ، الذي كان قرينه في حياة اللهو والمجون في شلب ، ثم كان زواجه من اعتماد الرميكية ، نحو سنة ٤٥ هـ (١)

وقد خلف هذا الزواج أثرا عميقا في حياة المعتضد ، وكانت له بمثابة المستشار في كافة شؤون الدولة والمهمة لكثير من شعره ويؤثر أن شاعرنا قاد في سنة ٤٥٩ حملة للاستيلاء على مالقة وكانت من أملاك باديس بن زيري الصنهاجي صاحب غرناطة ، وقد كادت هذه الحملة أن تحقق غاياتها إلا أن الدائرة دارت عليه في النهاية ، وفر من المدينة وهو في خزي من الهزيمة، وفي خوف من حساب أبيه وهو الطاغية القاسي الجبار ، وفي هذا الموقف كتب الشاعر واحدة من أجمل قصائده ، استهلها بمخاطبة نفسه :

سكن فؤادك ، لا تذهب بك الفكر

ماذا يعيد عليك البث والحذر

وازجر جفونك لا ترض بالبكاء لها

واصبر فقد كنت عند الخطب تصطبر

وان يكن قدر قد عاق عن وطر

فلا مرد لما يأتي به القدر

(١) رجع د. صلاح خالص هذا التاريخ في دراسة حول : المعتضد بن عباد الأشبلي ، بغداد سنة ١٩٥٨ ص ٣٠ .

وان تكن خيبة فى الدهر واحدة

فكم غزوت ومن أشياحك الظفر

وهذه القصيدة أول ما وصل إلينا من آثاره ، وفيها ما ينم عن درية ، مما يؤكد أنها كانت مسبقة بمحاولات كثيرة قبلها .

وعندما آل إليه الملك (سنة ٤٦١ هـ) لم تصرفه أمور الدولة عن الشعر والشعراء ، ولاننسى أن المعتمد قرب ابن عمار وجعله على شلب ، ثم استدعاه إلى إشبيلية حيث تقلد الوزارة ، واستطاع المعتمد فى سنة ٤٦٢ أن يستولى على قرطبة التى كانت جيوشه قد جاءت إليها لتدعيم ملك عبد الملك بن جهور وصد غارات ابن ذى النون عنها ، ثم لم تلبث هذه الجيوش أن بسطت نفوذها على حاضرة الأمويين ، وفى ذلك يقول المعتمد :

من للملوك بشأو الأصبى البطل

هيهات ، جاءكم مهدية الدول

خطبت قرطبة الحسناء إذ منعت

من جاء يخطبها ، بالبيض والأسل

كما نجح ابن عمار فى الاستيلاء على مرسية ، لكنه لم يكن فى واقع الأمر يعمل لحساب سيده "المعتمد" وإنما لحساب نفسه ، متواطئاً فى ذلك مع ملوك الفرنجة وخاصة ألفونسو السادس ، وفى هذه الآونة سقطت طليطلة فى أيدي النصارى (سنة ٤٧٤ هـ) وابتدأ بذلك طور خطير فى زعزعة كيان المعتمد ابن عباد ، واشتداد قوة حركة "الاسترداد" ، وكان سيد إشبيلية القوى يؤدى الجزية صاغراً لألفونسو السادس ، وصورة الأندلس تبدو آنذاك شديدة الاضطراب ، منذرة بالويل والدمار ، وبالفعل وقع التنافر بين المعتمد والملك القشتالى ،

ولم يكن هناك من مناص إلا الاستعانة بالأمير المرابطي يوسف بن تاشفين وكان
ماكان من أمر عبور الجيوش البربرية إلى الأندلس والانتصار الهائل فى معركة
الزلاقة التى يسميها الأوربيون ساكر الياس Sacralias ذلك سنة ٤٧٩

وبعد ذلك بسنتين كان العبور الثانى ليوسف بن تاشفين لتخليص بعض
الحصون من أيدي الفرنجة ، ثم كان العبور الثالث الذى قرر فيها أمير البربر
تخليص الأندلس من كافة ملوك الطوائف - بما فيهم المعتمد بن عباد - وتوحيد
البلاد تحت امرته ، وهكذا. كان الاستيلاء على مملكة غرناطة وطرد بنى زيرى
منها، ثم جاء الوقت الذى تأهب فيه للانقضاض على المعتمد، ولم يتورع هذا
عن طلب العون من ألفونسو السادس، ونجحت جيوش المرابطين فى الاستيلاء
على قرطبة وقتل أميرها (المأمون ابن المعتمد) وفى سنة ٤٨٤ دخلت الجيوش
البربرية إشبيلية، وسبق المعتمد وأمهات أولاده وأولاده إلى أغمات عاصمة
البربر، ولسان حاله يتمتم :

لما تماسكت الدموع

وتنبه القلب الصديق

قالوا الخضوع سياسة

فليبد منك لهم خضوع

وألذ من طعم الخضو

ع على فمى السم النقبع

إن يسلب القوم العدا

ملكى وتسلمنى الجموع

فالقلب بين ضلوعه
لم تسلم القلب الضلوع
لم أستلب شرف الطبا
ع أيسلب الشريف الرفيع
قد رمت يوم نزالهم
ألا تحصننى الدروع
وبرزت ليس سوى القميـ
ص على الحشا شئ دفعوع
وبذلت نفسى كي تسيد
ل إذا يسيل بها النجيع
أجلى تأخر لم يكن
بهواى ذلى والخضوع
ماسرت قط الى القتا
ل وكان من أملى الرجوع
شيم الألى أنا منهم
والأصل تتبعه الفروع

ثم كانت حياة النفى والمهانة والحرمان فى سجن أغمات ، وهو يرسف فى القيود كالليث الأسير أما اعتماد الرميكية - مليكة إشبيلية التى كانت ترفل فى الجاه والنعيم - فإنها وبناتها كن يتعيشن بالغزل نظير دراهم معدودات ، ولم يكن له وقد ضاع الملك إلا أن يلوذ بكنف الشعر يبيته أشجانه ، ومن أجمل ما كتب فى سجن أغمات تلك الأبيات وقد رأى قمرية تنوح وفى عشا طائران

صغيران :

بكت أن رأت إلفين ضمهما وكر
مساء وقد أخنى على إلفها الدهر
بكت لم ترق دمعا وأسبلت عبرة
يقصر عنها القطر مهما همى القطر
وناحت وباحت واستراحت بسرها
وما نطقت حرفا يبوح به سر
فمالى لا أبكى أم القلب صخرة
وكم صخرة فى الأرض يجرى بها نهر
بكت واحدا لم يشجها غير فقده
وأبكى لألاف عديدهم كثر
بنى صغير، أو خليل موافق
يمزق ذا قفر ويمزق ذا بحر
ونجمان زين للزمان احتواهما
بقرطبة النكداء أو رنذة القبر
إذن إن ضن جفنى بقطرة
وإن لؤمت نفسى فصاحبها الصبر
فقل للنجوم الزهر تبكيهما معى
لمثلهما فلتحزن الأنجم الزهر

وقد بكى الملك الذاهب، وتأسف على الذكريات النادرة فى إشبيلية، لكن
الشجو يبلغ أوجه فى مراثيه لولديه:

يقولون صبرا لاسبيل إلى الصبر
سأبكى وأبكى ماتطاول من عمرى
هوى الكوكبان : الفتح ثم شقيقه
يزيد فهل عند الكواكب من خبر
نري زهرها فى ماتم كل ليلة
تخمش لهفا وسطه لهفة البدر
ينحن على لجمين أثلكت ذا وذا
وأصبر؟ ماللقلب فى الصبر من عذر

وفى تغبيره عن المهانة التى آل إليها أمر فلذات أكبادہ ، وقد أقبل العيد
وليس على بناته سوى الأطمار البالية :

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا
فساءك العيد فى أغمات مأسورا
ترى بناتك فى الأطمار جائعة
يغزلن للناس لايملكن قطميرا
برزن نحوك للتسليم خاشعة
أبصارهن حسيرات مكاسيرا
بطأن فى الطين والأقدام حافية
كأنها لم تطأ مسكا وكافورا

والحق أن شعر السجن وشكوى الدهر وصل إلى ذروة روعته الفنية
والتأثيرية عند المعتمد بن عباد ، ومن أجمل ما تذكره له في هذا المجال تلك
الآبيات التي يناجي فيها الأغلال التي تكبله ووقع ذلك على أطفاله الصغار
وهم ينظرون إليه في أسى :

قيدي أما تعلمني مسلما
أبيت أن تشفق أو ترحما
دمى شراب لك واللحم قد
أكلته لاتهشم الأعظما
يبصرني فيك أبو هاشم
فينثنى القلب وقد هشما
أرحم طفيلًا طائشا لبه
لم يخش أن يأتيك مسترحما
وأرحم أخيات له مثله
جرعتهن السم والعلقما
منهن من يفهم شيئا فقد
خفنا عليه للبكاء العمى
والغير لا يفهم شيئا فما
يفتح إلا لرضاع فما

وآخر ما تذكره له تلك الزفرة الحزينة التي تفيض بالحنين إلى الماضي
الذاهب في إشبيلية (وأهل الأندلس يسمونها أيضا: حمص) حتى ليتمنى لو

يدفن جدته فيها:

غريب بأرض المغربين أسير
سبيكى عليه منبر وسرير
وتدبه البيض الصوارم والقنا
ويتهل دمع بينهن غزير
سبيكه فى زاهيه والزاهر الندى
وطلابه والعرف ثم نكير
إذا قيل فى أغمات قد مات جوده
فما يرتجى للجود بعد نشور
فياليت شعرى هل أبيتن ليلة
أمامى وخلفى روضة وغدير
تراه عسيرا أم يسيرا مناله
ألا كل ماشاء الإله يسير
قضى الله فى حمص الحمام وبعثرت
هنالك منا للنشور قبور

هذه خطوط عامة عن أمير فارس شاعر بمعنى الكلمة ، وإذا كان الذى وصل من شعره قليل فإن فيه ما يكشف عن سمات فنية متنوعة، ولعل من أبرزها ذلك "الوضوح الذى يدل على وضوح التجربة لدى الشاعر ، فلا تعثر فى شعره على غموض ولا التواء ، وما ساعد على هذا الوضوح الوحدة فى شعره،

فكل مقطوعة أو قصيدة تتحدث عن خاطر مر بنفس المعتمد ، وتتضافر الابيات
فى إيضاح هذا الخاطر ، وتسير فى اتساق ونظام" (١) ، ومن الملامح الفنية
البارزة عنده روعة وقوة الصور، فإنها كانت تأتي فى شعره صافية ، رقاقة
مجسمة للمعنى ، والأمثلة عليها أكثر من أن تحصى مثل قوله فى غلام رآه
يوم العروبة (الزلاقة) فى خضم القتال :

ولما اقتحمت الوغى دارعا

وقنعت وجهك بالمغفر

حسبنا محياك شمس الضحى

عليها سحاب من العنبر

وهناك هذا الجيشان الوجدانى الذى يكسو شعره بفلالة من الصدق وقوة
الأسر مما يخلف فى نفس القارئ أثرا عميقا لا يمحو أبدا

(١) ديوان المعتمد بن عباد بتحقيق د. أحمد أحمد بدوى ود. حامد عبد المجيد (مراجعة طه
حسين) القاهرة سنة ١٩٥١ ص ٣ (من المقدمة)، وهناك طبعة أخرى للدكتور رضا
الحبيب السويسى تونس ١٩٧٥ سنة ١٩٧٥ لا تختلف كثيرا عن ط القاهرة

أبو اسحاق الألبيري، تحليل قصيدة

هناك نصوص أدبية تكتسب أبعادا بالغة القوة والتأثير لا بالنسبة لعصرها وحده، ولا من حيث ارتباطها بـ " مناسبة" أو بقطر ما وإنما لأنها تتغلغل في صميم الأحداث بحيث تصبح قيمة انسانية مطلقة ، تعبر عن واقعة ما كما أنها تمثل ركيزة ورمزا ومجالا لتأويلات لا حد لها من التنوع والثراء.

من هذه النصوص النادرة قصيدة تعود بنا إلى غرناطة في ظل ملوك الطوائف ، وإلى الأندلس بكل ماكانت تموج به آنذاك من أجناس وأجواء وأهواء وأعاصير راحت تتهدد مسلميها بعد أن انقسموا الى شيع متنافرة : فهناك بنو عباد في اشبيلية، ودولة بنو جهور في قرطبة، وبنو هود في سرقسطة والعامريون في بلنسية وبنو الأفطس في بطليوس ... صورة مأساوية لكيان كان من قبل ملء السمع والبصر ، لكن البنيان الشامخ انهار ، وتحول الى مجرد طول وجدران وسرايب وأحجار ...

لكن مايشغلنا الآن قصيدة اشتهرت في غرناطة التي كانت خاضعة آنذاك لأمير بربري من صنهاجة هو باديس بن حبوس ، رأس بني زيري آنذاك

وقد قدر لباديس هذا أن يحرز سلسلة من الانتصارات على زهير العامري، صاحب المرية، وعلى بني عباد وبني حمود ، ولكنه كان "سفاكا للدماء، فيه عدل بجهل" على حد تعبير الذهبي، الذي روى عنه نوادر تشبه من بعض الوجوه ماروي عن قراقوش وزير صلاح الدين ، فمن ذلك أن امرأة وقفت له عند باب مدينة ألبيرة" فقالت: يامولانا: ابني يعقني، فطلبه ودعا بالسيف،

فقلت المرأة: إنما أردت تهديده ، فقال: ماأنا بمعلم كتاب ، وأمر به فضربت عنقه" (١)

وخبر آخر حكاه الذهبي أيضا يقول ان أميرا صنهاجيا مر ببدوى بانس ومعه زوجة جميلة، فأركبها الأمير شفقة عليها ثم هرول بها وضمها الى حريمه، وجاء الرجل لقصر الأمير فطردوه، عندئذ توجه الى باديس فشكاه أمره، فقال الملك لذلك الأمير "ادفع اليه زوجته" فأنكر، فقال : يابدوى! هل لك من شهيد ولو كلبا يعرفها؟ قال: نعم، فدخل بكلب له الى الدار، وأخرجت الحرم ، فلما رآها الكلب عرفها وبصيص ، فأمر الملك بدفعها إلى ، البدوى ، وضرب عنق الأمير، فقال البدوى: هي طالق لكونها سكنت ورضيت فقال الملك صدقت! ولو لم تطلقها لألحقتك به . ثم أمر بالمرأة فقتلت" ولا نريد أن نطيل فى أخبار باديس هذا الذى امتد ملكه على غرناطة طويلا (ثم تملك من بعده عن الله بن بلكين ابن حبوس، وفى عهده استولى يوسف بن تاشفين على غرناطة سنة ٤٨٣ وتم نفي عبدالله الى أغمات وهناك ألف كتابه: التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بنى زيرى فى غرناطة، وهذا الكتاب نشره ليفى بروفنسال تحت عنوان : مذكرات الأمير عبدالله ، وبعد أهم مصدر عن نهاية عهد ملوك الطوائف، خاصة مااتصل منها بغرناطة) إذ حكمها من ٤٣٠ هـ إلى ٤٦٦ هـ.

ومن أغرب مااتسم به ذلك العهد ازدياد نفوذ اليهود بصورة لم يحدث لها مثيل من قبل، ولعل من أسبابه أن بنى زيرى كانوا يشعرون بالعزلة بسبب عداة بقية أهل الأندلس لهم ، وشعورهم بأن هؤلاء البربر دخلاء عليهم، ومن ثم عول بنو زيرى على هؤلاء اليهود ، فكان منهم الوزراء وجباة الأموال والمراجعون الخ ... وكان جل اعتمادهم على بنى النغرة .

(١) سير أعلام النبلاء ٥٩١/١٨

وتجدر الإشارة هنا الى أن هذه الصيغة : النغرة مختلف عليها إذ "يكتب الاسم على أشكال لعل أصوبها ابن نغدة أى "المدير" ويطلق على اثنين مشهورين هما صموئيل بن يوسف (اسماعيل أو اشموال بن يوسف) ويوسف ابنه، وقد كان اسماعيل عالما وزر لصاحب غرناطة، وخلفه ابنه يوسف فأساء التصرف فيما يبدو ، فثار الناس عليه وقتلوه ، ولكن ابن بسام ينسب أفعال الابن إلى أبيه ، ويتابعه فى ذلك ابن سعيد فى المغرب" (١) والثابت على كل حال ان مكانة ابن النغرة كانت عالية عند باديس ، لأن هذا اليهودى الماكر جعل أمير غرناطة سجيناً للملذات والخمر ، وسعى (هو أو أبوه) لتمكين ابن صمادح - صاحب المربة - من الاستيلاء على غرناطة، كما أرق أهل المدينة بالضرائب الباهظة، ومكن اليهود فى المقابل من المناصب البارزة، وهذا كله عمل على إلهاب مشاعر مسلمى غرناطة الذين صبروا طويلاً على هذا العبث من ابن النغرة، وهذا التراخى من باديس بن حبوس، وكان أن انفجر الموقف فى التاسع من صفر سنة ٤٥٩ (٣٠ من ديسمبر ١٠٦٦) وإذا بالجموع الغاضبة تفتك بالوزير اليهودى وتقتل بضعة آلاف من بنى جلدته، وتشيع الخراب والدمار فى أحياء اليهود بغرناطة .ويجعلون من أسباب اشتعال الثورة ضد اليهود تلك القصيدة التى أشرنا إليها فى مستهل هذا الحديث ، وهى لشاعر اسمه أبو الإسحاق الإلبيرى، هو الذى نتناوله الآن فى إيجاز .

(١). هامش الذخيرة، المجلد الثانى من القسم الأول ، ص ٧٦١ ولاهن حزم رسالة الرد على ابن النغرة، تحقيق د. احسان عباس، القاهرة سنة ١٩٦٠ وذكر ابن بسام بعض مدائح فيهم ألفها شاعر يدعى المنفلت .

(٢) ذكر ابن بسام أن عدد القتلى نيف على أربعة آلاف - ص ٧٦٩ من القسم الأول - فى حين يقول جومث فى :مع شعراء الأندلس والمتنبى ، الطبعة الثالثة - بترجمة د. الطاهر مكى - ص ٩١ أن عدد القتلى ثلاثة آلاف

وهناك أمور متفق عليها بالنسبة له، منها أن اسمه إبراهيم بن مسعود التجيبى ، وأن كنيته أبو اسحاق ، وأنه ينسب الى مدينة البيرة، (التي نفى اليها بتحريض من ابن النغرة) ، ونقل ابن سعيد عن صاحب المسهب أنه "من حصن العقاب ، وكان قد اشتهر فى غرناطة اسمه ، وشاع علمه ، وارتسم بالصلاح، وكان ينكر على ملكها كونه استوزر ابن نغره اليهودى ، وعلى أهل غرناطة انقيادهم له ، فسعى فى نفيه الى البيرة ، فقال شعره المشهور :

ألا قل لصنهاجة أجمعين

بدور الزمان وأسد العرب

فاشتهر هذا الشعر ، وثارت غرناطة على اليهودى فقتلوه وعظم قدر أبى إسحاق" (١)

وذهب لسان الدين بن الخطيب الى مثل هذا القول - مع بسط وتفصيل - إذ يذكر استفحال شأن ابن نغرة "الى أن طرق جاهه الاعتلال، وأسرع الى حاله الاختلال ، وكثرت فيه الأقوال، ورمى بمداخلة ابن صمادح صاحب المربة فى تصيير ملك باديس إليه . وحفظت القصيدة المنسوبة الى المولى العابد أبى إسحاق الألبيرى - رضى الله عنه :ألا قل لصنهاجة أجمعين (وأوردها كاملة) فثار بهم صنهاجة، وقد تيقنوا إغراضه عنه وعمله على نكبته ، وزحفوا على داره، وقد تبعتهم العامة، فاقتحموها وانتهبوها. وأخفى اليهودى نفسه فى بيت ملآن فحما، وسود به وجهه وتنكر ، فأخرجوه وقتلوه ، وصلبوه على باب المدينة، وقتل فى هذا اليوم آلاف من اليهود.."

وفى هذه الإشارات مايجعل من قضية الألبيرى الشرارة التى فجرت

(١) المغرب ج ٢ ص ١٣٣

المعمعة، بينما لا يأتى عنها فى مصادر أخرى أدنى إشارة تدل على صلتها بالأحداث، فمن ذلك أن ابن بسام يجعل ثورة أهل غرناطة مقرونة باكتشاف ما كان من أمر التواطؤ بين ابن النغرلة وابن صمادح - الذى تحدثنا عنه قبلا - وربما كان أرجح الآراء أن عوامل كثيرة أسهمت فى صنع هذه الأحداث ، منها عكوف باديس على ملذاته الي حد أنه لم يعد يرى من الأمر شيئا ، ومنها تسليمه كافة مقاليد الأمور الى ذلك الوزير اليهودى الداهية، الذى لم يكف طيلة عهده عن التآمر والغدر ونهب الأموال وسوء الإدارة والاستهتار بالرعية والدين ، ومنها أيضا تلك القصيدة المتفجرة بالقوة وصدق التعبير والتى تقول أبياتها :

ألا قل لصنهاجة أجمعين

بدور الزمان وأسد العرين

لقد زل سيدكم زلة

تقر بها أعين الشامتين

تخير كاتبه كافرا

ولو شاء كان من المسلمين

فعز اليهود به وانتخوا

وتأهوا ، وكانوا من الأرذلين

ونالوا مناهم وجازوا المدى

فحان الهلاك وما يشعرون

هكذا تأتي البداية ملائمة لجلال الموقف العاصف، وتتجلى البراعة فى

(١) أعمال الأعلام (تاريخ اسبانية الإسلامية) تحقيق ل. بروفنسال بيرنت ١٩٥٦ ص ٢٣٣

توجيه الخطاب الى صنهاجة - الى شعب غرناطة - وكأننا أمام خطبة أو
"منشور"، وهي نغمة قليلا ما نصادفها في الشعر العربي حيث إما المديح وإما
الهجاء؛ ويتلو ذلك ذكر لتولى ابن النفرة الوزارة، وما بلغه اليهود من شأو
(موقوت)

ثم يتابع الإلبري الحديث :

فكم مسلم فاضل قانت

لأرذل قرد من المشركين

وما كان ذلك من سعيهم

ولكن منا يكون المعين

فهلا اقتدى فيهم بالآلى

من القادة الخيرة المتقين

وأنزلهم حيث يستأهلون

وردهم أسفل السافلين

وطافوا لدينا بأخراجهم

عليهم صغار وذل وهون

ولكن الشاعر ، لأمر ما ، يعدل عن المضي في تبكيت باديس، فبعد أن

قال إنه زل زلة شنعاء، نراه يوجه له الخطاب قائلاً :

أباديس أنت امرؤ حاذق

تصيب بظنك نفس البقين

فكيف اختفت عنك أعيانهم

وفي الأرض تضرب منها القرون

وكيف تحب فراخ الزنا

وهم بغضوك الى العاليمن
وكيف يتم لك المرتقى
إذا كنت تبنى وهم يهدمون؟
ثم يضيف :

وإني احتللت بغرناطة
فكنت أراهم بها عابثين
وقد قسموها وأعمالها
فمنهم بكل مكان لعين
وهم يقبضون جباياتها
وهم يخضمون وهم يقضمون
وهم يلبسون رفيع الكسا
وأنتم لأوضعها لابسون

ولكن لهجة الشاعر لباديس فيها محاولة لإيقاظه من غفلته وليس فيها
خنوع أو مذلة . إنه بهتف به :

وهم أمناكم على سرکم
وكيف يكون خزون أمين
ويأكل غيرهم درهما
فيقصي ويدنون إذ يأكلون
وقد لابسوكم بأسحارهم
فما تسمعون ولا تبصرون

ورخم قردهم داره

وأجرى إليها نير العيون

فصارت حوائجنا عنده

ونحن على بابه قائمون

وقد عرفنا من أمر فرط ثقة باديس في ابن النغرة ومع ذلك فإن الشاعر
يغريه في هذه القصيدة بأن يفتك به ، ويستعين في تسويغ ذلك بمحاولة إثارة
النخوة في نفس ملك غرناطة :

فبادر الي ذبحه قرية

وضع به فهو كبش سمين

ولا ترفع الضغط عن رهطه

فقد كنزوا كل علق ثمين

وفرق عداهم وخذ مالهم

فأنت أحق بما يجمعون

ولا تحسبن قتلهم غدره

بل الغدر في تركهم يعيثون

وقد نكثوا عهدنا عندهم

فكيف تلام على الناكثين

وكيف يكون لهم ذمة

ونحن خمول وهم ظاهرون

ونحن الأذلة من بينهم

كأنا أسبأنا وهم محسنون

فلا ترض فينا بأفعالهم
فأنت رهين بما يفعلون
وراقب إلهك في حزيه
فحزب الإله هم الغالبون

وقد أوردنا معظم أبيات هذه القصيدة التي شغل الناس بتحليل جوانبها التاريخية، ولكنها جديرة بأن تنال كذلك قدرا من الاهتمام بأبعادها الفنية والجمالية ، ولسنا نزعم أن الألبيري من الشعراء الفحول ، ومع ذلك فأى براعة تجلت في اختيار هذا النسق اللغوي الواضح البسيط الذي يخاطب الأذن ويتسلل الى الوجدان مباشرة بلا أدنى كلفة؟

وتأتى الموسيقى الصادحة لتتواءم تماما وروح القصيدة ، التي تنتهى أبياتها بحرف النون الساكن، بكل ما فيه من رنين وأصداً ، تعضدها صور شديدة الوضوح والبساطة ومن هنا لا نكاد نصادف شيئا من الافنعال حتى في حالات تعارض الصور مثل " وكيف تحب ... وهم بغضوك.." ومثل :...إذا كنت تبني وهم يهدمون ، و "كيف انفردت بتقريبهم ... وهم من المبعدين " .

ومن جوانب التوفيق فى نونية الألبيري الاستعانة بالمعانى الدينية الإسلامية وهذا بلغ ذروته فى البيت الأخير الذى يخلق فى نفس السامع أثرا قويا يظل يرن فى الاذان طويلا ، محققا الغاية التى رمى اليها هذا النص الذى يتفجر بالقوة والغضب والحياة والصدق والمهارة الفنية .

لمحة عن

الشعر فى عصر المرابطين والموحدين

مدخل،

لعل القرنين الخامس والسادس أعظم عصور الأدب فى الأندلس ، وبحسب المرء أن يختبر كتباً مثل الذخيرة والقسم الأندلسى من الخريدة وكذلك مطمح الأنفس وقلائد العقيان والمغرب والمطرب .. الخ لكى يطمئن الى هذه النتيجة ونسلم بأن درس هذا النتاج الأدبى مسألة محفوفة بالعديد من الصعوبات ، فهل ندرسه بحسب العصور أم وفقاً لتقلب الأوضاع السياسية أم تبعاً للاتجاهات الفنية - ان كانت هناك اتجاهات واضحة المعالم - ؟

ولعل الأجدى أن نتفق على أن الأدب الأندلسى "مجرد فترة من تاريخ الأدب العربى.. لا يقتصر ارتباطها على حياة الأقطار العربية وحدها، وعندما يجرى الحديث عن تطور الثقافة العالمية فإن هذا الماضى يعطينا مثالا واضحا لتمييز الحدود بين الشرق والغرب ، ويدخل الشعر العربى فى الأندلس فى نطاق الثقافة والأدب العالمى لا لمجرد أنه نما وتطور على أرض احدى الدول الغربية .. المهم هو أن الفترة العربية فى الأندلس هى فترة التأثيرات الأدبية العميقة الواسعة التى تسمى جوازا بالتفاعلات الغربية - الشرقية أو على وجه التحديد الرومانية العربية؛^(١) وهذا يبلغ مداه فى الفترة التى نحن بإزائها

أما "أندلسية" هذا الشعر فإن استخلاصها يحتاج الى هوادة وتمعن،

(١) كراتشكوفسكى: الشعر العربى فى الأندلس ، ترجمة د. محمد منير مرسى ، القاهرة

١٩٧١ ، ص ٩

فالأصول الفنية التي حكمت شعر المشرق هي التي امتدت الي المغرب، ومن الصعب إطلاق أحكام صارمة ترسم الفروق بين هذا وذاك، ولكن يمكن القول بأن أهل الأندلس كانوا في هذه الفترة أقل شغفا بالبديع من نظرائهم بالمشرق وقارن بين أعمالهم وبين أدباء مثل القاضي الفاضل وابن قلاقس وابن سناء الملك، على سبيل المثال وهذه النتيجة نستخلصها في شئ من الاطمئنان من خلال التأمل في أعمال شعراء الأندلس العظام في القرن السادس الهجري، ممن سلمت دواوينهم من الضياع أوجعت أشعارهم في العصر الحاضر، وهناك - على سبيل المثال لا الحصر - الأعمى التطيلي الأديب الوشاح (ت ٥٢٧ق) وابن حمديس الصقلي (ت ٥٢٧ هـ) وابن خفاجة (٥٣٣ هـ) ... وانتهاء بأبي بكر بن زهر (الحفيد) المتوفى سنة ٥٩٥ هـ، وكل منهم أبدع في شعره غاية الإبداع، وصفا طبعه فبعد عن التكلف كل البعد .

وامتدادا من النقطة السابقة نشير الى عدم احتفاء هؤلاء الشعراء بمنزعة التوليد العقلي الذي أغرم به كثير من شعراء المشرق آنذاك، حيث دفعتهم الرغبة في الابتكار إلى الوقوع في شرك التكلف والالتكاء على الأفكار والمصطلحات العلمية والفقهية وما إلى ذلك^(١) وهو ما لنراه عند الأندلسيين إلا في القليل النادر

وهذا كله أدى إلى أن يكون النص الشعري الأندلسي، بصورة عامة، واضح النسق ، مترابط البنيان ، لا يلجأ عادة الى المقدمات الشكلية، ويغلب عليه الميل إلى التشخيص والتفاعل مع الطبيعة والحياة^(٢) ويجنح الشعر الأندلسي إلى التعبير عن مدى إقبالهم على الحياة وشغفهم بكل ما يحيط بهم

(١) للمزيد من التوسع يراجع : د. حكمت الأوسى: الشعر في عصر الموحدين ص ٢٤٣

(٢) راجع في ذلك كتاب ب. عبدالعزيز الأهواني: ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار في الشعر ، وانظر كتابنا : النصوص الصقلية، والمراجع المذكورة فيه .

من جمال وترف ونضارة ولذا جاء هذا الشعر فى معظمه واضح الأفكار والتراكيب والصور ، وقد يوصف بالسطحية وعدم الجزالة وقلة التأنيق إلى آخر ما يطلقه أصحاب الأذواق "الكلاسيكية" من أحكام قاسية لاتخلو من تعسف .

ويلاحظ ، على كل حال، أن الشعر الأندلسى أكثر "رومانسية" من الشعر المشرقى وهذه بدورها مقولة ضخمة تحتاج الى مزيد من الشرح والاستدلال والتحديد ، فضلا عن أن تحديد "الرومانسية" ^(١) أمر معقد، وكل مانريد أن نقوله الان فى إيجاز ان الحدة العاطفية تبدو أشد توهجا فى الأندلس منها فى المشرق، على الأقل ابان تلك الفترة التي نتعرض لها، والتي ضمت شعراء مثل ابن خفاجة الأندلسى ، وابن الزقاق البلبسى ويحيى بن بقى وأمية بن أبى الصلت وابن اللبانة والأعمى التطيلى وابن مجبر وابن زهر الحفيد الخ ، ممن سوف نتناولهم ومن لا يتسع المجال للحديث عنهم تفصيلا .

ومن منا لم تتحرك أحاسيسه وهو يقرأ قصيدة ابن خفاجة " فى الاعتبار":

بعيشك هلى تدرى أهوج الجنائب
تخب برحلى أم ظهور التجائب
فما لحت فى أولى المشارق كركما
فأشرقت حتى جبت أخرى المغارب
وحيدا تهادانى الفيافى فأجتلى
وجوه المنايا فى قناع الغياهب

(١) لا نعنى بالرومانسية هنا المدرسة الرومانتيكية التى شاعت فى الشعر الأوروبى فى أخريات القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر، ولكن المقصود منها الأدب الذى تسيطر عليه الأخيلة والانفعالات الحارة والانغماس فى الذات .

وأشهر ما فيها قوله فى وصف الجبل :
وأرعن طماح الذؤابة باذخ
يطاول أعناق السماء بغارب
يسد مهب الريح عن كل وجهة
وينحزم ليلا شهبه بالمناكب
وقور على ظهر الفلاة كأنه
طوال الليالى مطرق فى العواقب
يلوث عليه الغيم سود عمائم
لها من وميض البرق حمر ذوائب
أصحت اليه وهو أخرس صامت
فحدثنى ليل السرى بالعجائب^(١)

ومن هذا الطراز قوله ابن جبير البلنسى:
غريب تذكر أوطانه
فهيج بالذكر أشجانه
يحل عري صبره بالأسى
ويعقد بالنجم أجفانه
وقول أبى الحسن بن مطرف، من شعراء مجموعة "زاد المسافر" :
أنا صب كما تشاء وتهوى
شاعر ماجن خليع جواد

(١) راجع القصيدة فى ديوانه (طبعة د. سيد غازى ص ٢١٦)

أرضعتنى العراق ثدى هواها
وغذتنى بظرفها بغداد
راحتى لوعتى وإن طال سقم
وقمادى على الجفون سهاد
سنة سنها قديما جميل
وأتى المحدثون مثلى فزادوا

على أن الشعر الأندلسى لم يكن كله شعر لهو وغزل وهيام فى رحاب
الطبيعة فقد خاض فى مختلف مجالات التعبير ، والتصق بالخلفاء والأمراء
وذوى الجاه ، وتناول كذلك المعارك فهلل للانتصارات، ونقب عن الأعذار عند
الهزيمة، وتحول أحيانا إلى ما يشبه "البيانات" الحماسية الناطقة باسم الدولة، فمن
ذلك أن الخليفة أبا يعقوب يوسف أمر بأن تذاع فى قبائل افريقية قصيدة تحضهم
على ترك الخلافات والتأهب للجهاد لنصرة الأندلس، فكتب على اثر ذلك طبيبه
الفيلسوف أبو بكر ابن طفيل قصيدة طويلة مطلعها:

أقيموا صدور الخيل عند المضارب

لغزو الأعادى واقتناء الرغائب (١)

ومن أبياتها :

ألا فابعثوها همة عربية

تحف بأطراف القنا والقواضب

أفرسان قيس من بنى ابن عامر

وما جمعت من طاعن ومضارب

(١) انظر الإحاطة فى أخبار غرناطة ج ٢ ص ٤٧٩

لكم قبة للمجد شدوا عمادها
بطاعة أمر الله من كل جانب
كما أمر الخليفة بأن توجه قصيدة ثانية فكتب ابن عياش الكاتب على
الأثر :

أقيموا الى العليا عوج الرواحل
وقودوا الى الهيجاء جرد الصواهل
وقوموا لنصر الدين قومة ثائر
وشدوا الى الأعداء شدة صائل
فما العز إلا ظهر أجرد سابع
يفوت الصبا في شدة المتواصل
وأبيض ماثور كأن فرنده
على الماء منسوج وليس بسائل

ومن أبرز شعراء هذه الفترة عباس الجراوى (منافس ابن مجبر، وسنعرض
له بعد قليل)، وله عشرات القصائد فى مدح الخليفة أبى يعقوب يوسف ثم ابنه
المنصور، وله فى التهنية بانتصاره على بنى غانية وفتح قفصة قصيدة ذكر منها
ابن عذارى عشرين بيتا، يستهلها بقوله :

فتح يطاول فتحه الأحقابا
خضعت له فرق الضلال رقابا
واستشعر المراق منه مخافة
ملكك عليهم جيئة وذهابا

وغدا به ماقد صفا من عيشهم
كدرا ومافيه الحلاوة صابا

ويقول فى وصف الانتصار:

آيات نصر بينات كلها
بهرت بما جاءت به الألبابا
خصت إماما للبرية محبتى
برا تقيا خاشعا أوّابا
ملك عليه مسحة ملكية
ليس الزمان جمالها جلبابا

وللجراوى قصيدة قالها يهنئ المنصور باستيلائه على مدينة شلب من أبدي
قرنجة البرتغال:

إياب الإمام حياة الأمم
توالى السرور به وانتظم
وجاء به الأرض صوب الحيا
وجلّى الظنم به بدر تم
فتوح عظام جناها الزمان
لذى هم دونهن الهمم (١)

وإذا كان هذا النمط من الشعر يزخر بالخطابية وإضفاء شتى النعوت على
المدوحين، والقدح فى الأعداء بكل السبل فإن فى بعض نماذجه ما يفصح عن
شاعرية أصيلة تفاعلت مع المواقف، ومزجت مزجا حيا بين ذات الأديب وشخص

الممدوح وجلال الأحداث ، (على ماسترى فى كثير من شعراين مجبر) وتوهج
الشاعرية، كما فى مدحة ابن حزمون التى وجهها للخليفة المنصور فى أعقاب
النصر يوم "الأراكة" :

حيثك معطرة النفس
نفحات الفتح بأندلس
فذر الكفار ومأثمهم
إن الإسلام لفى عرس
أ إمام الحق وناصره
طهرت الأرض من الدنس
وملأت قلوب الناس هدى
قدنا التوفيق للتمس
ورفعت منار الدين على
عمد شم وعلى أسس
وصدعت رداء الكفر كما
صدع الديجور سنا قبس
لاقيت جموعهم فغدوا
فرسا فى قبضة مفترس
جاؤوك تضيق الأرض بهم
عددا لم يحص ولم يقس
ومضيت لأمر الله على
ثقة بالله ولم تخس

فأناخ الموت كلا كله

بظباك على بشر نجس

وتساوى القاع بهامهم الـ

مرفض مع الحذب الضرس

فأولئك حزب الكفر ألا

إن الكفار لفي نكس

وهكذا تنتهى من هذه العجالة الموجزة عن الأدب فى القرن السادس الهجرى فى الأندلس ، وهى فترة نهضة أدبية وعلمية وحضارية أحييت التألق الذى كانت عليه البلاد على أيام دول الطوائف ومحت جالة الركود الفكرى التى سادت على زمن المرابطين، كما أن هذا القرن كان عصر قوة نسبية للمسلمين هناك، وهكذا تفتقت الطاقات الفنية لمن ذكرنا من شعراء، وشهدت الأندلس كذلك عبقریات فى مجال الفكر مثل ابن رشد، وظهر فى مضمار الطب أبو بكر بن طفیل وفى النحو ابن مضاء صاحب "الرد على النحاة" وفى هذا القرن بلغت الموشحات ذروة تألقها كما انتشرت فيه الأزجال على يدى أبى بكر بن قزمان، وظهرت فيه نخبة طيبة من روائع كتب الأدب مثل "الذخيرة" لابن بسام وقلائد العقيان والمطمح لابن خاقان ، وزاد المسافر لصفوان بن ادريس الخ ...

الأعمى التطيلي :

ان هذا الشاعر الفذ (أبو جعفر - وأيضا أبو العباس - أحمد بن عبدالله بن أبي هريرة أو ابن هريرة) ينحدر من أصول عربية (من القيسية) وعادة ما ينسب إلى تطيلة Tudela - وهي غير طليطلة - وتقع قريبا من شرقسطة، من الثغر الأندلسي الأعلى ، وينسب أيضا لإشبيلية. ومن الملاحظ أن المعلومات عنه قليلة للغاية، وكل ما يرد عنه (باستثناء المختارات الشعرية) لا يتجاوز الأسطر القليلة، فمن ذلك ما يأتي في "الوافي بالوفيات" وفي "نكت الهميان" .. الخ، وعلى الرغم من أن ابن بسام خصص له خمسا وعشرين صفحة إلا أنها في مجموعها مختارات شعرية ونثرية ، يتصدرها قوله : " وله أدب بارع ، ونظر في غامضه واسع، وفهم لا يجارى وذهن لا يبارى ، ونظم كالسحر الحلال، ونثر كالماء الزلال، جاء في ذلك بالنادر المعجز في الطويل منه والموجز، نظم أخبار الأمم في لبة القريض ، وأسمع فيه ماهر أطرف من نغم معبد والغريض . وكان بالأندلس سر الإحسان وفردا في الزمان، إلا أنه لم يطل زمانه، ولا امتد أوانه ، واعتبط عندما به اغتبط؛ " (١)

ولاتكاد المصادر الأندلسية الأخرى التي ترجمت له (مثل قلائد العقيان والمغرب والبغية والروض المعطار) تضيف شيئا ذا بال، والمتفق عله أنه توفي سنة ٥٢٥ مما يرجع معه أنه ولد في ظل دولة المرابطين، وفي عهد فارق الحياة

(١) القسم الثاني من الذخيرة ، ص ٧٢٨ ، وراجع عنه أيضا :

العماد الأصفهاني : خريدة القصر (ط. تونس)

ابن فضل العمري : مسالك الابصار . مصورة منها ص ٢٦٧ من السفر السابع عشر

وليس هناك - من بعد - الا حفة من المعلومات عن الشاعر تستمد بصورة
أساسية من ديوانه ، ويلاحظ أن أدبنا لا يشير قط الى تطيلة ، فى حين أنه
كثيرا ما يذكر اشبيلية، التى نشأ بها على نحو ما يقرر الصفدى لكنه يبدو بها
ملولا أحيانا:

مللت حمص وملتنى فلو نطقت
: كما نطقت تلاحينا على قدر
ويقول فى هائيته "عتاب على الدنيا وقل عتاب" :
وقائلة ما بال حمص نبت به
ورب سؤال ليس عنه جواب
نبت بى فكنت العرف فى غير أهله
يعود على أهليه وهو تباب
فبالله ما استوطنتها قانعا بها .
ولكننى سيف حواه قراب
أىغضب حسادى قيامى إلى العلا
وقد قعدوا لما ظفرت وخابوا

بل أن ديوانه يستهل بقصيدة "بحرض فيها أهل اشبيلية
على رجل عسوف" - ؟ - :

الى الله أشكو الذى نحن فيه
أسى لا ينهنه منه الأسى
على مثلها فلتشق القلوب
مكان الجيوب والا فلا

فشا الظلم واغتر أشياعه
ولا مستغاث ولا مشتكى
"وماذا بجمع من المضحكات
ولكنه ضحك كالبكاء"

والتطيلي كثيراً مايتشكى الفقر:
الحمد لله وشكرا له
لا طارف عندي ولا تالد
صرت ولا أنبيك عن غائب
فى حالة يرثى لها الحاسد
حولى أقراخ كزغب القطا
ليلى من هم بهم ساهد

ووسط هذا الجو القاتم من الشكوى والتبرم تنداح مدائح التطيلي لتشغل
معظم الديوان وبعض منها قيل فى على بن يوسف بن تاشفين، ثانى ملوك
المرابطين ، وكان وقتها وليا للعهد :

جنابك للعلا حصن حصين
وذكرك للمنى دنيا ودين
وأدنى غايتيك لها أمان
وكلتا راحتك بها يمين
أهاب بك الزمان إمام عدل
فلبته بك الحرب الزبون

حساما ما انتضاه الدهر الا

ليعلم من يقى ممن يخون

وآخر أبياتها:

ولى العهد لى بهواك عهد

كأن مدائحى منه يمين

سددت مقارقى وأشدت باسمى

فذل الصعب وانقاد الحرون

وخيل لى الغنى فنطقت عنه

لعلمى أنه مما يكون

وقد بويح على بن تاشفين أميرا للمسلمين سنة ٥٠٠ هـ ، مما يقطع بأن

قصيدتنا هذه قيلت قبل هذا التاريخ .

وللتطيل مدائح كثيرة فى عدد من قواد المرابطين ووزرائهم ورجالاتهم

فمن ذلك ماقاله فى الأمير سير بن أبى بكر اللمتوني (ابن عم يوسف بن

تاشفين) الذى يعود له الفضل فى الاستيلاء على أهم ممالك "الطوائف" :

أقل ماتهب الأعمار والدول

ودون ماتتعاطى القول والعمل

ومن أبياتها :

ياأيها الملك الميمون طائره

يابدر يابحر ياضرغام يارجل

أتاركى لصروف الدهر تلعب بى

وقد حدانى اليك الحب والأمل

كما مدح القائد ابا الحسين بن الربيع بقصيدة طويلة فى ثمانية وسبعين
بيتا أولها:

تلاق فلاتا وأخلف فلاتا
كفانا منى وكفانا امتنانا
وطاول بعمرك عمر السهى
فأبل زمانا وجدد زمانا

ومن أبيات المديح فيها:
ركبت الملوك وأركبتها
تكف الجماح وتكفى الحرانا
وأشبهت آباءك الأولين
عرضا عزيزا ومالا مهانا
ولعل الجديد فى مدائح التطيلي أن بعضا منها قيل فى الأميرة حواء
زوجة ابن سير ، مثل قصيدته :

ياربع ناجية التى انهلت بها السحب
أما ترى كيف ثابت دونك النوب

ولقطع المديح تمهيد جميل يقول فيه :
هبت تعاتبنى زهر وقد علمت
أن العتاب شجى فى القلب أو شجب
قالت : قعدت وقام الناس كلهم
ألا يعلك الإثراء والرتب

فقلت كفى فما تغنى مقارعتى
فى أمة ضاع فى أثنائها الأدب
فاستضحكت ثم قالت: أنت فى سعة
من أن تسيم، وهذا الماء والعشب
أما رأيت ندى حواء كيف دنا
بالغيث اذ كاد يأتى دونه العطب
مليكة لا يوازى قدرها ملك
كالشمس تصغر عن مقدارها الشهب

وفى ديوان التطيلي بعض قصائد فى الرثاء وغيره إلا أن براعته إنما
تتمثل بصورة أساسية فى المديح وفى شعر الغزل ، وهناك ما يدل على أنه تعلق
بقينة تدعى "الذيدة" وله فيها قصائد أوردها صاحب "الذخيرة" فمن ذلك قوله:
النوم بعدكم على محرم
من ذا ينام وقلبه يتضرم

ومن أبيات هذه القصيدة (مما لا يوجد فى ديوانه) :

ماء الحياة وقد نأيتم آسن
رنق ووجه الدهر جهم مظلم
قد بان عنى الصبر لما بنتم
والوجد ينجد فى الفؤاد ويتهم
ما كان أكتمنى لسرى قبل أن
تكف الدموع كأنما هى عندم

فإذا عهدت جماعة واعتادنى
تذكاركم فاضت دموعى تسجم
أعتبتكم فعتبتكم وأطعتكم
فعضيتكم ووصلتكم فهجرتكم (١)
قد كان لى فى هجركم لو أننى
أقوى عليه من السلامة سلم
ولقد علمتم أننى قد رمته
فضعفت عنه فافعلوا ماشئتم
أنتم مناى وفيتم أو خنتم
ولكم هواى دنوتم أو بنتم

وهو شعر غاية فى السلاسة ، يتفجر من قلب مترع بالشعور ، ومن قلب
أوتى الفضاحة والقدرة على تجسيم المعانى ورسم الصور الحية المتألقة المتدفقة
بالفن والجمال ..

هذه لمحة عن الأعمى التطيلى الذى عد من اعظم شعراء عصر المرابطين،
أى ذلك العصر الذى هيمن فيه البربر على مقاليد الأمور فى المغرب والأندلس ،
واهتزت فيه مكانة الشعراء تبعاً لذلك فى حين تصدر الفقهاء - من أصحاب
مالك - مما دفع بشاعرنا لأن يصرخ :

أيا رحمة للشعر أقوت ربوعه
على أنها للمكرمات مناسك

(١) البيت فى الذخيرة ، القسم الثانى ص ٧٣٩ : على هذا النحو :

أعتبتكم فعتبتكم وأطعتكم
فعضيتكم ووصلتكم فهجرتكم

وللشعراء اليوم ثلت عروشهم
فلا الفخر مختال ولا العز تامك (١)
فيا دولة الضيم اجملني أو تجاملني
فقد أصبحت تلك العرى والعرائك
ويا " قام زيد " أعرضني أو تعارضني
فقد حال من دون المنى قال مالك !

ومع ذلك فقد عاش شعر التطيلي وتغنى به العارفون بفضلته في الشرق
والغرب ، وألفت عنه الكتب والرسائل (٢) وأما الموشحات فإنه بلغ فيها الغاية،
ولهذا حديث في غير هذا المكان ..

(١) تامك : مرتفع .

(٢) راجع عنه :

عبد الحميد عبدالله الهرامة: الأعمى التطيلي ، طرابلس (ليبيا) ١٩٨٣
ومقدمة ديوانه بتحقيق د. احسان عباس ، بيروت ١٩٦٣

ابن مجبر المرسى

هذه وقفة أمام شاعر ينتمى إلى عصر الموحدين ، بل هو "شاعر عصره" كما يشير إلى ذلك كثير من المؤرخين ، ومع ذلك فإن اسمه غاب فى زحام الأحداث ، فلم يعد القارئ يصادفه ولو عرضا فى المؤلفات العامة عن تاريخ الأدب الأندلسى ، بل لم يعد يقابله إلا نادرا فى الدراسات التى عقدت حول الحياة الأدبية فى عصر الموحدين .

ومحاولتنا هذه تهدف إلى إلقاء بعض الضوء على حياة وأعمال هذا الشاعر المبدع، وقد عرضنا له فى كتاب مستقل تناول عصره ، من زواياه المختلفة، وحياته، مع جمع لما بقى فى المصادر من عيون شعره، وهناك أيضاً زاوية هامة نلمع إليها فى إيجاز ، وهى أنه كان كذلك صاحب اسهام فى مجال التوشيح (ومن عجب أن كافة المراجع الحديثة لا تذكر شيئا البتة حول هذه النقطة) .

أما شاعرنا فهو بحسب تعبير الذهبى فى "سير أعلام النبلاء": "شاعر زمانه الأوحى ، البليغ أبو بكر يحيى بن عبد الجليل بن مجبر ، الفهرى المرسى ، ثم الاشبيلي : مدح الملوك، وشهد له بقوة عارضته ، وسلامة طبعه ، وفحولة نظمه قصائده التى سارت مثالا ، وبعدت مثالا" (١).

(١) ج ٢١ ترجمة ١.٥ وانظر التكملة لكتاب الصلة والقوات ووفيات الأعيان (فى ثنابا ترجمة الخليفة المنصور) وبغية المتمس للضبي الخ ...

وقال عنه ابن الأبار :

" كان فى وقته شاعر الأندلس ، بل شاعر المغرب غير مدافع "

ووصفه ابن شاعر فى الترجمة التى عقدها له فى "الفوات" بأنه "شاعر الأندلس فى وقته " .

أما ابن خلكان فقد عرض له فى ثنايا الترجمة ليعقوب بن عبد المؤمن قائلا : "وكان من شعراء دولته أبو بكر يحيى بن عبد الجليل بن عبد الرحمن بن مجبر الأندلسى المرسى. ولقد نظرت فى ديوانه فوجدت أكثر مدائحه فى الأمير يعقوب"

وهناك إشارة أخرى للديوان تأتى فى "بغية الملتبس للضبى ؛أديب شاعر متقدم فى طريقة الشعر ، برع فيها وفاق أهل زمانه...ولقد رأيت شعره مجموعا فى سفرين ضخمين" .

وقد عرفنا من قبل أن شاعرنا مرسى اشبيلى، ونضيف إلى ذلك قول الحميرى فى ثنايا ذكره لمدينة شقورة، من أعمال جيان بالأندلس:

"ومن شقورة أبو بكر بن مجبر ، الشاعر المفلح المجيد ، شاعر دولة عبد المؤمن".

كذلك فإن أبا بحر صفوان يذكر شاعرنا تحت اسم "أبو بكر بن مجبر من بلش" وبذا فإنه ينسب إلى أكثر من مدينة أندلسية، لكن نسبته إلى مرسية أقوى مما عداها.

وبقيت إشارة إلى تاريخ وفاته ، وفى ذلك لاتختلف المصادر كثيراً وقد أورد الذهبى أنه "مات بمراكش ليلة النحر سنة ثمان وثمانين وخمس مائة، كهلا، وقيل سنة سبع" وقد اتفقت المظان الأخرى على التاريخ الأول (سنة ٥٨٨)

ورأينا ابن خلكان ينص على التاريخ الثانى (٥٨٧) وهناك اتفاق على أنه
توفى بمراكش وهو ابن ثلاث وخمسين سنة ، وبذا يتحدد تاريخ مولده بسنة
٥٣٥ هـ.

ولم يرد فيما فحصنا من أعمال أى إشارة لمؤلفات لابن مجبر عدا ديوانه
الذى عرفنا أنه كان ضخما ، فى سفرين ، وهذا الديوان ضائع الآن ، ولانملك من
شعره إلا ماورد فى ثنايا ترجمته هنا وهناك ، واحتفظت مجموعة "زاد المسافر"
بأوفر قدر من شعر ابن مجبر (قراءة ست صفحات) وفى "الروض المعطار" عدد لا
بأس به من الأبيات .

وعلى الرغم من ضالة الفسر الذى وصل إلينا من شعر هذا الشاعر الكبير
فإن فيه مايكشف عن سماته العامة من حيث مادة هذه القصائد وقيمتها الفنية.

ومن البديهي أنه - وقد كان شاعر البيت الموحدى - سيئون شاعر مديح
فى المقام الزول ، وسيأتى شعره حافلا بأنباء الانتصارات ومنازلة الأعداء وقهر
المدن فى الأندلس وفى المغرب ، خاصة على زمن عقب بن يوسف ابن عبد
المؤمن الذى شهدت أيامه عشرات المعارك الضارية ، فمن ذلك قصيدته:

أسائلكم لمن جيش لهام

طلاتعه الملائكة الكرام

وقد ذكر الحميرى أطرافا منها عند الحديث عن "حمة مطماطة" ثم عاد إليها
عند الحديث عن "عمرة" وهى فحص بأحواز قفصة هزمت عنده جيوش يعقوب
بن عبد المؤمن ، ووقع فريق من كبار قواده فى الأسر ولجأ من جرح منهم إلى
قفصة طمعا فى أن يجدوا الملاذ عند ابن غانية ولكنه نكل بهم ، ووصلت أنباء
الهزيمة إلى تونس فاستشاط يعقوب بن عبد المؤمن غضبا ، وخرج بجيوشه للملاقاة
جيوش ميورقة والأغزاز الذين أوقعوا برجاله الهزيمة عند "عمرة" ، وكان له النصر

على أعدائه عند حمة مطماطة - على مقربة من قابس، وعلى أثر هذا الانتصار
قال ابن مجبر قصيدته تلك التي أوردنا مطلعها، والتي يقول فيها:

تجاذب خيله اليمن اغتباطا
بعصمته ويخطبه الشآم
ويعطو المسجد الأقصى إليه
ويشرف نحوه البيت الحرام

ومنها:

مضى متقلدا سيفى مضاء
هما الإلهام والجيش اللهام
فسل ماحل بالأعداء منه
وكيف استئصل الداء العقام
لقد برزت إلى هول المنايا
وجوه كان يحجبها اللثام
وما أغنت قسى الغز عنها
فليست تدفع القدر السهام
كأن الحرب كانت ذات عقل
صحيح لم يحل به سقام
فأفنت كل من دمه حلال
وأبقت كل من دمه حرام

ولابن مجبر قصيدة أخرى بائية ترتبط ارتباطا وثيقا بوقائع استيلاء
الموحدين على قفصة، والصراع بين العرب وابن عبد المؤمن وعلى بن غانية،

وكان يوسف بن عبد المؤمن قد استولى عليها بعد حصار عنيف فى سنة خمس وسبعين وخمسمائة، وفى عهد يعقوب بن عبدالمؤمن نجح ابن غانية فى الاستيلاء على بجاية ومليانة ومازونة كما استولى على القلعة وتوزر وقفصة، وقوى مركز ابن غانية بعد هزيمة جيوش الموحدين فى وقعة عمرة إلا أن خروج يعقوب بن عبد المؤمن على رأس جيشه وانتصاره فى موقعة حمة مطماطة وضع حدا لأطماع ابن غانية، وحوصرت قفصة حصارا عنيفا وضربت بأحجار المنجنيق، واستسلمت بعد مجازر وحرائق وطول تخريب ، وفى هذا يقول ابن مجبر :

ماغر قفصة إلا أنها اجترمت

فلم يكن عند أهل الحلم تثريب

مايالها زار أمر الله حوزتها

فلم يكن عندها أهل وترحيب

وتغنى ابن مجبر باسترداد يعقوب بن عبدالمؤمن لمدينة شلب، وكان ملك البرتغال ابن الرنق (سانشو بن هنريكس) قد حاصر المدينة وخاف أهلها من الهزيمة فسلموها له بكل ما فيها ، وثار يعقوب بن عبدالمؤمن حين وصلت إليه أنباء هذا الاستسلام وخرج من مراكش . سنة خمس وثمانين وخمسمائة فسار إلى رباط الفتح وبقى هناك إلى أن اجتمعت جيوشه ، واتجه - بحرا - من قصر مصمودة حتى وصل إلى جزيرة طريف ، وفى قرطبة عقدت له الرايات بمسجدها الجامع ، وفى ذلك أنشد ابن مجبر :

بشراي هذا لواء قل ماعقدا

الا ومد له الروح الأمين يدا

وأقبل النصر لا يعدو مناحيه

فحيثما قصدت راياته قصدا

واستقبلته تباشير الفتوح وقد

كادت تكون على أكتافه ليدا

وكان هذا حقا بشيراً بالفتح فإن جيوش الموحدبن أحاطت بالمدينة وشدت
عليها الحصار ونصبت المجانيق واشتدت وطأة القتال حتي طلب الفرنجة الأمان
على أن يسلموا المدينة للمسلمين ، وتم استرداد شلب سنة سبع وثمانين
 وخمسمائة ، وأنشد ابن مجبر في هذه المناسبة قصيدة يقول فيها :

دعا الشوق قلبي والركائب والركبا

فلبوا جميعا وهو أول من لبي

وظلنا نشاوي للذي بقلوبنا

نخال الهوى كأسا ويحسبنا شربا

إذا القضب هزتها الرياح تذكروا

قدود الحسان البيض فاعتنقوا القضا

وهناك نصوص أخرى مدحية في الخليفة يعقوب أو في بعض أبناء البيت
الموحدي، مما لا يرتبط بأحداث كبرى، مثل التهنئة بإبلال من مرض أو نحوه ،
ولكن لا ينبغي أن يفهم من هذا أن شاعرنا توارت ذاته في خضم متابعة الوقائع
وإزجاء أبيات المديح ، بل إننا نحس في مواضع كثيرة من شعر المديح نفسه
بهذا الملمح الذاتي ينثال شفيفا متوهجا كما في قوله :

أتراه يترك العذلا

وعليه شب واكتهلا

كلف بالغيد ما علقت

نفسه السلوان مذ عقلا

غير راض عن سجية من
ذاق طعم الحب ثم سلا
نظرت عيني لشقوتها
نظرات وافقت أجلا
غادة لما مثلت لها
تركنتى فى الهوى مثلا
وهى قصيدة جميلة احتفظ ابن خلكان باثنين وثلاثين بيتا منها ، وأورد
بعض أبياتها الذهبى فى سير أعلام النبلاء وصفوان فى زاد المسافر وابن شاعر
فى الفوات الخ...فهى - على هذا - أشهر قصائد ابن مجبر ، ويمضى مقطعها
الغزلي على هذا المنوال الراقص المفعم بالبساطة وقوة التأثير .
ومن أجمل قصائده قوله :
سأستجدى صغيرا من كبير
وأرغب فى حصاة من ثبير
وفىها حديث عن فاقته ووحدته وغربته ، ووصف جواده الذى أضناه
الهزال من شدة الجوع وطول التسيار فى البلاد :
ووجه العذر فى الأسفار باد
فلا أحتاج فيه إلى سفور
رأيت الحبة البيضاء عزت
فكيف يسير بي طاوى المصير
متى أصفى إلى تصهال طرف
يجبه بالعويل وبالزفير

وأورده المناهل وهي زرق
فبصدر بى عن الماء النعير
وإن أصفر ليشرب قال مهلا
أصفر الجوف يشرب بالصفير؟
أحس بوسق أبعرة رأها
فأقبل يرتعى بحر البعير
ورام يسير من طرب إليها
فقيده الهزال عن المسير

وفيما يبدو أن ابن مجبر كان مقتونا بوصف الخيل، وفي نفح الطيب اثنا
عشر بيتا يصور فيها خيل الخليفة الموحدي بألوانها المختلفة وانطلاقاتها العاصفة
وصورها المتألقة :

ترى كل طرف كالغزال فتمترى
أظبيا ترى تحت العجاجة أم طرفا
وقد كان في البيداء يألف سربه
فريته مهرا وهي تحسبه خشفا
تناوله لفظ الجواد لأنه
إذا ما أردت الجرى أعطاكه ضعفا

ومن المقطوعات الجميلة التي تصور فاقته :
وقائلة تقول وقد رأتني
أقاسى الجذب فى المرعى الخصب

أما عطف الفقيه وأنت تشكو
له شكوى العليل إلى الطبيب؟
وقد مر الثناء بمعطفيه
كما مر النسيم على القضيبي
فقلت : على شكر وامتداح
وليس على قلب القلوب
ولا بن مجبر مقاطع في الحكمة ، يجسم فيها المعنى من خلال صور
واقعية بسيطة معبرة مثل قوله :
ليت الشباب الذي ولت غضارته
أعطاني الحلم فيما كان أعطاني
فلم تكن منة للشيب أحملها
ولم يكن من سروري بعض أحزاني
وقد عده المقرئ مما ينبغي أن يفاخر به أهل المغرب أهل المشرق، وذكر
فنونا من ارتجالاته ودريته في الوصف خاصة وصفه لمقصورة المسجد الجامع
بمراكش ، وكانت مشيدة وفقا لتصميم هندسي بارع بحيث تضم الخليفة ووزراءه
عند الصلاة، حتى إذا ما انصرفوا اختفت المقصورة .
والحق أن أوجه البراعة أرحب من أن تحصى عند ابن مجبر، وانظر إلى
قوله من قصيدة في مدح يوسف بن عبد المؤمن :
إن خير الفتوح ما جاء عفوا
مثل ما يخطب الخطيب ارتجالا

تجد الشطرة الثانية تنفث فى المعنى حيوية لا تباري من خلال الإشارة
إلى أمر عادى كثيراً مايقع فى الحياة اليومية ، ومثل قوله فى ضرورة اللين
عند معاتبه الصديق:

وعاتبه لكن رويدا كما

تعض على الطفل عند اللعب

واللغة عنده تذوب رقة عندما يعرض لمواقف الغزل وتنداح حينئذ
الموسيقى والصور المتألقة ، على نحو ما فى قوله :

وزائرة والليل ملق رواقه

ومن أين للظلماء أن تكتم القمر ؟

حدرت نقاب الصون عن صفح خدها

فياحسن ما انشق الكمام عن الزهر

ولم يأت التساؤل فى الشطرة الثانية عبثا ، وكذلك صيغة التعجب فى
البيت الأول، وانظر كذلك إلى أسلوب الاحتجاج فى مثل قوله مشيرا إلى مصرع
عدد من رجالات الدولة بمن طواهم البحر:

إن الحمام الذى فى البحر غالهم

قد غال عثمان ذا النورين فى الدار

وبذا ينجح فى أن يعبر عن عشرات الأفكار التى تدور حول مصير
الانسان وحول القضاء والقدر والحياة والموت ، ينجح فى التعبير عن كل هذا من
خلال الصياغة الشعرية التى تعتصر المعانى وتخزن التجارب لتصبها فى سلاسة
وعفوية خلال البيت الذى يتحدث عن مسألة من المسائل ولكن معناه ينفلت من
إسار الجزئية الواحدة ليعبر عن الموقف الانسانى ، متجاوزا اسوار الزمان والمكان
والأحداث .

أبو بكر بن زهر (الحفيد)

بما لا شك فيه أن اسم "ابن زهر" من المفاخر التي ظل التراث الأندلسي يباهى بها زمناً (١) ، فقد اقترن هذا الاسم بالعلم والأدب وسار جيلاً بعد جيل، يحوطه التقدير والمهابة.

ورأس هذه الأسرة الفقيه محمد بن مروان بن زهر (ت ٤٢٢ هـ) ، الذي سطع نجمه في إشبيلية مع بداية ظهور دولة بني عباد، إذ كان بحسب تعبير ابن بسام "أول من تشنى عليه الخناصر، وتشير إليه القلوب والنواثر، وتفتقر إلي مآلديه الأبواب والبصائر"، فكان أن لقي من حسد بني عباد وسوء ظنهم فيه ما اضطره للهجرة إلى شرقى الأندلس "وأقام بها بقية عمره، بين جاهه ووفره ، وفى حصن حصين من سلامة سره وجهره" (٢).

ثم كان ما كان من أمر ابنه أبى مروان عبد الملك بن محمد "فما بلغ أشده حتى سد مسده، بل ما خلع ثمائه حتى استوفى مكارمه، وورث مبادئه وخواتمه، ومال إلى التفنن فى أنواع التعاليم من الطب وغيره من العلوم ، فجمع شعاعها، واستوفى أجناسها وأنواعها ..".

(١) فى رسالة الشقندى فى المفاخرة بالأندلس (وترد فى نفع الطبيب ج ٣ ص ١٩٣) يقول مخاطباً أهل المشرق "وهل لكم فى الطب مثل ابن طفيل صاحب رسالة حى بن يقظان المقدم فى علم الفلسفة ومثل بنى زهر أبى العلاء ثم ابنه عبد الملك ثم ابنه أبى بكر ثلاثة على نسق؟".

(٢) انظر عنه: الذخيرة ، ص ٢١٩ من القسم الثانى ، والمطرب ص ٢٩٣ ، والوافى ج ٥ ص ١٦ وبقية الملتبس ص ١٢. والصلة ص ٤٨٧ .

ولأبى مروان هذا رحلة مشهورة للمشرق و "تولى رئاسة الطب ببغداد ثم بمصر ثم بالقيروان" على حد تعبير ابن دحية ^(١) وناهيك بذلك مكانة وعلو شأن وذيوع شهرة .

ثم نأتى للجيل الثالث من هذه الأسرة النبيلة، وهو الوزير أبو العلاء زهر ابن عبد الملك. يقول عنه ابن بسام: "وهو وإن كان فى وقتنا البحر الذى لم يبلغ بالتحصيل، والصبح الذى لا يفتقر معه إلى دليل، فإنى أجريت ذكره فى نفس هذا الديوان نفسا، واجتلبت قطعة من شعره أقمتهما للأدب عرسا" ^(٢) ويقول ابن دحية انه كان "وزير ذلك الدهر وعظيمه، وفيلسوف ذلك العصر وحكيمه" .

وكتب التاريخ والأدب حافلة بما يكشف عن أخلاق أبى العلاء بن زهر، وعلو باعه فى ميادين العلم والأدب فى الذخيرة أن المعتمد بن عباد، بعد أن دالت دولته ووقع فى الأسر بأغصات ، لجأ لأبى العلاء بن زهر ليعالج بعض كرماته من علة أصابتها، وكان إذ ذاك فى المغرب فـ "سارع إلى تأتى مطلوبه ، ولم يلتفت إلى ما كان سلف بين سلفيهما من معانٍ ، قضتها صروف الزمان، واقتضتها حماية السلطان، فلاطف علاجها ، ورفع قدر المعتمد بالتبجيل ، ودعا له بالبقاء الطويل" وكانت بين الرجلين، على اثر ذلك، مراسلات شعرية غاية فى البراعة .

ثم نصل إلى أبى مروان: عبد الملك بن زهر (المتوفى سنة ٥٥٧)، صاحب كتاب "التيسير فى الطب" ، والذى يذكر أحيانا تحت عنوان: التيسير فى المداواة والتدبير، وقد شرقت شهرته وغربت ، حتى أنه "أثر أثرا بليغا فى الطب

(١) له ذكر فى العديد من المصادر مثل الذخيرة ، السابق، والذيل والتكملة ج ٥ ص ٣٧ وعيون الأنبياء فى طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ص ٦٤ .

(٢) الذخيرة ، السابق وانظر المطرب ص ٢٠٣ .

الأوربي ، وظل هذا التأثير إلى نهاية القرن السابع عشر الميلادي ، وذلك بفضل ترجمة كتبه إلى العبرية واللاتينية " ^(١) واشتهر اسمه عندهم Avenzoar على نحو يكاد يدانى شهرة ابن سينا وابن رشد .

وقد نوه جونثال بالثيا طويلا بفضلته، واعتبره سباقا في مجال الفصل بين الجراحة والصيدلة والطب الباطني، واعتبر كتابه "التيسير" - الذي أهده لابن رشد - "خير ما ألف العرب في الطب العربي ، فقد تحرر فيه من كل ما كان يقيد غيره من آراء نظرية، وهو يأخذ بما تؤدي إليه الملاحظة المباشرة".

هذه خطوط سريعة عن هذه الأسرة النبيلة التي اجتمعت فيها عبقرية العلم وعبقرية الأدب والفضل والنباهة جيلا بعد جيل .

ابن زهر (الحفيد) :

وهكذا نصل الى محمد بن عبدالمملك بن زهر، الملقب بالحفيد (ربما على اعتبار أن أباه كان وزيرا ، وكان جده وزيرا أيضا ، وإلا فإن أبا العلاء بن زهر أحق بلقب الحفيد من أبي بكر هذا ...)

وأبو بكر بن زهر (٥٧٠-٥٩٦) يعد ولا ريب أحد جهابذة القرن السادس في ميادين شتى من أدب ولغة وعلم وسجايا. يقول عنه تلميذه ابن دحية: "وكان شيخنا الوزير أبو بكر - رحمه الله - بمكان من اللغة مكين ، ومورد من الطلب عذب معين . كان يحفظ شعر ذي الرمة، وهو ثلث لغة

(١) راجع مادة ابن زهر في دائرة المعارف الإسلامية وهناك دراسة جامعة عنه وعن أسرته (بالفرنسية) كتبها جورج كولان. ومن مراجعه : طبقات الأطباء ج٢ ص ٦٦، والتكملة ص ٦١٦ والمغرب ج١ ص ٢٧ الخ ..

العرب، مع الإشراف على جميع أقوال أهل الطب ، والمنزلة العليا عند اصحاب المغرب (يقصد الموحدين) مع سمو النسب وكثرة الاموال والنشب "، ويقول عنه ابن الأبار فى "التكملة" إنه :

"انفرد بالإمامة فى علم الطب فى وقته، مع الحظ الوافر من الاداب واللغة والحفظ لأشعار الجاهلية والمولدين، وحدث بالمقامات عن أبيه عن الحريرى، وإليه كانت رئاسة بلده ، وكان لا يعدله أحد من رجالات الأندلس فى الخطوة عند الأمراء ورفع المكانة، سمحا جوادا نفاعا بجاهه وبماله، وما أكثر ما أثنى مؤرخوه على تدينه وحفظه للقرآن الكريم ولصحيح البخاري بأسانيده ومتونه، كما أثنوا على ثقافته الأدبية. وقد مر بنا أنه كان يحفظ شعر ذى الرمة كله

ولا جدل فى أن ملكة الحفظ كانت عنده قوية للغاية ، ففى خبر آخر تأتي إشارة إلى أنه كان يحفظ شعر المتنبى بتمامه !

ولم يحل تدينه أو مكانته الاجتماعية الشامخة دون خوضه فى فنون الشعر من غزل وخمريات ونحو ذلك، وقد ضاع شعر أبى بكر بن زهر ألا قليلا، فمن ذلك ما جاء فى "زاد المسافر" :

وموسدين على الكف خدودهم

قد غالهم شرب الصبوح وغالنى

مازلت أسقيهم وأشرب فضلهم

حتى سكرت ونالهم مانالنى

والخمر تعلم كيف تأخذ ثارها

إنى أملت إناها فأماى

وأبضا قوله ، من "زاد المسافر" :

مغنى خصيب وباب مرتج أبدا

والدف والزق والابريق والطاس

هذى الخلاعة لا شئ سمعت به

فاستغنم اللهو إن العمر أنفاس

ولى حبيب مليح الدل ذو غنج

حلو الشمائل ماقى لثمه باس

فإن تعذر أو عزت مطالبه

فالكاس والكيس : وسواس وخناس !

ولكن لابن زهر شعرا فى الاعتبار بالأيام ، ولعل ذلك من نتاج

الشيخوخة - وقد عمر ابن زهر طويلا - فمن ذلك قوله

الموت جزار بلا مديّة

لا أسد يبقى ولا ينقله

ولا شريفا من بنى هاشم

ولا ضيعا من بنى قندلة

ويقول :

لاح المشيب على رأسى فقلت له

الشب والعيب لا والله مااجتمعا

باساقى الكأس لا تعدل إلى بها

فقد هجرت الحميا والحميم معا

وقد يتجسم الموقف عنده فى شكل "مشهد" يذكر من بعض الوجوه
بشعر يحيى الغزال، وقد أورد له صاحب وفيات الأعيان هذا النص:
إنى نظرت الى المرأة إذ جلّيت
فأنكرت مقلّتاى كل مارأتا
رأيت فيها شبيخا لست أعرفه
وكنّت أعهدّه من قبل ذاك فتى
فقلت أين الذى بالأمس كان هنا
متى ترحل عن هذا المكان، متى؟
فاستضحكت ثم قالت وهى معجبة.
ان الذى أنكرته مقلّتاك أتى
كانت سليمى تنادى ياأخى وقد
صارّت سليمى تنادى اليوم ياأبتا

ولابن زهر براعة فى الموشحات بخاصة، وفى ذلك يقول صاحب "المطرب":
والذى انفرد شيخنا به وانقادت لتخيله طباعه، وأصارت النبهاء خوله وأتباعه:
الموشحات، وهى زبدة الشعر وخلاصة جوهره وصفوته، وهى من الفنون التى
أغرّبت بها أهل المغرب على أهل المشرق وظهروا فيها كالشمس الطالعة والضياء
المشرق : على أن للموشحات حديثا آخر، يطول فيه اللقاء مع ابن زهر ...

الموشحات الأندلسية

لعل الموشحات أهم الأشكال التي تفتقت عنها القريحة العربية ،
ففي سعيها الحثيث نحو الابتكار والتجديد فقد ظهرت قبلها وواكبها ألوان
أخرى متنوعة ، بالفصحى وبالعامية ، مثل المسمطات والدوبيت ... الخ ،
ولكن كثيراً منها انطوت صفحته منذ أمد بعيد ، أو عاش مغمور الشأن
ضئيل الأثر ، أما الموشحات فإنها ازدادت مع الأيام رونقاً ، وشمل تأثيرها
العالم العربي كله ، بل والأكثر من هذا أنها تعدت نطاق العالم العربي ،
وظهرت على غرارها موشحات بالعبرية ، فضلاً عن أن جمهرة من علماء
الغرب تذهب إلى أن الموشحات (والأزجال) تمثل الركيزة التي بنيت
على أساسها أغاني التروبادور ، إلى غير ذلك من قضايا تتجاوز نطاق هذه
الكلمة .

والموشحات — في واقع الأمر — فن أندلسي خالص ، بمعنى أنه لم
يعرف في صورته الناضجة المكتملة إلا على أرض الأندلس ، وليس في
هذا الرأي ما يتعارض والقول بأن هناك أعمالاً ظهرت بالشرق ، يعدونها
بمشابة الإرهاص أو التمهيد لظهور هذا اللون الجديد ، الذي بزغت شمس في
أخريات القرن الثالث الهجري ، على يد شعراء مثل محمد بن محمود (أو
حمود) القبيري ، ومثل مقدم بن معافي ، الذي ينتسب بدوره إلى قبيلة
إحدى القرى الواقعة قرب قرطبة .

ويضم كتاب « الذخيرة » لابن بسام أقدم إشارة وصلت إلينا عن
طور نشأة هذا الفن :

« وأول من صنع هذه الموشحات بأفقتنا واخترع طريقها — فيما
بلغني — محمد بن محمود القبيري الضرير ، وكان يصنعها على أشطار من
الأشعار ، غير أن أكثرها على الأعاريف المهملة غير المستعملة ، يأخذ اللفظ
العامي أو العجمي ويسميه المركز ، ويضع عليه الموشحة دون تضمين فيها
ولا أغصان » .

وهذه الفقرة خاصة بالمصطلحات غير محددة الدلالة ، وفيها إشارة عابرة إلى أوزان الموشحات الأولى وما كانت عليه من ارتكاز على مقطع عامي - شعبي ؟ أو اعجمي (بالرومانث ، لغة الألبان الأصليين) ، وبها تلميح إلى شكل لا «تضمن» فيه ولا : «أغصان ، الصورة كلها تتسم بالغموض ، ومع ذلك فإنها تترك في النفس انطباعاً ما بأن شكل الموشحة القديم كان شديد البساطة ، ليس فيه هذا الإكثار من الأجزاء في الأقفال والأبنيات ، الذي يلحظ في كثير من النصوص التي ألفت في فترات لاحقة ، ومعنى آخر إن صورة الموشحات في مرحلة تكوينها كانت أقرب إلى طبيعة الأغنية الشعبية من حيث بنائها على «الأعاريف المهيمة غير المستعملة» ، وارتكازها على «اللفظ العامي أو العجمي» ، ولا خلاف على أن المقصود بكلمة «اللفظ» هنا ذلك المقطع الختامي ، الذي تصل فيه الموشحة إلى ذروة توجهها ، وهو ما أطلقت عليه تسمية الخرجة .

ويتلاقى هذا الفهم مع قول ابن سناء الملك :

«والخرجة هي أبنار الموشح وملحه ، وسكره ومسكه وعنبره ، وهي العاقبة وينبغي أن تكون حميدة ، والختامة بل السابقة وإن كانت الأخيرة ، لأنها التي ينبغي أن يسبق الخاطر إليها ، ويعملها من ينظم الموشح في الأول ، وقبل أن يتقيد بوزن أو قافية» .

ثم يجيء فريق من الشعراء يجددون في هيكل الموشحة ، منهم يوسف بن هارون الرمادي ، الذي يذكر ابن بسام أنه «أول من أكثر فيها من التضمن في المراكز» ، ومنهم عبادة بن ماء السماء الذي «أحدث التضمير» - ؟ - «ذلك أنه اعتمد مواضع الوقف في الأغصان فيضمها كما اعتمد الرمادي مواضع الوقف في المركز» .

وتكون النقلة التالية إلى عبارة شهيرة لابن خلدون تقول :

«وأما أهل الأندلس ، فلما كثر الشعر في قطرهم ، وتهدبت مناحيه وفنونه وبلغ التجميل فيه الغاية ، استحدث المتأخرون منهم فناً سموه بالموشح ، ينظمونه أسماطاً أسماطاً وأغصاناً أغصاناً ، يكثرون منها ومن أعاريفها المختلفة ، فيسمون المتعدد منها بئناً واحداً ، ويلتزمون عدد قوافي

تلك الأغصان وأوزانها، متتالية فيها بعد إلى آخر القطعة، وأكثر ما ينتهي عندهم إلى سبعة أبيات، ويشتمل كل بيت على أغصان، عددها بحسب الأغراض والمذاهب».

وعند هذا الحد تكون قد تجمعت بين يدي القارئ معظم الخيوط المتصلة بهيكل الموشحة ومصطلحاتها، ولكن ينبغي ملاحظة ما تتميز به الموشحات من مرونة، كذلك فإن المصطلحات التي تتردد (التصغير، التصغير، التضمين - هل تعني كلها معنى واحداً؟ - الأغصان، الأسماط) مجال لاختلاف وجهات النظر إلى حد بعيد، يضاف إلى هذا ما يظهر في حقب لاحقة من مصطلحات جديدة مثل «الدور» وقدر موفور من التعبيرات المستمدة من الاصطلاحات الموسيقية، بحكم الصلة الوثيقة بين الموشحات والغناء، ولا يبقى إلا الإشارة لاستقرار دلالات «القفل» و«الخرجة»، فقد أفلتا - أو كادا - من دوامة الجدل والخلاف.

ولا تثير مسألة الموضوعات التي تعالجها الموشحات كثير الجدل، وقد حسم ابن سناء الملك القضية عندما قال إنه «يعمل فيها ما يعمل في أنواع الشعر من الغزل والمدح والرثاء والهجو والمجون والزهد، وما كان فيها في الزهد يقال له المكفر» وساق ابن خلدون رأياً مشابهاً: «وينسبون فيها ويمدحون كما يفعل في القصائد» ولكن هذه الأقوال لا تبين طبيعة التطور الذي طرأ على الموضوعات، كما أنها لا تحدد مدى مناسبة هذه الموضوعات لطبيعة الموشحات.

والتصور الطبيعي أن الموشحات بدأت أول ما بدأت بمعالجة موضوعات الغزل والوصف والخين والخمریات، أي تلك الفنون شديدة الصلة بالموسيقى والغناء، ثم جاء طور لاحق أخذت تعالج فيه بقية الأغراض المألوفة في القصائد، كالمدح مثلاً (أما الرثاء والهجاء فإنها لم يشغلا إلا مكانة ثانوية)، ولا يأتي - في العادة - إلا مسبقاً بتمهيدات غزلية أو وصفية أو نحو ذلك.

أما الموشحات الزهدية والدينية فإنها تمثل طوراً تالياً تبرز فيه أسماء عديدة مثل أبي مدين وابن عربي والششتري وابن الصباغ...، وعلى أيدي

هؤلاء يعود للموشحة جانب من انتمائها للبيئة الشعبية وللغناء ، وتنداح هذه الموشحات في حلقات الذكر والمتدروشين ، منفلة في أحياء كثيرة من قواعد الفن وفصاحة اللغة ، مرتحلة في ركاب هذه المواكب الهائلة في فجاج الأرض .

ولربما كان من الضروري أن تعرج هذه الكلمة على أعلام التوشيح في الأندلس، وهنا ستكون لنا أكثر من وقفة:

وقفة أولى تتناول مرحلة النشأة، حيث تبرز ثلاثة أسماء:

محمد بن محمد القبري، ومقدم بن معافي، ثم ابن عبد ربه صاحب «العقد الفريد»، فالمصادر تؤكد أن هؤلاء هم الرواد الأوائل لهذا الفن الجديد، وإن كان الملحوظ أن ابن بسام يسوق اسم محمد بن محمود على اعتبار أنه «المخترع» الأول ثم يضيف:

«وقيل إن ابن عبد ربه صاحب كتاب العقد أول من سبق إلى هذا النوع من الموشحات عندنا» ومعنى آخر أن ابن بسام لا يذكر اسم مقدم بن معافي في هذا الصدد (بل أن اسم مقدم لا يرد على الإطلاق في جميع أجزاء الذخيرة)، بينما يجيء في «المقتطف من أزهار الطرف» لابن سعيد، ونقل عن الحجاري صاحب «المسهب»:

«أن المخترع لها — للموشحات — بجزيرة الأندلس مقدم بن معافي القبري، من شعراء الأمير عبد الله بن المرواني، وأخذ عنه ذلك أبو عمر بن عبد ربه صاحب كتاب العقد».

ويبقى بعد هذا أن المعلومات عن محمد بن محمود وعن مقدم بن معافي من السندرة بمكان، وإذا كان الاسم الثالث — اسم ابن عبد ربه — ملء السمع والبصر بفضل كتابه «العقد الفريد» فإن صلته بفن التوشيح تبدو شديدة الغموض، والشئ المؤكد — على كل حال — أن المصادر لم تحتفظ البتة بأي نموذج من تأليف هؤلاء الرواد، مما يجعل الحديث عن الموشحات الأولى محفوفًا بالصعاب، لا يعتمد فيه إلا على بعض العبارات الموثقة في «الذخيرة» و«المقتطف».

ومن الطبيعي أن الصورة، في المرحلة التالية، تأتي أكثر وضوحاً، والإشارة هنا للجيل الثاني من الوشاحين الذي حمل الراية بعد جيل الرواد، وهذا الجيل الثاني يضم أسماء شهيرة في تاريخ الأدب الأندلسي مثل يوسف بن هارون الرمادي، وابن ماء السماء، وابن عبادة لكن تظل هناك — مع ذلك — ملامح يشوبها الغموض، فإننا لا نملك نماذج إلا لاثنتين من سبعة وشاحين يذكرون في هذه المرحلة، فضلاً عن أن قدراً من الاضطراب يسيطر على المعلومات والنصوص المعروفة لهذين الوشاحين (ابن ماء السماء وابن عبادة)، وربما أدى المزيد من التنقيب في التراث الأندلسي إلى الكشف عن معلومات تزيل ما يرين من لبس في هذه الناحية.

ومن حسن الحظ أن الموشحات في المرحلة الثالثة — التي تستغرق فترة القرن السادس الهجري كله — تكون قد نضجت كل النضج، واستقامت لها كل قواعدها الفنية وبرزت أسماء رنانة مثل ابن بقل والأعمى التطيلي وابن زهر (الحفيد)، ولعلنا نصوص فياضة بالسحر والوهج مثل:

بأبى ظبى جى
نكف أسد غيل
ومثل:

ضاحك عن جمان
سافر عن بدر
ضاق عنه الزمان
وحواه صدى

وتنساب نغمات شاردة، يمتزج فيها الحوى والغزل والافتتان بالطبيعة كما في موشحة ابن زهر:

حيى الوحوش الملاحا
وحش نخل لغبون
قطعه نهيره

أَيُّهَا السَّاقِي الْبَيْكُ الْمُشْتَكِي كَمْ دَعُونَاكَ وَإِنْ لَمْ تَسْمَعْ

والخلاصة أن هذا الفن يصل الى قمة تمامه في القرن السادس الهجري، وقد احتفظت مجموعات مختلفة مثل «دار الطراز» و «توشيع التوشيع»، و«جيش التوشيع» بقدر وفير من النصوص الجميلة التي تنتمي لهذه الفترة. ونجىء مرحلة تالية — في القرن السابع الهجري — تبدأ فيها الموشحات الصوفية في التدفق، وتظهر هنا وهناك بعض سمات الخروج عن القواعد المتفق عليها، على أن التقاليد الأصلية تظل ماثلة عند عدد من المبرزين في التوشيع، مثل ابن سهل الإشبيلي صاحب النص المعروف:

هَلْ دَرَى ظَبْنِي الْحِمَى أَنْ قَدْ حَمَى
قَلْبًا صَبَّ حَلَّه عَنِ مَكْنَسِ

وصاحب موشحة «رحب بضيف الأنس» التي لم تشتهر شهرة «هل درى»، ومع ذلك فإنها لا تقل عنها جمالا، فضلا عن أنها تختلف في النفس أثرا يشبه — من بعض الوجوه — ما تخلفه قراءة «رباعيات الخيام» من أصداء وعبق وحرارة.

وآخر حلقة تشمل شعراء القرنين الثامن والتاسع، وهي حقبة تنتهي سنة ٨٩٨هـ بانتهاء الهيمنة الاسلامية على آخر مدينة أندلسية هي غرناطة، وهكذا يقدر لأصداء الموشحات أن ترتحل بعيدا عن أجواء الحمراء ومغاني غرناطة، كما ارتحلت من قبل عن قرطبة واشبيلية وطليلة وغيرها من مدن الأندلس.

ولم تخل هذه المرحلة من وشاحين مجودين مثل أبي حيان الغرناطي وابن خاتمة الأنصاري وابن زمرك، على أن أشهرهم جميعا لسان الدين بن الخطيب الذي يتألق في فن التوشيع على نحو فريد، وبحسبه أنه صاحب:

جَادَكَ الْغَيْثُ إِذَا الْغَيْثُ هَمِي

بِأَزْمَانِ الْوَصْلِ بِالْأَنْدَلُسِ

وقد عارض فيها موشحة «هل درى ظبي الحمى» لابن سهل، لكن

المعارضة فاقت الأصل شهرة، وأصبحت معلما بارزا من معالم فن التوشيح إلى يومنا هذا.

وللرجل نفسه نصوص أخرى لا تقل براعة عن «جارك الغيث» مثل موشحته:

قد حركَ الجُلُجُلُ بازى الصبّاح والفجر لآخ

فيها غراب الليل حُثَّ الجناح

ومن الغريب حقا أن موشحته:

رُبَّ ليلٍ ظفِرتُ بالبدرِ ونجومُ السماء لم تَدِرْ

تجىء في نفع الطيب مصدرة به :

قال لسان الدين بن الخطيب رحمه الله تعالى: ومما قلته من الموشحات التي انفرد باختراعها الأندلسيون وطمس الآن رسمها «فهل طمس رسم الموشحات حقا في الحقبة التي عاش فيها ابن الخطيب؟ لا نظن، ولعل الرجل كان يقصد أن الأيام عدت على ذلك العهد الزاهي الذي كانت فيه الموشحات تتردد في أبهاء القصور، وبجالي اللهو والطرب، وأنه يقصد أن الأجيال اللاحقة لم تعد تبذل في هذا الفن نصوصا من نمط ما أبدع من قبل ابن بقاء والتطيلي وابن زهر.

وهكذا تكون رحلة الموشحات على أرض الأندلس قد انطوت بعد فترة دامت زهاء خمسة قرون. استطاعت فيها أن تضيف لقيثارة الشعر العربي وترا جديدا قوامه التوهج والصفاء، والتعبير عن خوالج النفس، والإحساس العام بالحب والطبيعة والحياة.

نماذج من الموشحات

• عبادة بن ماء السماء (المتوفى نحو سنة ٤٢٠ هـ):

— مـنـ ولسـى . في أمة أمرا ولم يـمـدـل
— حبـ المـها عبادة من كل بـسـام السـوارى

• ابن عبادة القزاز (المتوفى نحو سنة ٥٠٠ هـ):

— رـج للـسـراج و بـا كـر بـالـمـعـلـم المـشـوف
— كـم في قـدود البان نـحـسـت اللـمـم

• ابن اللبابة (المتوفى سنة ٥٠٦ هـ):

— شـاهـدي في الحـب عن حـرقـي أدمـ كـالـجـمر تـنـذـرف
— هـلا عـذولي قـد خـلعت العـذـلـا لا اـهـنـنـنـذار

• ابن أرفع راسه (أوائل القرن السادس الهجري):

— مـن عـلـق السـرطـا في أذن الشـعـرى

• ابن ليون (أوائل القرن السادس الهجري):

— مـن أطلـع البـدر في كـمال غـمـمـن اعـتـدال

• الكيت البطلوس (النصف الأول من القرن السادس الهجري):

— لـاح للـرومـى نـل غـر البـطـاح زهـر زهـر

• ابن عيسى المرسى الحجاز (النصف الأول من القرن السادس الهجري):

— مـن في بـظـبي رـيـب بـصـيد أـمد الشـيـاـهـى

• الأعمى التطيلي (المتوفى سنة ٥٢٥ هـ):

— دـمـع سـفـوح وظـلوع حـرار مـاء وفسـار

— مـسـاحـك عن جـان سـافـر مـن بـسـر

• أبو بكر الأبيض (المتوفى بعد سنة ٥٢٥ هـ):

— مـن مـى عـيـنـك كـأس المـدام بـسـمـنى المـسـهـم

• ابن الزقاق (المتوفى سنة ٥٣٠ هـ)

— خـذ حـديث الشـوق عن نـفـسي وعن السـمـع الـذي هـما

- ابن رعيم (المتوفى نحو سنة ٥٣٠ هـ):
— نسيم الصبا أقبل من نجد لقد زادنى وجدا على وجد
- أبو بكر بن بقل (المتوفى سنة ٥٤٥ هـ):
— ساعدونا مصباحينا نرتشفها قد ظمينا
— مالى شمول إلا شـجـون
- أبو جعفر بن سعيد (المتوفى سنة ٥٥٠ هـ):
— ذهبت شمس الأصيل فسطحة النهر
- أبو عبد الله بن شرف (المتوفى سنة ٥٧٠ هـ):
— يسارية العقد من يـفـلـد
- ابن مالك الترقسطى (المتوفى سنة ٥٧١ هـ):
— ماذا حملوا فؤاد الشجى يوم ودعوا
- ابن زهر الحفيد (المتوفى سنة ٥٩٥ هـ):
— أما الناقى إليك المشتكى قد دعوناك وإن لم تسمع
— حى الوجوه الملاحا وحى سرد السعير
- محى الدين بن عربى (المتوفى سنة ٦٣٨ هـ):
— عندهما لاح لعينى المتكا ذبت شوقا للذى كان معى
- ابن سهل الإشبلى (المتوفى نحو سنة ٦٥٠ هـ):
— هل درى ظبى الحمى أن قد حى قلب صب حله عن مكس
- ابن خاتمة الأنصارى (المتوفى سنة ٧٧٠ هـ):
— قسم هاتما قهوة كنعم مهجور
- لسان الدين بن الخطيب (المتوفى سنة ٧٧٦ هـ):
— يا حادى الجمال مرج على سلا
- ابن زمرك (المتوفى سنة ٧٩٥ هـ):
— نسيم غرناطة عليل لكنه يرى الليل
- اللخمي الفرناطي (من شعراء القرن التاسع الهجرى):
— حياك بالافراح داعي الصباح قم لاصطباح
- المنصور السعدى (المتوفى سنة ١٠١٢ هـ):
— عطر الأرجاء لما نسما شمأل الصباه مد الغلس

● عبادة بن ماء الساء (نحو سنة ٤٢٠ هـ):

٠ ١

مَنْ وَلِيَّ فِي أُمِّهِ أَمْرًا وَلَمْ يَعْدِلْ يُغْزَلْ إِلَّا لِحَاطِ الرِّشَاءِ الْأَكْهَلِ

جُرِثَتْ فِي (١) حَكِيمِكَ فِي قَتْلِي يَا مُشْرِفُ
فَانْصِفْ فَوَاجِبُ أَنْ يَنْصِفَ الْمَنْصِفُ
وَأَرَأَيْكَ فَإِنَّ هَذَا الشُّوقَ لَا يَرَأُفُ

غُلِّلْ قَلْبِي بِذَاكَ الْبَارِدِ السَّلِيلِ يَنْجَلِي (٢) مَا بِغَوَادِي مِنْ جَوَى مُشْعَلِ

إِنَّمَا يَبْرُزُ كَيْ يَوْقِدُ نَارَ الْفَتَنِ (٣)
مَصْنُوعًا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ حَسَنٍ
إِنْ رَمَى لَمْ يُخْطِ مِنْ دُونَ الْقُلُوبِ الْجُنُنِ
كَيْفَ لِي تَخْلُصَ مِنْ سَهْمِكَ الْمُزْتَلِ قَبْلِ وَاسْتَبَقْنِي حَيًّا وَلَا تَقْتُلِ

يَا سَنَا الشَّمْسِ وَيَا أَبْهَى مِنَ الْكُوكَبِ (٤)
يَا مُنَى النَّفْسِ وَيَا سَوْلَى وَيَا مَقْطَلِي
هَـا أَنَا حَلَّ بِأَعْدَائِكَ مَا حَلَّ بِسِ
عُذِّلِي مِنَ أَلَمِ الْهَيْجَرَانِ فِي مَعَزِلِ وَالْحَلِّ فِي الْحُبِّ لَا يَأَلُ عَمُّ بَلِي

● ترد في «التوشيع» ص ١١٣ و «الفوات» (ط إحصان عباس) ١٥١/٢
منسوبة لابن ماء الساء وفي «الوافي» ١٨٩/٢ منسوبة لابن القزاز

(١) تونج : جزت

(٢) التوشيع : بنجل

(٣) الوافي : يرد. الفوات : ترز. توقد

(٤) الوافي : وباسنى

أنت قد صيرت بالحسن من الرشد غنى
 لم أجسد في طرفي (٥) حبك (٦) دينا على
 فاتشد وان تشا في قتلي شيئا فشيئا
 أجل ووالني منك يد المفضيل (٧) فهني لي من حسنات الزمن المقبل

ما اغتذى طرقي إلا بسنا ناظرينك
 وكذا في الحب ما بي ليس يخفى عليك
 ولذا أنشد والقلب رهين لديك:
 يا علي سلطت جفنيك على مقتلي فائق لي قلبي وجدا بالفضل يا مولاي

٢

حُبّ المَهْما عِبَادَة من كلّ بسام السّوار
 قرّ يطلع من حسن آفاق الكمال حسنة أبدع
 لله ذات حسني ملبحة المَحَيّا
 لها قوائم غصني وشنفها الشّريّا
 والشفر حُبّ مُزِن رُضابُه الحُمَيّا
 من رشفه سمادة كأنه صرغ العقار
 جوهر رصّغ يسقيك من حلو الزّلال طيب المشرّع
 رشيقة المعاطف كالغصن في القوام
 شهيدة المراثيف كالسدر في نظام
 دعصية الروادف والخضر ذو انضمام
 جواله القِلادة محلولة عقد الإزار
 حسنها أبدع من حسن ديك الغزال أكحل المدّمع

(٥) الفوات : طرق (٦) الوافي : حبك (٧) الوافي : ندى

• ترد في «الفوات» (ط احسان عباس) ج ٢ ص ١٥٢ ولم نجد لها في اي مصدر آخر

ليسلية الذوائب	ووجهها نهار
مصقولة الترائب	ورشفها عفار
أصداعها عقارب	والخذ جلتار
نساديست: وافوادة	من غادة ذات اقتدار

لحظها أظن من حل مصقولة الترائب من الفتى الأشجع

سفرجل الشهود	في مرمى الصدور
يترقى على العقود	من لذة الشحور
ومقلة وجيد	من غادة مسفور
حبلى لها عبادة	أعرو من ذا الفخار
برشا يرتع	في روض أزهار الجمال
عفيفة الذبول	نقية الشباب
سلاية العقول	أرق من شراب
أضغى بها نحول	في الحب من عذاب
في النوم لى شراة	وحكمها حكم اقتدار
كلما أمنع	منها فإن طيف الخيال
	زارنى أمتع

• • •

• ابن عباد القزاز (نحو سنة ٥٠٠ هـ)

١
 نَحْ لِلرَّاحِ وَدَاكِرَ بِالْمُتَعَلِّمِ الْمُشَوِّقِ غَبُوقاً وَضُبُوحَ عَلَى الرَّبِّ الْقَصِيحِ
 لَيْسَ اسْمُ الْخَمْرِ عِنْدِي مَاخُوداً فَاَعْلَمُ
 إِلَّا مِنْ خَاءِ الْخَدِّ وَمِيسَمِ التَّيَسَمِ
 وَرَاءَ رَيْقِ الشُّهْدِ الْعَاظِرِ الْقَمِ
 مَكُنْ لِلَّهِمْ هَاجِرَ وَحِيلَ هَذِي الْحُرُوفُ كَيْ تَغْدُو وَتَرْوُحَ بِجِسْمٍ لَهُ رُوحُ
 بِالسَّيِّدِ سَقْنِيهَا فِي وَدِّ الْوَانِقِ
 فَإِنْ مِنْهُ فِيهَا شَبَّةُ الْخَلَائِقِ
 مِنْ أَعْدَمِ الشَّيْبِهَا فِي الْمَجْدِ الْبَاسِقِ
 لَهُ مِنَ الْمَفَاخِرِ تَسْلِيَةً وَطَرِيفَ دُوحٍ مِنْ عَهْدِ نُوْحٍ وَرَوْضَةَ تَفْرِحٍ
 هَلْ تَخْشُنُ الْمَدَائِخِ مِنْ كُلِّ مَادِخٍ
 إِلَّا عَلَى الْجَحَاجِخِ بَنَى صِمَادِخِ
 أَكْرَامُ أَكَابِرِ صَبَدْتُ ثُمَّ الْأَنْوُفُ عَلَى سَوَائِخِ
 مَحْمَدٌ بِمَمِيذِ حَازُوا الْمَجْدَ الْقَرِيحِ قُحُشُوا بِالْمَدِيحِ
 وَحَوْلَهُ جَمُودُ مَرَّاهُ قَرِيبُ
 كَأَنَّهُمْ أَسُودُ مِنْ آلِهِ تُجِيبُ
 إِذَا سَلَوُا الْبَوَاتِرَ فَالْحَيْنُ وَالْحُنُوفُ وَالنَّصْرُ وَالْفُتُوحُ وَآيَةُ تَلُوحُ
 إِذْ لَاحَ ابْنُ مَعْنٍ فِي جَيْشِهِ اللَّجْبُ
 وَنَادَى كُلُّ قَرْنٍ بِاسْمِهِ فِي اللَّعِبِ
 فَالْهَيْجَا تَغْنِي وَالسِّيفُ قَدْ طَرِبُ
 مَا أَمَلَتْ الْعَاكِرَ وَتَرْتِيبَ الْمُصْفُوفِ وَالْأَبْطَالُ تَصِيحُ الْوَائِقُ يَامْلِيحُ

• دار الطراز، ص ٧١، وأشار إلى الخرجة ص ٣٢، ونسبها لعبادة.

كم في قدود الببان نحت الألم من أقر عواط
بأنتمل ويئنان مثل القتم لم تنبر لقاط

لكن الظباء الشمس	فنيضهن الضيفم
ما إن لها من كمنش	إلا القلوب الهيم
القرب منها غرض	والبعد عنها مآثم
تلك الشفاء اللعن	بخسني من الثفرم
لها لحالا نفس	نرني إلى من يشقم

بأعين الفزلان وتبتسم عن جوقير الأسماط
قضى لها الفيران أن تكنم في مضير الأتيان

أهوى رشاً ساحرا	هواه لي ما أقنله
فقد قنخت طائرا	الحاطقه قلبي ولله
لم يزل سنايرا	على هوى ما علله
لما غدا قنادرا	غدا قليل المتعدله
ياحيا كما جائرا	ظلمت من لا ذنبت له

خف سطوة الرحمن اذا حگم بين البري والحاطي
سطوت بالهينان ظلا ولم ينصير يماطي

ياو بيع من شوقا	إلى حبيب قد تلا
قضى بأن يفرقا	في الدمع من قد أمخلا
ظلماً وأن يغفقا	منه الفؤاد المبتهلى
كأنما لمسقا	منه على تلك الظلى
فقلت مستنطقا	من ذا الذي أهدي الى

٥ نرد في «دار الطراز» ص ٦٠ (ومقطع منها ص ٢٩) وجاء قسم منها في «ازهار
الرياض» ٢٥٤/٢ و«نفح الطيب» ٣٨٠/٤

فَوَادِي السَّخْفَقَانِ فَقَالَ قُمْ فَلْتَنْظُرْ فِي الشَّاطِي
إِلَى بَنُو الشَّوَانِ عَذْوَاكَ تُمْ وَاسْتَغِيرَ أَقْرَاطِي

أَمَا تَرَاهَا مَشُورَ	عَلَى قَنَاهَا خَافِقَ
فِي جَارِيَاتِ نَحْوِ	مِثْلَ الْجِيَادِ السَّائِقَ
إِنْشَاءً قَمْنٍ فِي الْمُحَوِ	يُنْشِي السَّحَابَ الْوَادِقَ
سَمَتْ عَلَى النُّجُومِ طُورَ	مِنْهَا فَرُوحَ بَايِقَ
إِنْ السُّرْيَا تَقُورَ	وَلَهَا لَصَادِقَ

مَا فَوْقَ هَذَا الْمَكَانِ مِنَ الْهَمَمِ فِيهِ بَرَى مَنَاطِي
تَمَتَّ عَلَى كِبْوَانٍ مِنْهُ الْقَدَمُ وَالْمُشْرِى مَوَاطِي

أَفْلَاكَ قُلُوكِ تَنْبِزُ	سَمَادَةَ لِلْمُسْلِمِينَ
تَسْرِي الدَّجَى وَتَسِيرُ	بِالْفَتْحِ وَالنَّهْرِ الْمُبِينِ
يَسْبُوهُ بِسَعْدِ النَّذِيرِ	مِنْهَا مَسْبَاخُ الْمُنْذِرِينَ
تُغْلِي بِمَدْحِ الْأَمِيرِ	إِلَى بِلَادِ الْمُشْرِكِينَ
أَنْسِي نَسَحًا فَتَطِيرُ	بِمِثْلِ أَشْفَارِ الْجُفُونِ

وَقَبَسْتُمْ الْخَرْصَانَ قَدْ انْتَقَلَمَ كَأَسْطَرِ الْأَمْشَاطِ
وَالْبَحْرُ كَالْبَرْكَانِ قَدْ اضْطَرَمَّ بِمُنْقَرِ الْأَنْفَاطِ

وَمَهْرَجَانِ لِنَا	يَوْمَ أَنْيَقَ مَنَظَرُهُ
بِحَرْ حَكَى رَمْلَهُ	مِنْ كُلِّ طَيْبٍ عَنَبَرُهُ
وَالشَّاطِ قَدْ حَلَا	عَمَمَهُ وَعَسْكَرُهُ
مَرْغَسَا رَجَلَهُ	فُلُكَا عَكَنَهَا هُمَرُهُ
فَقَالَ عَبْدُ لَنَا	مَنْسَحِينَ مَا يَبْصَرُهُ:

مَا أَمْلَحَ الْمَهْرَجَانِ رَمْلَ يَتَرِّمُ كَالْعَنْبَرِ لِلْمَوَاطِي
وَالْفُلُوكَ كَالْمَقْبَانِ وَالْمَعْتَصِمَ بِالْعَسْكَرِ فِي الشَّاطِي

• ابن اللبابة (المتوفي سنة ٥٠٧ هـ) :

• ١

شاهيدي في الحب حُرقي أدمع كالجمر تنذير

تعمجز الأوصاف عن قَمَر (١)
خِذَه يَدَمِي مِن النِّظَرِ
بِشْرِ بِسْمُو عَلَيَّ الْبَشَرِ

قد براه الله من غلق ما عسى في حسنه أصف

كيف للصبب الكئيب بقا
والكُرى عن جفنه أبقا
هل يطيق الصبر من عثقا

شاذناً يرمي من الحدق أسها قلبي لها هدف
بأولى التنفيسد وتكم (٢)
أنا لا أصفى لنصيجكم
في ثلاث قد عصيتكم
غسق داج على قلق في قضيب زانه الهيف
بأبي قن فاق شمس ضحى
وكسا بذر الدجى ملحا (٣)

• ترد في «التوشيع» ص ١٣١ وفي «عقود اللاك» مخطوطة «الاسكور يال - ورقة ٩ وفي «العذارى المائسات» وقال إنها لجمال الدين بن نباته وقيل لابن عزلا (ولعل الاسم الاخير تحريف لابن غرلة الذي كان ذكرناه من قبل وليست هذه الموشحة من جنس ما وصل الينا من موشحاته، اما ابن نباته فان ديوانه لا يتضمن هذه الموشحة ولا حتى معارضة لها).

(١) توشيع : قرى (٢) توشيع : التنفيذ (٣) التوشيع : لها

فدليلي فيه قد وضعا
لوجود الشمس (٤) في الأفق غدم والبدر ينكيف

رُب راض بعد ما غضبا
زارني في غفلة الرقبا
عندها غنيت: واطربا
باحبباً بات معنقي ها أنا بالوصلي مفترفا

٢

هلا عذولي قد خلعت العذار لا اعتذار عن ظبا الإنس وشرب العقار
ما العيش إلا حُبٌ ظبي أنيس
مهفهف أحوى وحث الكؤوس
من قهوة تحكي شعاع الشمس

كانها في كأسها إذ تدار شعله نار يقتلها الإبريق قبل السوار

سيثان قلبي فيما ذو غرام
القول سالفيد وشرب المدام
فلست أصفي فيها للوأم

لا والدي توج تاج الفخار بحر البحار يبحر جدواه وحامي الديار

المليك المأمون ذو المكرمات
الواحد الفرء الجزيل الصفات
كم ماذح أحبا وكم قد أمان
نهل يميناه علينا بحار ثم اليسار تجلودجى العشر ببدل اليسار

(٤) عمود: الدر

• النص في «حبس البوسيج» ص ٧٠

ففي اسمه للنصر والفتح فان
قد عم أهل الارض ظمراً نوان
أصبح في الجود بمير مثان

أنجد ذكره الكرم وغاز في الأمصار حتى حدث فيه حداً القطار

وغادة تشكو بقاء الخليل
عذوها تبكي ويوم الرحيل
بصفية البحر وطلعت نقون

يا قرجوني ككرس بون امار ليس الفرار وليس دمار (١)



(١) الخرجة فيه : «اما الفرار وليس دمار» وهي — ولا شك — مستورة، ولا تتفق مع بقية الاقوال. وفي نسخة حسن حسني عبدالوهاب (صفحة ١٨٤).
يا قرجوني ككرس بون امار الفرار ليس وليس دمار
ولا تنقيم على هذه الصورة

• ابن رافع راسه (أوائل القرن السادس الهجري ؟) :

مَنْ عَلَقَ الْفَرْطَا فِي أُذُنِ الشَّعْرَى وَأَكْفَفَ الْمَرْطَا الْفُضْنَ النَّضْرَا

الْحَسَنُ مَرْجُومٌ عِنْدِي وَمَأْثُومٌ

وَالْطَّرْفُ ظَلُومٌ وَالْقَلْبُ مَظْلُومٌ

بِأَبِي رَيْمٍ يَعْشَقُهُ الرَّيْمُ

لَمْ يَأْكُلِ الْخَمَطَا وَلَا رَعَى السَّدْرَا وَلَا رَعَى الْأَرْطَى (١) مَذْ سَكَنَ الْقَضْرَا

بِاقُومٍ بِي تَيَّاهَ لَمَّا مَعْشُورٌ

الْمُجْرِمُ مِنْ هَجْرَاهُ (٢) وَالذَّنْبُ مَحْمُولٌ

يَدْرِي الَّذِي يَهْوَاهُ أَنَّهُ مَقْنُولٌ

أَمَاتَنِي غَبَطَا (٣) وَمَا اتَّقَى الْوُزْرَا لَمْ أَعْرِفِ الشَّرَطَا - فَكُنْتُ مُفْتَرَا

قَدْ هَمْتُ فِي وَشْنَانِ أَشَدَّ الشَّرَى بِشَبِي

بِلِحْظِهِ الْفَتْنَانِ فِي مَعْرَكِ الْحَرْبِ

عَلَى الظُّبَى سَلْطَانِ بِقُدْرَةِ الرَّبِّ

سَبَحَانَ مَنْ أَعْطَى جَفَوْنَكَ السَّخْرَا وَالْقَبْضَ وَالْبَسَطَا وَالنَّهْيَ وَالْأَمْرَا

عَلَيَّ مَا أَتَعَدَّى سِوْفَ عَيْنِيكََا

كَمْ أَنْتَ الْأَعْدَا بَعْدْلِهِمْ فَيْكََا

وَالْحَسَنُ قَدْ أَبْدَى لِحْذَرِي بِخَدْيِكََا

بِأَحْرِفِ خَطَلَا لَمْ تَعْرِفِ الْجَبْرَا أَوْ دَعَرَا نَقْطَا بِالْجَبْرِ كِي تُقْرَا

ضَنْ بِإِسْعَادِي (٤) وَالشَّمْسُ تَحْكِيهِ

مِنْ بَعْدِ مِيعَادِ أَبْدَى الرِّضَا فِيهِ

فَكَانَ إِنْشَادِي خَوْفَ تَجَنُّبِهِ

حَبِيبِي قَدْ أَبْطَا (٥) مِنْ أَمْسَكَ الْبَدْرَا عَنِي لَقَدْ أَخْطَا وَأَسْفَلَ السَّرَا

• ترد في «توشيع» ص ١٥١ ونسبها لآبي الحسن علي بن عبد الغني الحصري، وهي في

«جيش» ص ٧٤ ضمن موشحات ابن ارفع راسه، ورجحنا انها له.

(١) جيش: ولا درى الابطا (!) والارطى: شجر الائل

(٢) توشيع: هجيره

(٣) جيش: أماتني غبطا. وعبطا: نحرا

(٤) جيش: بإسعاد

(٥) جيش: حيث قد ابطا (!).

• ابن لبون (أبو عيسى) — أوائل القرن السادس الهجري:

من أطلع البدرَ في كمالٍ غصني اعتدالي

بِهَجْنِي شَادِلٍ غَرِيرُ
يَجُوزُ (١) حُكْمًا وَلَا يُجِيرُ
وَمَا سَوَى أَدْمَعِي نَصِيرُ

تفعل عيناه بالرجالِ فعمل القوالِ

غَلَّقْنَاهُ أَوْطَفًا كَنَجِيلِ (٢)
يَعْتُدُّهُ الْفَصْنُ إِذْ يَمِيلُ
تَجُونُ فِي ثَغْرِهِ شُمُونُ
يَمِجُ فِي ثَغْرِهِ لَالُ بَرْدِ الزَّلَالِ

يَا أَيُّهَا الْمَاذِلُ الْخَلِيلِي
بِئْسَ يَمْنٌ بَنَى اللَّيْثُ بِأَبِيلِي
قَلْبِي بِهِ مَفْرُومٌ شَجِي

عَذْلُكَ عِنْدِي — إِذْ لَسْتُ سَالٍ مِنْ الْمُحَالِ

كَمْ قَلْبٌ لَا أَدْعِي بِحُبِّهِ
لَطُولُ إِعْرَاضِهِ وَعَتَبِهِ
حَتَّى إِذَا لَحَ صَبِيحُ قَرْبِهِ

• النص في «جيتس التوشيح» ص ١٦٨
(١) في الاصل: يجوز حكما (٢) في الاصل: اوطف

أبديتُ من عِزة الجمال (٣) دَلَّ السَّـوَالِ

مازلتُ أشكوه له ببعيدة
حنى أرعوى حافظاً لعهده
كأنه إذا أتى لسوعده

يختالُ في ظلمة الدَّلالِ طيفُ الخيالِ

لله يومٌ به نَمَمْنَا
راق أصيلاً فراق حسنا
عاتبته مازحاً ففنى

إياك يغرنك صرف مال (٤) يامن بدا لي

• • •

(٣) في الاصل. عزة الجمال (٤) في الاصل صرف رمال نافذ د ر

• الكهين (أبو عبد الله محمد بن الحسن البطليوسي) - النصف الأول من القرن السادس الهجري :

زَهْرٌ زَاهِرٌ	لاح للروض على عُمر البَطَاح
نُورُهُ السَّامِرُ	وثنا جيداً مُنْعَمَ الْأَفَاح
أَرْجُ عَاطِرُ	زارني منه على وجه الصَّبَاح
أَلَمَّا عَقِدَ	نشرَ القَلْلَ عليها حين فَاخ
وَجَنَّةَ الْوَرْدِ	حبَّذا البشْرُ لي عند افتِتاح

مَلَأَ أَجْفَانِي	بضحك الروض مسایل السَّحاب
فَسَوْقَ غَدْرَانِي	ومشت فيه لآلىء الحَبَاب
عِنْدَ تَهْنِئَتِهِ	فتراه كيف (١) يَكْشِفُ النَّقَاب
وَسَطَ الرَّعْدِ	بختي طولُ تناسُج الرِّياح
سُلَّ مِنْ غَمْدِ	وترى البرقَ كصارم مُشَاخ

رَفِصَصَ نَشْوَانِ	رفصت وسط رباضيها الغُصُونُ
كَلَّلَ إِحْسَانِ	وأرتنا من لطائف المَجُونُ
وَشِي صَنْعَانِ (٢)	فنسينا عند وشيه المَقْصُونُ
فِي ذَرَى سَفْدِ	كنجوم أطلعت والجو صَاخ
نِعَمَ الْحَمْدِ	فسعى الناسُ بالسننِ فِصَاخ

• برد النص في «حيس التوشيح» ص ٩٤.

(١) كذا في المطبوع، ولعلها: حين

(٢) صنعان: صنعاء

واخلع الغُذرا	فاغتنم ما قد صفا من الزمان
مزة صُفُبرا	واشرب الراح على سميع القيان
عُتِّقْتُ دَهْرا	واغتبقها من سلافة دنان
ناعِمُ القَدِّ	كأُسْها جِسْمُ طفلة رداخ
شيب بالشَّهْدِ	تمزجُ الراح بريقها القُراخ
وتشُنَّيها	وفتاة فتنتُ بحسنيها
حين يُسَوِّدُها	تشتكي طولَ جفاء خذنها
ومفانيها:	وتُغَنِّي برفيع لحنيها
قد كثر نهدي	ذبت والله أسي نطلق صباخ
ونثر عقدي	وعمل لي في شفيفاتي جراح

• • •

• ابن عيسى المرسي الخباز (ابو الوليد يونس) : النصف الأول من القرن السادس الهجري :

مَنْ لِي بِظِي رَيْبٍ يَصِيدُ أَشَدَّ الْفِيَاضِ (١) لَوْ بِسَدِينِي لِمَا أَمَلْتُهِ لِلتَّقَاضِي

جَعَلْتُ حَقِّي مِنْهُ	بِـنِ الرَّجَا وَتَمَنِّي
لَمْ أَظْهَرِ الْيَاسَ عَنْهُ	لِمَا أَطَالَ النَّجْنِي
بَلْ قُلْتُ بِأَقْلَبُ صُنْهُ	لَدَيْكَ عَنْ سَوْءِ ظَنِّي

وَأَنْتَ يَا نَفْسِي ذَوْبِي وَيَا مَطِيلًا اعْتَزَاضِي نَقْدَ مَا شَتَّ حُكْمَا إِنِّي بِحُكْمِكَ رَاضِي

مَا حَالُ قَلْبٍ لَدَيْكَ	لَا تَنْقُضِي حِسْرَاتِهِ
يَشْكُو جَوَاهُ الْبَيْتِ	وَلَيْسَ تَجْدِي شِكَاؤُهُ
مَهْلًا فِي رَاحَتِكَ	حِسَائِهِ وَمَسَائِهِ

يَا مَرَضِي وَطَبِيبِي بِفِيكَ بَرَاءُ الْبِرَاضِ وَمَنْكَ قَدْ ذَبْتُ سَقْمًا فَلْتَقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ

يَا مَنْ يَنْفِرُ ظُلْمًا	مَنْ لَيْسَ عَنْهُ بِصَابِرٌ
مَاضٍ إِذْ ذَبْتَ سَقْمًا	لَوْ لَمْ تَكُنْ لِي هَاجِرٌ
رَفَقًا فَبِي مِنْكَ أَلِي	وَسِنَانٌ سَاجِي النَوَاطِرُ

رَامَ بِهِمْ مَصِيبٍ مِنَ الصَّحَاحِ الْبِرَاضِ يَرْنُو فَيُرْسِلُ سَهَا وَالْقَلْبُ فِي الْاعْتَزَاضِ

• ترد كلمة في «جيس التوشيح» ص ١٤٧ وهي في «عدة الجليس» — بدون ذكر قائلها — ونقل د. الأهواني «الزجل في الأندلس» ص ١٨ المطلع والخرجة عن مقال غومت (الأندلس سنة ١٩٥٢) الخاصة بالخرجات الأعجمية في مجموعة ابن بشري (١) جيس : يسطوباسد

مَنْ لِي بِتَفْتِيرِ جَفْنِهِ وَالْمَوْتُ مِنْ لَحْظَاتِهِ
إِنْ مَسَّرَ ثَانِي عِطْفِهِ فَالْحُسْنُ فِيهِ بِذَاتِهِ
أَوْرَمْتُ إِدْرَاكَ وَصْفِهِ أَعْيَتَنِي بَعْضُ صَفَاتِهِ

يجول لحظ الكئيب من خدّه في رياضٍ لكن عن القطفِ تُختمى بمرهفاتٍ مواضٍ

لله ظبيّةٌ خِذِرٍ قد روعت بالفراقِ
بنّت ثلاث عشر تُسبِّلُ دمع المآقي
تقول في حالٍ سُكِرٍ لأقْمَهَا فِي اشْتِيَاقِ

بامم مو الحبيب تبش ان تزتر باض غار كفري يامما انن يجنال للشااض

• • •

• الأعمى التطيلي (المتوفى سنة ٥٢٥ هـ) :

دَفَعُ سَمُوخَ (١) وَضَلَّوْجَ حِرَّازَ مَاءٍ وَنَارٍ مَا اجْتَمَعَا إِلَّا لِأَمْرِ كَبَّازٍ

بَثَسَ لَعْمَرِي مَا أَرَادَ الْعَذُونَ
عُفْمَرٌ قَصِيرٌ وَعِنَاءٌ طَوِيلٌ
يَا زَفَرَاتِ نَطَقْتُ عَنْ غَلِيلِ (٢)
وَيَا دَمَوْعاً قَدْ أَصَابَتْ مَيْيِلِ (٣)

امْتَنَعَ النَّوْمُ وَشَطَّ الْمَرَّازُ وَلَا قَرَّازَ طَرْتُ وَلَكِنْ لَمْ أَصَادِفَ (٤) مَطَارَ

يَا كَعْبَةَ حَجَّتِ إِلَيْهَا الْقُلُوبُ
بَيْنَ هَوَى دَاعٍ وَشَوْقٍ مُجِيبِ
دَعْوَةٍ (٥) أَوَاهِ إِلَيْهَا مُنِيبِ
لَبِيكَ لَا أَلْوِي لِقَوْلِ الرَّقِيبِ (٦)

• الموشحة في جيش ص ١٠٦ وديوان الأعمى التطيلي ص ٢٦١
والتوشيع ص ١٠٦ .

(١) الديوان : مفوح .

(٢) توشيع : عليل .

(٣) الديوان : ويا دموع قد أعانت .

(٤) ط الديوان : أصادق .

(٥) جيش : حسنت . الديوان : حسنة .

(٦) الديوان : لبيك الا الهو وقل للرقيب . جيش : لبيك لا الوى .

جد لي بحج (٧) عندها واعتماد ولا اعتذار قلبي هدي ودموعي جمار

أهلاً وإن عرض بي للمنون
بمائنس الأعطاف ساجي الجفون (٨)
ياقسوة يحسبها الصب لبن
علمتني كيف تُساء الظنون (٩)

مذبان عن تلك اللبالي القصار دمي غراز (١٠) كاتبا بن جفوني غراز (١١)

حگمت مولى جار في حكمه
أكنى به لا مفيصحا باسمه (١٢)
وأعجب (١٣) لأنصافي على ظليه
واسأله عن وضلي وعن صرمة

ألوي بحظي (١٤) عن هوى واختياز طوع النفاذ وكل (١٥) أنس بعده بالخيار

(٧) الديوان والحس : مرني .

(٨) في جيش : وسن الجفون . وفي الديوان يشير المحقق «الى أن الأصل لم يكن واضحاً ، ولعله : «فما بصر ماتصون الجفون» .

(٩) في الديوان والجيش : كيف أسوء .

(١٠) الديوان والجيش : نومي غرار .

(١١) الجيش : بن جفوني غرار .

(١٢) الوشيح : أهدي به .

(١٣) الديوان والجيش : فاعجب .

(١٤) الديوان : بحقي .

(١٥) الديوان والجيش : فكل .

لا بُدَّ لي منه على كلِّ حال
مولي تجنّس وجففا واستنطبان
غادرني زهْنُ أسي واعتلان

ثم شدا بين الهوى والألال :

ما والحبيب دموا صار مادر شنار بتفيس رامش كف دمومار (١٦)

• • •

٢

هاجك عن جقان سافر عن بذر ضاق عنه الزمان وحواه صدري
آه مما أجند شقي ما أجند
قام بي وقعد باطش مُنيد
كلام قلت قد قال لي أين قد

(١٦) كذا جاءت الخرجة في الديوان (وهي بالأعجمية أي بلغة الرومانت) وترد

في التوشيع «مر الحبيب انفرم دمومار.. كان دشتار.. تنفس اميت
كسادمواتار» وفي الجيش «ما والحبيب دمومار.. فادر شنار.. تنفس
آست كساد مومار» وأوردها د. احسان عباس في «تاريخ الأدب
الأندلسي» ج ٢ ص ٢٤١ نقلا عن مقالة عن الخرجات كان الأستاذ
غومث قد نشرها في «الأندلس» سنة ١٩٥٤ ، وفيه : موا الحبيب انفرم
ذي مومار كن دشر تنفيس اميب كسد نوليفر ومعناها «حبيبي مريض
بسبب الحب — وكيف لا يكون ذلك — ألا ترى أنه لن يرجع إلّى أبداً» ؟

• انظرها في «ديوان الأعمى التطيلي» ص ٢٥٣ وترد في «المغرب» ٤٥٣/٢ و«دار
الطراز» ص ٤٣

وانشئ حُوط بان (١) ذا مَهْرٍ نَضِير (٢) عَابَثَهُ يَدَان (٣) لِلصَّبَا وَالْقَطِيرِ
 لَيْسَ لِي مِنْكَ بُد (٤) خَذَ فَوَادِي عَنْ يَدِ
 لَمْ تَدْعُ لِي جَلَدٌ غَيْرَ أَنِّي أَجْهَدُ
 مَكْرَجٌ مِنْ شَهْدٍ وَاشْتِيَاقِي بِشَهْدٍ
 مَا لَيْبَتِ الدَّنَانُ وَلِذَاكَ التُّغْرُ أَيْنَ مَخِيَا الزَّمَان (٥) مِنْ حُمَيَّا الْخَفِيرِ (٦)
 بِي هَوًى مَضْمَرٌ (٧) لَيْتَ جَهْدِي وَفَقْدُ
 كَلِمَا يَظْهَرُ (٨) فَفَوَادِي أَفْقَدُ
 ذَلِكَ الْمَنْظَرُ لَا يُدَاوِي عَشْفُ
 بِأَيِّ كَيْفٍ كَانَ فَلَنَكِي دُرِّي رَاقٍ حَقَّ اسْتِبَان (٩) غِذْرُهُ وَغِذْرِي
 هَلْ إِلَيْكَ سَبِيلٌ أَوْ إِلَى أَنْ أَيْسَا (١٠)
 دُبْتُ إِلَّا قَلِيلٌ عِبْرَةٌ أَوْ تَقَسَا
 مَا عَسَى أَنْ أَقُولَ سَاءَ ظَنِّي بِعَسَى
 وَانْقَضَى كُلُّ شَأْنٍ وَأَنَا اسْتَشِيرِي خَالِعاً مِنْ عِنَانٍ جَزَعِي أَوْ صَبْرِي
 مَا عَلَيَّ مَنْ يَلُومُ لَوْ تَنَاهَى عَنِّي
 هَلْ سَوَى حُبِّ رَمٍ دَيْئُهُ التَّجَنِّي
 أَنَا فِيهِ أَهْمٌ وَهَوِي يَنْفِي
 قَدْ رَأَيْتُكَ عِيَانِ آشٍ عَلَيْكَ سَاتَدْرِي (١١) سَيَطُولُ الزَّمَان (١٢). وَتَنْسَى ذَكَرِي (١٣)

● ● ●

(٦) الديوان: من محيا الجمر

(٧) المغرب: بن جوى

(٨) المغرب: كلما يذكر

(٩) المغرب: رقى

(١٠) المغرب: إلى أن أيسا

(١١) دار: ليس عليك ساتدري وفي الديوان: ليس عليك ستدري

(١٢) المغرب: سايطول

(١٣) المغرب: وتجرب غيري

« الأبيض (أبو بكر محمد) المنوفي بعد سنة ٥٢٥هـ :

مَنْ سَقَى عَيْنِكَ كَأْسَ الْمُدَامِ يَا مُنَى السُّنَنَاهَامِ

رَشَاءُ أَسْهَرَتِي وَهُوَ نَائِمٌ
رَقًّا لِي وَالْمَوْتُ بَيْنَ الْحَيَاةِ
عَجَبًا مِنْ دَمْعِهِ وَهُوَ بِاسْمِ

خَنِيْتُ يَمْزُجُ لِي تَحْتَ اللَّتَامِ (١) عِبْرَةً بِابْتِسَامِ

فَلَسَبَ دُنْيَايَ تُسْقَى رُؤْيُودُ
تَحْتَ إِحْسَانِ الْوَزِيرِ ابْنِ زَيْدٍ
فَأَنَا أَرْبَعٌ فِي خَبَرِ قَيْدِ (٢)

بَيْنَ يَرْوَعَطَايَا جِسَامِ أَخَوَاتِ الْقَمَامِ

بَائِسُ الْغَوْرِ بِعِيدِ الْمَافَةِ
قَدْ كَفَى قَرْطَبَةً كُلَّ آفَةِ
كَمْ يَدٍ أَوْلَيْتَ دَارَ الْخِلَافَةِ

طَوَفْتَ جِيدَكَ طَوَقَ الْحَمَامِ فِي حُلِيِّ الْكِرَامِ

• برد النص في «حيس الوسيح» ص ٥٤ (غير مقابل على أي مصدر آخر)

(١) احدا ما نمراد نسحه حس حسى عبدالوهاب

(٢) كذا في انطوى وسك في صحت النمراد ولعلها: «وانا اربع في عبر قيد»

بك يا مُشرف صبح اليفقين
أنت صبح المشكاة المبين
أي نصل سله ما (يلين) (٣)

ملك شرفه في الأنام حمل ذاك الحسام

شرف الملك به حين حاظله
فشدت ونجداً به غرناظله
إذ تسوخي يسواها ارتبناظله

كل يوم اقريك يا حبيب السلام ونسييت أنت ذمام

• • •

(٣) بياض في الاصل، وملأناه بما يناسب المعنى

• ابن الزقاق (أبو الحسن علي) المتوفي سنة ٥٣٠ هـ:

تُحَدِّثُ حَدِيثَ الشُّوقِ عَنْ نَفْسِي وَعَنِ الدَّمْعِ الَّذِي هَمَّعَا

مَا تَرَى شَوْقِي قَدْ اتَّقَدَا
وَهَمِّي بِالدَّمْعِ وَاقْطَرَدَا
وَاعْتَدَى قَلْبِي عَلَيْكَ سَدَى

أَهْ مِنْ مَاءٍ وَمِنْ قَبَسٍ بَيْنَ طَرَفِي وَالْحِشَا جَمِيعَا

بِأَبِي رَيْسَمٍ إِذَا تَقَفَرَا
أَطْلَعْتِ أَزْرَارُهُ قُتَمَرَا
فَاحْذَرُوهُ كَلَّمَا نَظَرَا

فَبِالْحَاضِ الْجَفُونِ قَيْسِي أَنَا مِنْهَا بَعْضٌ مَنِ صَرَعَا

أُرْتَضِيهِ جَارَ أَوْ عَمَلَا
قَدْ خَلَعْتُ الْعَذْلَ وَالْعَدْلَا
إِنَّمَا شَوْقِي إِلَيْهِ قَلَا

كَمْ وَكَمْ أَشْكُو إِلَى اللَّعْسِ ظَمَأْتُ لَوْ أَنَّهُ نَفَقَا

• نرد الموشحة في توشيع التوشيع منسوبة لابن الزقاق (وألفقتها محقة ديوان ابن الزقاق إلى الديوان اسنادا إلى ذلك) كما نجىء في «عقود اللاك» مخطوطة الاسكوريال ورقة ١٠ منسوبة كذلك لابن الزقاق بينما نسبها صاحب «نفح الطيب» ح ٥ ص ٣٦٩ إلى ابن بقي

ضَلَّ عَبْدُ اللَّهِ بِالْحَوَرِ
وَبَطْرِفٍ فَاتِرِ النَّظَرِ
حُكْمَهُ فِي أَنْفَسِ السَّبَرِ

مَثَلُ حَكِيمِ الصَّبِيحِ فِي الْغَلَسِ إِنْ تَجَلَّى نَوْرُهُ ضِدْعَا

شَبَّهَتْهُ بِالرَّشَا الْأَقْمِ
فَلَعَمْرِي إِنَّهُمْ ظَلَمُوا
فَسَتَغْنِي مَنْ بِهِ السَّقَمُ

أَيْنَ ظِلِّي الْقَفْرِ وَالْكُثْبِ مَنْ غَزَا فِي الْحَشَا رَتَعَا

• • •

• ابن رحيم (ابوبكر) المتوفى نحو ٥٣٠هـ (؟) :

نسيمُ الصَّبَا أَقْبَلَ مِن نَجْدٍ لَقَدْ زَادَنِي وَجْدًا عَلَى وَجْدِ

يَا رِيحَ الصَّبَا بِالْك دَارِي
يَقْرِفُ شَذَا مَسْك دَارِي
ووصفِ رشا بِالْهَجْرِ يَبْرِي
وَسَلْ بِاللَّوَى عَنِ كُثْبِ يَبْرِي

هل استوحشت بالنأي والبعد وما صنعت بشيء من تعدي

لئن هجر الشاذن أوطاني
وصفب العزا في النأي أوطاني
وضافت بهجر الحب أعطاني
وضننت بما في الحب أعطاني

فيا عاذلي عن عذلي عذ فما حب ذا الحب قد يُعدي

خمام اللوى بالنَّوْحِ أرشاني
بقُمْرِيَّةٍ ناحت بِوَرْشَانِ
تهيمُ به وهو لها شاني
فقلتُ لها شأنك من شاني

• النص في «حب الوبح» ص ١٧٥

وسعدك يا ورقاءُ من سَعْدِي وفي كلِّ وادٍ من بني سَعْدِ

بنفسي الذي قد بَرَّ أشرافا
وحازت به الأيسامُ إشرافا
أيا ابن سعيد سدتِ ايلافا
بذلت لهم جودك آلافا

أَجَرَيْتَ (١) إِذْ سَمِيتَ بِالْحَمْدِ وَفَتَّ مِنْ الْمَهْدِ إِلَى الْمَجْدِ

حبيبٌ بدا منذ بدا أنساني
على أنه أسكنُ إنساني
غزال عن التعميق أغناني
وأنصف إذ زاد غنائي

لأَيِّ قِصَّةٍ تَبِيتَ وَحْدَكَ وَأَبَيْتَ وَحْدِي كَمَا بَتَ عِنْدَكَ حَتْمًا (٢) تَبِيتَ عِنْدِي

• • •

(١) فِي الْمَطْبُوعِ : أَجَرَيْتَ

(٢) فِي الْمَطْبُوعِ : حَتَّى

ابن بقی (أبو بكر يحيى، المتوفى سنة ٥٤٥هـ):

١٠

سَاعِدُونَا مَصِيحِنَا رَنِّثْفَهَا قَدْ ظَمِينَا (١) كُنْضَارِي لَجَنِّي نَعْمَ أَجْرَ الْعَامِلِيَا

قُمْ بِنَا نَجْلُو الْكُرُوسَا نَحْتِ أَظْلَالِ الشَّحَابِ
نَسْمِطَاهَا عَرُوسَا خَلَّيْهَا دُرُّ الشَّحَابِ
قَهْوَةٌ تُعْطِي النُّفُوسَا عِزُّ أَيَّامِ الشَّحَابِ

تَغْصِبُ اللَّيْلُ الْقَرِينَا وَيُرَى كَرِي قَرِينَا حِينَ يُنْقَى بِالْيَدَيْنِ جَانَهَا حِينَا قَحِينَا

يَوْمُنَا يَوْمٌ أَنْيَقُ يَوْمٌ شُرِبَ وَالْتِذَاذِ
طَسْرَزَتْ فِيهِ الْبُرُوقُ لَا يَسَاءُ أَثْوَابُ لَاذِ
وَسَقِ الْهَيْمُ الرَّقِيقُ مَاءٌ وَرِدٌ بِرِذَاذِ

أَفْطَهَرَ الشَّحَرُ الْمِينَا حِينَ رَمَى الْيَاسَمِينَا وَبَكَى مِنْ دُونَ عَيْنِ فَضِيحَكُنَا فَكَيْهِنَا

أَهَا السَّاقِي الْمُخَيَّا بِرِيَا حِينِ الشَّمْسِي
يَسْخَرُ عَيْنِيكَ الْحُمِيَا فَاصْرِفِ الظُّهْبَاءَ عَنِّي
لَا تَسْلُظْهَا عَلَيَا فَاهْوَى قَدْ نَالَ مَسِي

قَدْ نَفَسَتْ الشَّعْرُفِينَا قَرَضِينَا الْحُبَّ دِينَا قُمْنَايَ دُونَ مَتْنِ أَنْ نَرَى ذَاكَ الْجَبِينَا

لِي حَبِيبٌ يَوْسُفِي وَصَلُّهُ فِي الْحُبِّ مِنَّةٌ
وَجْهُهُ صَبِيحٌ وَضَمِي قَدْ تَبَدَّى فِي الدُّجْنَةِ
دَلِّي مَنَّهُ الْأَيْبِي فَأَعَادَ النَّارَ جَسَّةً

• ترد في " جيش التوشيح " ص ١٣ ولم نجدها في غيره من المصادر
(١) في المطوع : قد صمما

بَذَلَتِ الْوَرْدَ الْمُصُونَا بَعْدَمَا كَانَ ضَيْئَا فَكَأَنِّي ذُو رَعْبِي أَوْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ

سَاءَ مَا لَمَّا أَتَضَلْنَا كُلُّ مَفْتَابٍ حَسُودٍ
وَكَذَلِكَ الرَّجْعَةُ قَلْبُنَا لَا لِنَدْنِيْسِي الْبُرُودِ
لَمْ تُرِدْ فِيهَا امْتِنَانُنَا غَيْرَ اقْلَاقِ الْحَسُودِ

قَدْ بَلَيْنَا وَابْتَلَيْنَا وَاشْ يَقُولُ النَّاسُ فِينَا قُمْ بِنَا بِأَنْوَرِ عَيْنِي نَجْعَلِ الشَّكَّ يَقِينَا

٢٠

مَالِي شَمُونُ إِلَّا شُجُونُ مِزَاجُهَا فِي الْكَاسِ دَمْعٌ هَسُونُ
لَهُ مَا بَدَّزَ مِنْ الدُّمُوعِ
صَبٌّ قَدْ اسْتَمِعْتُ مِنْ السُّلُوعِ
أَوْدَى بِهِ جُودُورُ يَوْمِ الْبَقِيعِ (١)
فَهُوَ قَنِيلُ لَا بِلَ طَلْعِيْنُ بَيْنَ الرَّجَا وَالْكَاسِ لَهُ مَلُونُ
جَرَحْتُ لِلْعَيْنِ كَفِّي بِكَفِّي
وَحَبِلَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ الْفِي
لَا شَكَّ بِالْبَيْنِ يَكُونُ حَتْفِي
حَانَ الرَّحِيلِ (٢) وَلِي دِيْسُونُ إِنْ رَدَّهَا الْعَبَاسُ فَهُوَ الْأَمِينُ
أَمَا نَرَى الْبَدْرَا بِدَرِ السُّفُودِ
قَدْ اكْتَى خُفْرَا مِنْ الْبُرُودِ
إِذَا انْثَنَى نَفْرَا مِنْ (٣) الْقُدُودِ

• النص في «دار الطراز» ص ٦٧ وذكر الخرجة ص ٣١ ونسبها لابن بقي وترد الموشحة في نفح الطيب ٣٠٢/٩ مسبوقة بما يطرئ من الموشحات قول بعضهم «وترد الخرجة في توشيع التوشيع» ص ١٧٥ في حاتمة موشحة للصفدي باها على نسق موشحة ابن بقي

(١) نفح : يوم الطلوع

(٢) نفح : حال

(٣) دار : من

أَضْحَى يَقُولُ	مَتَّ بِأَحْرَبَيْنِ	فَدَاكْسَى بِالْأَمْسِ	الْيَاسِمَيْنِ
	قَلْتُ وَقَدْ شَرُّا	النَّوْمَ عَنِي	
	وَأَيْسَ الْفُؤَا	الشَّقْمُ مِنِّي (٤)	
	صَد. فَلَمَّ صَد	فَرَعْتُ سَنِي	
جَسْمِي نَحِيلُ	لَا يَسْتَبِينُ	يَطْلُبُ الْجَلَّاسَ (٥)	حَيْثُ الْآتَيْنِ
	تَجَاوَزَ الْحَدَّ (٦)	قَلْبِي اشْتِيَاقًا	
	وَكَلَّفَ الشَّهْدَا	مَنْ لَوْ (٧) أَطَاقَا	
	قَلْتُ وَقَدْ مَدَّ (٨)	لَيْلِ رُؤَاقَا:	
لَيْلٌ طَوِيلٌ	وَلَا مُعِينٌ	يَا قَلْبَ بَعْضِ النَّاسِ	أَمَّا تَلِينُ؟

• • •

(٤) دَار: اللَّقْمِ

(٥) دَار: تَطْلُبُهُ

(٦) نَفَحَ: الْحَدَّ

(٧) نَفَحَ: مَنْ لَا

(٨) نَفَحَ: وَقَدْ مَدَّ

• أبو جعفر بن سعيد (المتوفى سنة ٥٥٠هـ):

ذَهَبَتْ شَمْسُ الْأَصِيلِ فِضْفِةُ النَّهْرِ

أَيُّ نَهْرٍ كَالْمُذَاقَةِ
صَيَّرَ الظِّلَّ فِدَاقَةَ
نَسَجْنَةُ الرِّيحِ لَاقَةَ
وَتَنَسَّتْ لِلْفَصْنِ لَاقَةَ

فَهُوَ كَالْمَغْضِبِ الْعَثْقِيلِ حُبٌّ بِالسُّمْرِ

مَضْجِكاً تُفَرِّ الْكِتَامِ
مُبْكِيَا جَفْنَ الْقَمَامِ
مُنْطِقاً وَزَقَ الْحَمَامِ
دَاعِيَا إِلَى الْمُدَامِ

فَلِهَذَا بِالْقَبُولِ خُطَّ كَالنُّظَرِ

حَبِّذَا بِالْحَوْرِ مَسْنَى
هِيَ لِفَقْطٍ وَهُوَ مَعْنَى
مَذْهَبُ الْأَشْجَانِ عَتَا
كَمْ دَرِينَا حَيْثُ مِثْرَتَا

ثُمَّ فِي وَقْتِ الْأَصِيلِ لَمْ نَكُنْ نَدْرِي

• النص في «المغرب» ١٠٣/٢

قَلْبُكَ وَالْمَرْجُ اسْتَدَارَا
بِئْذَرَى الْكَأْسِ يَسْوَارَا
سَالِبٌ مِنْهُ الْوَقَارَا
دَائِرًا مِنْ حَيْثُ دَارَا (١)

صَادَ أَطْيَارَ الْمُقُولِ شَبَّكَ الْخَمِيرِ

وَعَدَ الْجِبُّ فَأَخْلَفَ
وَأَشْتَهَى الْمُظْلَ نَسُوفَ
وَرَسُولِي قَسِدَ تَعْمَرَفَ
مَنْنَةً مَا أَدْرَى فَحَرَفَ :

بِاللَّهِ قُلْ يَا رَسُولِي لَيْشَ يَغِيبُ بِئْذَرِي

• • •

(١) المطبوع : دار

• ابن شرف (أبو عبدالله) المتوفي نحو سنة ٥٧٠ هـ :
 يَارَبَّةَ الْعِيقِدِ مَتَى تَقْلَدُ بِالْأَنْجُمِ الزَّهْرِ ذَاكَ الْمَقْلَدِ

مَنْ أَطْلَعَ الْبَدْرَا عَلَى جَبِينِكَ
 وَأَوْدَعَ السُّحْرَا بَيْنَ جَنْفَوْنِكَ
 وَزَوَعَ السُّمْمَا بِفَرْطِ لَيْسِكَ
 يَالِكَ مِنْ قَدْ مَهْمَا تَأَوَّذَ أَهْدَى إِلَى الزَّهْرِ خَدًّا مُبَوَّذَ

قَسَمَ فَاقْتَدِيخَ زَيْدَا مِمَّنِ السُّمُقَارِ
 قَدْ قَلْبَتِ عَيْقِدَا مِمَّنِ الدَّرَارِي (١)
 وَالْبَسْتُ بُرْدَا مِمَّنِ السُّنْضَارِ
 وَاشْرَبْتُ عَلَى وَدِّ (٢) غُلِيَا مُحَمَّدٍ نَاهِيكَ مِنْ سِرٍّ وَطَيْبٍ مُورِدٍ

السَّنْصَرُ يَلْتَنَاحُ عَلَى غُمْلَاهُ
 وَالزَّهْرُ يَسْرَتَنَاحُ إِلَى نَسْدَاهُ
 مَا الصَّبِيحُ وَفَخَاحُ لَوْلَا سَنَنَاهُ
 فَالْبَيْتُ مِنَ الْمَجْدِ بُرْدَا مَعْقُدَا وَانْظِمَّ مِنْ
 السُّنْفَرِ (٣) دُرَّاءُ مَنَظَرِ

لَهُ مَا أَعْلَى فِي كُلِّ حَالٍ
 مَلِكٌ قَدْ اسْتَوَلَى عَلَى الْكَمَالِ
 مُقْلَدٌ نَضْلَا مِمَّنِ السَّجَلَالِ

• يرد في «حبش التوشيح» ص ١٠٥، و«المغرب» ٢/٢٣٢ (وأهمل محقق الجيـش
 — لأمر ما — أن يقابل بين النصين)

(١) الجيـش : الدرار

(٢) المغرب : على ورد (وذكر المحقق أنها في الأصل : على ود)

(٣) الحس : من الفجر

، ابن مالك الرقسطي (أبو بكر أحمد) المتوفي سنة ٥٧١ هـ :

ماذا حَمَلُوا فَوَادَ الشَّجِي يَوْمَ ودَعُوا
مالي بِالسَّوَى يَدُ تَسْتَطَاعُ
وَنَارُ الْجَوَى يُذَكِّيها السَّوَادُ
وَمِيرُ السَّوَى بِدَمْعِي يُذَاعُ (١)
بِالسَّحْبِ تَهِيلُ (٢) عِيُونُ وَتَلْتَاغُ أَضْلَعُ
هَلْ يُرَجِّي إِيَّابَ لَعَهْدِ الْحَبَائِبِ
إِذْ غَصَنُ الشَّبَابِ (٣) مَطْلُوكُ الْجَوَانِبِ
وَوَصَلَ الْكَيْمَاتِ مَبْذُولُ الْمُطَالِبِ
فَلَا تَبْخُلُ بِالسَّوَالِ وَلَا الصَّبُّ يَقْنَعُ
لَا أَسْأَلُ وَلَا أَصْنِي لِلْوَاجِي
بِأَصْبُو إِلَى قَضِيمِ الْوَشَاجِ
فَجِيلُ الظَّلَا (٤) مَا بَيْنَ الْأَقْجَاجِ
فَلَوْ يَسْعِدُ مَابِتُ (٥) أَظْهًا وَيَنْقَعُ
كَمْ ذَا تَهَجَّعُ وَجِئْتَنِي سَاهِرُ
بَدْرُ يَطْلُعُ (٦) فِي الصُّبْحِ لِنَظَرِ (٧)
لَهُ بُرْقُعُ مِنْ سَوْدِ الظَّفَائِرِ (٨)
إِذْ تُبَلُّ قَشِشٌ بِلِيلِ تَقْنَعُ
قَدْ ذُو أَعْيَالٍ مِنْهُ الْغَصَنُ اللَّدُنُ

• النص في «المغرب» ٤٤٦/٢ هـ «جيس التوشيح» ص ٢١٨

(١) جيس : بالدمع

(٢) جيس : فكم نهم

(٣) جيس : إذ غص

(٤) المغرب : بجيل

(٥) المغرب : لمابت

(٦) جيس : طوي يطلع (٧) جيس : لافر (٨) جيس : الظفائر

يَهْرُ لِلْحَمْدِ (٤) نَضْلًا مُهْتَدٍ يَهْبُ بِالنَّصْرِ فِي كُلِّ مَشْهَدٍ

انسيم من الحُسنى	بِكُلِّ	حُسْنٍ
في الشَّرفِ الأسمى	وظِلِّ	أَمْنٍ
يا صِدْقَ مَنْ غَبْنَى	وَأَنْتَ	يَسْمَى
ما كوكبُ المجدِ	فرايةُ الامرِ	عليه تُعَقَّدُ

• • •

(٤) الجينس : يَهْرُ

مَمْشُوقُ الدَّلَالِ بِنَا (٩) ثُمَّ يَرْنُو
بِمَعِينَتِي غَزَالٍ فَاحْذَرْ حِينَ يَدْنُو
لِحَظِّ يَرِيحٍ سَهَامَا لَهَا الْقَلْبُ مَوْقِعُ
مُنَى النَفْسِ كَمْ تُزْقَى بِالتَّجَنُّي
فَيَا بِلَدِّكُمْ صَلِّ بِمَضَى التَّي
لَمَنْ لَمْ يَنْتُمْ وَبَاتَ بِفَنَائِي
أَسْمَرُ حَلَوِ بِيَاضِ كُلِّ عَاشِقٍ يَبِيتُ مَعُو (١٠)

• • •

(٩) كَذَا فِي النَّصِّ ، وَلَعَلَّهَا بِنَا

(١٠) فِي الْمَغْرِبِ : مَعَ

١ ابن زهر (الحفيد) المتوفي سنة ٥٩٥ هـ : ٥١

أَيْهَا الشَّاقِي إِلَيْكَ الْمَشْتَكِي
قَدْ دَعَوْنَاكَ وَإِنْ لَمْ تَسْمَعْ
وَنَسِيحٌ مِمَّنْ فِي غُرَّتِهِ
وَبِشْرِبِ الرَّاحِ مَنْ رَاحَتِهِ
كَلِمَا اسْتَيْقِظَ مِنْ سُكْرَتِهِ
جَذَبَ الرُّقَّ إِلَيْهِ وَاتَّكَى
مَالِيعِيْنِي غَمِيَّتٍ بِالشُّظْرِ
أَنْكَرْتُ بِمَعْدَكَ ضَوْءَ الْقَمَرِ
وَإِذَا مَا شَتَّتْ فَبَسْمِخٍ خَبَرِي
غَمِيَّتْ عَيْنَايَ مِنْ طَوْلِ الْبُكََا
وَبَكَى بَعْضِي عَلَى بَعْضِي مَعِي
غَصْنٌ بَانَ مَالٌ مِنْ حَيْثُ اسْتَوَى
بَاتَ مَمْنٌ يَهْوَاهُ فِي فَرْطِ الْجَوَى
خَفَقَ الْأَحْشَاءُ مَوْهُونُ الْقَوَى
كَلِمَا فَكَّرَ فِي السَّبِينِ بَكَى
وَبَحَى يَبْكِي لِمَا لَمْ يَتَّقِ
لَيْسَ لِي صَبْرٌ وَلَا لِي جَلَدٌ
بِالسَّقُومِي عَذَلُوا وَاجْتَهَدُوا
أَنْكَرُوا شَكْوَايَ مِمَّا أَجِدُ
مِثْلُ حَالِي حَقُّهَا أَنْ تَشْتَكِي
كَبِيدِي حَرَّى وَدَمَمِي يَكِثُ
تَعْرِفُ الذَّنْبَ وَلَا تَعْتَرِفُ
أَيْهَا الْمَعْرِضُ عَمَّا أَصِفُ
قَدْ نَمَّا حُبِّي بِقَلْبِي وَزَكَ لَا تَخْلُ فِي الْحُبِّ أَنِّي مُدَّعِي

• رد الموشحة في العديد من المصادر من بينها «المغرب» ٢٦٧/١ و «دار الطراز» ص ٧٣ (غير منسوبة) و «معجم الادباء» ٢١٩/١٨ و «المطرب» — غير كاملة — ص ٢٠٠ و «الموافي» ٤٠/٤ و «توسيع التوشيح» ص ١٢٦ (وقابل محقق التوشيح النص على المصادر السابقة ومن ثم لم نر ضرورة لرميد كل الخلافات) كما ترد في : «عيون الأنباء» — ص ٥٢٦ وفي «جيش» ص

حَتَّى السَّوْجُوهُ الْإِذَاحَا وَحَتَّى سَوْدَ (١) الْمُيُونِ
 هَلْ فِي الْمَوَى مِنْ جُنَّاجِ
 وَفِي (٢) نَسِيدِيْمٍ وَرَاجِ
 رَامِ النَّصْرُوْجِ (٣) صِلَاجِي

وَكَيْفَ أَرْجُو صِلَاحَا بَيْنَ الْمَوَى وَالْمُجُونِ
 يَاغَثَائِبَا لَا يَغِيْبُ
 أَنْتَ الْبَعِيدُ الْقَرِيبُ
 كَمْ تَشْتَكِيكَ (٤) الْقُلُوبُ

أَتَخَنَّنُهُنَّ جِرَاحَا وَاسْأَلْ سَهْمَ الْجُفُونِ (٥)
 أَبْكَى الْعَمِيونَ الْبَوَاكِي
 تَذَكَّرَ أَخْتِ السُّمَّاكِ
 حَتَّى حَمَامٍ الْأَرَاكِ

بَكِي بِشَجْوٍ وَنَاحَا عَلَى فُرُوعِ الْفُصُونِ
 أَلْقَى إِلَيْهَا زِقَامَهُ
 صَبَّ يَسْدَاوِي غَرَامَهُ
 وَلَا يَطْطِيقُ السَّمْلَامَهُ

٢٠٢ وديوان ابن المعتز (ط . القاهرة ١٨٧١)، بعناية عزيز زند والنسبة لابن المعتز غير صحيحة كما بينا ونجىء كذلك في «الغذاري المائسات» ص ٥ وفي «عقود اللاك» - مخطوطة الاسكوريال - ورقة ٦ وسنذكر الفروق بين النسخ عند تحقيقنا للكتاب الاخير

• ترد الموشحة في «المغرب» ٢٧٣/١ وفي «نوشيع» ص ١٠١ وفي «عيون الانباء» ص ٥٢٧

(١) المغرب : نجل . طبقات : كحل (٢) المغرب : اوفى (٣) المغرب : النصيح
 (٤) عيون : تشتكيك (٥) المغرب : فاترك . عيون الانباء : سهام العيون

غدا بشوقٍ وراحا ما بين مَنبِي الطُّنُون
يساراجلا لم يـودَّغ
رحلت بالأنسِ أجمَع
والمجزُ يُعطِي وَيَمْنَع
مَرُّوا وأخفوا الرُّوحا عني وما ودَّعوني (٦)

• • •

(٦) عيون : سحر وماودعتني

• محيي الدين بن عربي (المتوفي سنة ٦٣٨ هـ):

عندما لاح لعيني المشكا ذبتُ شوقاً للذي كان معي

أهـا البيـتُ السـنـيقُ المشـرُفُ
جاءك العـبـدُ الضـعـيفُ المـسـرُفُ
عـيـثُـه بـالـلـعـ دوما تـذـرُفُ

فـرـيـةً مـنـه و تـكـرُّفـاً لـبـكا لـيـسَ مـحـموداً إذا لم يـنـقـع

كـلـما عـدـدـتُ فـيـه قـال لـي
لـيـس هـذا فـيَّ بـل فـي أـيـس لـي
سأرى حـكـمَ قـلـيـبٍ قـد بُـلـيـ

بـهـراها مـسـتـفـيئاً قـد شـكا وأنا أـعـلـمُ شـكـوى الجـرـع

أشـرقتُ شـمـسٌ لـه ما شـرقتُ
فـرأـيـناها بها إذ شـرقتُ
أرعدتُ سـعـبٌ لـها ما أبـرقتُ

فـعـلـمـنا أنه حـيـنَ بـكى ما بـكـى إلا لـأمرٍ مـوجـع

مـرَبـي فـي لـيـلـة لـيـسَ لـها
آخـرٌ و الـصُّبـح قـد جـلـلـها

• اننص في «الديوان الاكبر» ط. حجر (بومباي) ص ٢٠٢ وغنى عن الذكر
ان الموشحة على نسق قول ابن زهر «ايها الساقى اليك المشتكى»

والذي حرّمها حلّها

وانتدى يطلب وصلي واتكى ومضى اذ وقضا لم يرجع

أها التافي اسبقني لا تأتل
فلنقد أتمت فيكيري غدلي
ولقد أنشد ما قيل لي:

أها التافي اليك المثنكى ضاعت الشكوى إذا لم تنفع

...

• ابن سهل الإشبيلي (المتوفي نحو سنة ٦٥٠ هـ) :

هل درى طسّي الجِمْى أن قد حمى
فهو في حرّ وخفق متلماً
باندوراً أشرقنت يوم النّوى (١)
ما لنفس في الهوى ذنب يسوى (٢)
أحسنى اللذات مكلوم الجوى
كلما أسكوه وجدي بسمّا (٣)
إذ يقيم القطر فيه مائثماً
غالت لي، غالت بالتؤدة
ما علمنا مثل تغرنصدة
أخذت عيناه منه القزبده
فاجمّ اللّمة معسول اللّقى
وجهه يتلو « الضّحى » مبتيماً
أها السائل عن جرّمي لديه
أخذت تمسّ الضّحى من وجنتيه
ذهب الدمع بأشواقى البه
قلبت صبّ حله عن مكس
لعبت ريح الصّا بالقّس
غرراً تسليك، نهج الغرّ (٤)
مكمّ الحسنى ومن عيني التّطرّ (٥)
والتداني من حبيبي بالفكر
كالرّبي بالعارض المنجس (٦)
وهي من بهجتها في غرس (٨)
بأبي أفديه من جاف رقيق
أفحواً عصرت منه رجيق (٩)
وفوادي سكّره ما إن يفيق (١٠)
ساجر الغنّج شهّي اللّمس (١١)
وهو من إعراضه في « غبّس »
لي حزاء الذّنب وهو المذنب
مشرقاً للشمس فيه مغرب
وله حدّ بلحظي مذهّب

• النص في ديوانه (ط. احسان عباس) ص ٢٨٣، وفي « نفح الطيب »
٢٧١/٩، وعقود اللاك - مخطوطة الاسكوريال - ورقة ٦٧، وهناك بعض
اختلاف في ترتيب الأفعال والأبيات.

- (١) نفح والديوان : اطلعت
- (٢) الديوان : نسلك بي. عقود : غرر نسلك
- (٣) الديوان : ما لنفس وحدها
- (٤) عقود : الحسن
- (٥) الديوان : التذاذي
- (٦) الديوان : واذا اشكو بوحدي. عقود : كلما اشكو بوجد ناسا
- (٧) الديوان : والعارض
- (٨) عقود : فهي (٩) عقود : أفحوا (١٠) عقود : لا يطبق
- (١١) عقود : الحمة اكحل الطرف (وينقض بعدها القفل والبيت التالي)

بَنَيْتُ الْوَرْدَ بِسُفْرِيسَ كَلِمًا
لَيْسَتْ شُعْرِي أَثَى شَيْءٍ حَرَمًا
كَلِمًا أَشْكُو إِلَيْهِ حُرْقَتِي
نَرَكْتَ الْحَاطِظَ مِنْ رَمَقِي
وَأَنَا أَشْكُرُهُ فِيمَا بَقِيَ (١٤)
فَهُوَ عِنْدِي عَادِلٌ إِنْ ظَلَمًا
لَيْسَ لِي فِي الْأَمْرِ حَكْمٌ بَعْدَ مَا (١٥)
أَضْرَمَ الدَّمَغُ بِأَحْشَائِي ضِرَامٌ
هَتَى فِي خَدَّيْهِ بَرْدٌ وَسَلَامٌ
أَتَقِي مِنْهُ عَلَى حَكْمِ الْفَرَامِ
قُلْتُ - لِمَا أَنْ تَبْدَى مُفْلَمًا
أَيُّهَا الْآخِذُ قَلْبِي مَفْنَمًا

لَا حِطَّتْهُ مَقْلَتِي فِي الْخُلْسِ
ذَلِكَ الْوَرْدَ عَلَى الْمُفْتَرِسِ
غَادَرَنِي مَقْلَتَاهُ ذَيْفًا (١٢)
أَثَرَ النَّمْلِ عَلَى صُمِّ الصَّفَا (١٣)
لَسْتُ الْحَاهِ عَلَى مَا أَتْلِفَا
وَعَدُولِي نَطْقُهُ كَالْخَرَسِ
حَلَّ مِنْ نَفْسِي مَحَلَّ النَّفْسِ
تَنْلِظِي كُلَّ حِينٍ مَا نَشَأَ (١٦)
وَهِيَ ضَرْوُ حَرِيقٍ فِي الْحَشَا (١٧)
أَسَدًا وَزْدًا وَأَهْوَاهُ رَشْمًا (١٨)
وَهُوَ مِنَ الْحَاطِظِ فِي حَرَسِ
أَجْعَلِ الْوَضْلَ مَكَانَ الْخُمْسِ

• • •

(١٢) الديوان : من اذا امل عليه حرقى طارحتى مقلته الدنفا

(١٣) الديوان : تركت اجفانه (١٤) الديوان : وانا اشكره

(١٥) عقود : ليس لي في الحب

(١٦) الديوان : تقدت دمي نار في ضرام تلتظي... مايشا . عقود : منه للنار.

(١٧) عقود : وهي منار (١٨) عقود : اسد الغاب

● ابن خاتمة الانصاري (المتوفى سنة ٧٧٠ هـ)

قُمْ هَاتِيهَا قَهْوَةٌ كَدَمِيحٍ مَهْجُورٍ قَدْ أَفْرَطْتُ إِفْرَاطًا فِي اللَّطْفِ وَالنُّورِ
هَذَا الرَّبِّي تَحْتَالُ فِي حُلِّي الزَّهْرِ
قَدْ سَحَبْتُ أَذْيَالُ بِرُودِهَا الْخُضِرِ
وَرَقَّتِ الْأَصَالُ لِقَبْرِ الْقِظْرِ
فَافْتَرَّ عَنْ حُورِ (١) ثَغِيرُ الْأَزَاهِرِ وَنَمَّ عَنْ أَحْلَاطِ مَسْكٍ وَكَافُورِ
فَهَاتِيهَا قَدْ بَانَ لِعَاذِلِي عُذْرِي
فِي نَغْمَةِ الْعِيدَانِ وَرَنَةِ الزَّمِيرِ
وَالْتِمِ ظِلِّي الْقُطْعَانِ (٢) وَأَرْشَفَ لَمِي الْخَمِيرِ
رُضَابَةٌ حُلْوَةٌ كَذُوبٍ بِلُورِ تَحْتَالُ فِي أَسْمَاطِ مِسْ جَوْهَرِ الثُّورِ
يُدِيرُهَا تَبَيَّاهُ كِبَالِ الصُّبْحِ مَرَّاهُ
إِنْ أَخْطَأْتُ كَفَّاهُ سَقَنَكَ عَيْنَاهُ
لِلَّهِ مَا أَهْيَاهُ وَمَا اتَّخَيْلَاهُ
غَصْنٌ عَلَى رَبْوَةِ الْحَاظِ يُعْفُورِ (٣) مَجْمُورُ الْأَفْرَاطِ طَلِقُ الْأَسَارِيرِ
أَهْ وَمَنْ يُبْلِي حَرَبَانُ يَسْدِي
لَشَدَّ مَا حَلَا بِالصَّبِّ مِمْ وَخَدِ
يَاعَاذِلِي مَهْلًا فَالْعَذْلُ لَا يُجْدِي
مَا أَبْعَدَ السَّلْوَةَ عَنْ قَلْبٍ مَذْعُورِ تُبِمَ فِي فُطَاطِ بَسْدِرِ دَبْحُورِ
رَفَقَا مُنَى قَلْبِي بِقَلْبِ هَيْمَانِكَ
قَدْ زَادَ فِي كَرْبِي فَنُورُ أَجْفَانِكَ
اللِّسَّةُ فِي صَبِّ بَنِيْلِ إِحْسَانِكَ
يَا صَاحِبَ السَّظْلَةِ وَارْفُقْ بِمَهْجُورِ أَضْغَطْنِي إِضْغَاطَ (٤) يَافْتَنَةَ الْخُورِ

● من ديوان ابن خاتمة الأنصاري تحقيق د. محمد رضوان الدابة (١٩٧٢م) ص ١٦٢، وعلق المحقق على النص بقوله إن: الموشح تام من ستة أفعال وخمسة أغصان وهو موشح غير شعري والخرجة عامية ولانفق معه في تعبير «اغصان» ولا في قوله : ان الخرجة بالعامية فهي خرجة فصيحة ونوتر تسمية «الابيات» بدلا من الأغصان لأنها هي التي عليها ابن سناء الملك.
(١) الحوة : السمرة في الشفة (٢) لعل المراد هنا : صفار الطباء (٣) البعفور : ولد الطي (٤) لاشك في أن التعبير سيء ولعل لقافية الطاء اثرا في هذه الركابة

• لسان الدين بن الخطيب (المتوفى سنة ٧٧٦ هـ) :

جَاذَكَ الْعَيْتُ إِذَا الْغَيْثُ هَمِي
لَمْ يَكُنْ وَصْلُكَ إِلَّا حُلْمًا
إِذَا يَفْقُودُ الدَّهْرُ أَشْتَاتَ الْمُنَى
رَمَرَا بَيْنَ فَرَادَى، وَثُنَا
وَالْحَبِيبَا قَدْ جَلَّلَ الرُّوْضَ سَنَا
وَرَوَى النِّعَمَانُ عَنْ مَاءِ السَّامَا
فَنَكَّاهُ الْحَسَنُ ثَوْبًا مُغْلَمًا
فِي لِبَالٍ كَتَمَتْ سِرَّ الْهَوَى
فَمَالَ نَحْمُ الْكَأْسِ فِيهَا وَهَوَى
وَطَرِ مَافِيهِ مِنْ عَيْبٍ يَسْوَى
حِينَ لَدَّ الْأَنْسُ شَيْئًا أَوْ كَمَا
غَارَتِ الشَّهْتُ بِنَا أَوْ رَتَا
أَيُّ شَيْءٍ لَا مَرَى قَدْ خَلَصَا
تَنْهَبُ الْأَزْهَارُ مِنْهُ الْفُرْصَا (٣)
فَإِذَا الْمَاءُ تُنَاجَى وَالْخَصَا
تَبْصُرُ الْوَرْدَ غَيُورًا بَرَمَا
وَتَسْرِى الْأَسَّ لِسَبِيْبًا قَهَا
بِأَهْلِيلِ الْحَيِّ مِنْ وَادِي الْقَضَا
ضَاقَ عَنْ وَجْدِي بِكُمْ رَحْبُ الْقَضَا
وَأَعْبَدُوا عَهْدَ أَنْسٍ قَدْ مَضَى

يَا رَمَانُ الْوَصْلُ بِالْأَنْدَلِيسِ
فِي الْكَرَى أَوْ خُلَّتْهُ الْخُطْبُوسُ
يَنْقُلُ الْخَطْوَةَ عَلَى مَا يَرْمُسُ
مِثْلَ مَا يَدْعُو الْوَفُودَ الْمَوْسُ
فَنَفُورُ الزَّهْرِ مِنْهُ بِبَسْمُ (١)
كَبِقَ يَرْوِي مَا لَكَ عَنْ أَنْسٍ
بِزْدِهِي مِنْهُ بِأَزْهَى مَلَسِ (٢)
بِالذُّجَى لَوْلَا شَمُوسُ الْفُرَرِ
مُسْتَقْبِمُ السَّيْرِ سَعْدُ الْأَثَرِ
أَنَّهُ مَرَّ كَلِيمُجِ الْبَصْرِ
هَجَمَ الصَّبْحُ هَجُومَ الْخَرَسِ
أَثَرَتْ فِيهَا عَيْوُنُ النَّرْجِسِ
فَنِيْكَوْنُ الرُّوْضُ قَدْ مَكَّنَ فِيهِ
أَمِنْتُ مِنْ مَكْرِهِ مَا تَنْقِيهِ
وَحَلَا كُلُّ خَلِيلٍ بِأَخِيهِ
يَكْتَسِي مِنْ غِيْظِهِ مَا يَنْكُنِي
يَسْرِقُ السَّمْعَ بِأَذْنَى قَرَسِ (٤)
وَيَقْلِبِي سَكَنٌ أَنْتُمْ بِهِ (٥)
لَا أَبَالِي سَرْقَهُ مِنْ غَرِبِهِ
تَعْتَقُوا عَابِيَكُمْ مِنْ كَرِبِهِ

• يرد النص كاملا في «النفح الطيب» ٢٢٥/٩ (ويأتي معظمه في «مقدمة» ابن خلدون ٣/٣٩٩) وفي مصادر أخرى منها «عقود اللاك» - مخطوطة الاسكوريال -

(١) عقود : ومقدمه : فسنا الازهار فيه

(٢) عقود ومقدمة : يا بهي

(٣) عقود ومقدمة : فيه الفرصا

(٤) «مقدمة» : يا أذن فرس

(٥) مقدمة : مكن

واتقوا الله وأطيعوا ما أمروا
 خَبَسَ القَلْبَ عَلَيَّكُمْ كَرَمًا
 وبِقَلْبِي مَكْمُومٌ مَقْبُورٌ
 قَرُّ أَطْلَعَ مَعَهُ الْمَغْرِبُ
 قد تساوى محيرٌ أو مذنبٌ (٧)
 ساحر المقلية معسولٌ اللَّمِي
 سَدَّ السَّهْمَ وَسَقَى وَرَقَى
 إن يكن جَارَ وَخَابِ الأَمَلِ
 فهو للنفسِ حَسِيبٌ أَوَّلُ
 أمره معسَلٌ مَسْتَلٌ
 حَكَمَ اللَّحْظَ بِهَا فَاحْكَمَا
 منصفُ الظلومِ مَثْرُ ظِلْمَا
 ما لِقَلْبِي كَلَامًا مَبْتُ ضَا
 كان في اللوحِ لَهُ مَكْتَتَبًا
 جَلَبَ الهَمَّ لَهُ وَالْوَصَبَا
 لَاعِجٌ فِي أَضْلَعِي قَدْ أَضْرَمَا (٩)
 لم يدغ في مُهَجَنِي إِلَّا ذِمَا
 سلمى بِنَفْسٍ فِي حَكَمِ القضا
 دَعَاكَ مِنْ ذَكَرِي زَمَانٌ قَدْ مَضَى (١١)
 واصر في القولِ إِلَى المولى الرضا
 الكَرِيمُ المنتهى والمستقى
 ينزل النصرُ عَلَيْهِ منل ما
 مصطفى الله سَمِي المصطفى

بتلاشي نَفْسًا فِي نَفْسٍ
 أفسرَضُون عَمَاءَ (٦) الْحَسِي
 بأحاديثِ الثُّمْنِي وهو عَيْدٌ
 سَقَوَ المَغْرَى بِهِ وهو سَعِيدٌ
 في هَوَاهُ سَيْنٌ وَعِيدٌ وَوَعِيدٌ
 جال في النفسِ مجالَ النَّفْسِ
 فهوَادِي نَهْبَةُ المَفْنَرِ
 وفؤاد الصَّبِّ بالسُّنُوفِ بدو (٨)
 ليس في الحبِّ محسوبٌ ذنُوبٌ
 في ضُلُوعٍ قَدْ سَراها وَقُلُوبٌ
 لم يرافِقَ فِي ضِعَافِ الأنْفُسِ
 ومُحَارِي السَّرِّ منها والمُسي
 عَادَةُ عَيْدٌ مِنَ الشُّوقِ جَدِيدٌ
 قوله «إِنَّ غَدَائِي لَشَدِيدٌ»
 فهو لَلْأَشْجَانِ فِي جَهْدٍ جَهِيدٌ
 فهي نَارٌ فِي هَيْبِ السَّيْسِ
 كِبَاءِ الصَّبِّ بَعْدَ الْفَلَسِ
 وأعمري الوقتُ برُجْعِي ومَنَابُ
 بن عُتْبَى قَدْ تَقَضَّتْ وَعَتَابُ
 ملهْمُ التَّوْفِيقِ فِي أَمِّ الْكِتَابِ
 أسد السَّرحِ وبدر المَجْلِسِ
 ينزل الوحيُّ بِروحِ القُدْسِ (١٢)
 الغيبي باللهِ عَنْ كُلِّ أَخَذِ

(٦) عقود : خراب

(٧) مقدمة : ومذنب

(٨) عقود : وفؤادي

(٩) مقدمة : لاعج من

(١٠) مقدمة : لا الدما، عقود : لا دما كبقايا

(١١) عقود : من ذكر

(١٢) ينتهي هنا النص في المقدمة

مَنْ إِذَا مَا عَقَّدَ الْعَهْدَ وَفِي وَإِذَا مَا قُتِّحَ الْخَطْبُ عَقَّدَ (١٣)
 مِنْ بَيْتِ قَيْسِ بْنِ سَعْدٍ وَكَفَى حَيْثُ بَيْتُ الصَّرْمَرِ مَرْفُوعُ الْعَقْدِ
 حَيْثُ بَيْتُ الصَّرْمَرِ مَحْمُودُ الْجَمَى وَحَنَى الْفَضْلُ رَكْبِي الْمَغْرَسِ
 وَاهْوَى ظِلُّ ظَلِيلٍ خَتْمًا وَالسَّيِّ هَبَّ إِلَى الْمُغْتَرِسِ (١٤)
 هَاكُنَّهَا يَاسِبُظْ أَنْصَارِ الْعُتْلَا وَالَّذِي إِنْ عَتَسَرَ الْبَدْهَرُ أَقَالَ
 غَادَةُ الْبَسْهَاءِ الْحَسَنُ مُلَا (١٥) تَهَرُّ الْقَيْنِ جَلَاءُ وَصِقَالَ
 عَارِضَتْ لَمَطًا وَمَعْنَى وَحُلَا قَوْلَ مَنْ أَنْطَقَهُ الْحَبُّ فَقَالَ:
 هَلْ دَرَى طَبِيَّ الْجَمَى أَنْ قَدْ حَقَى فَلَسَبَّ صَبُّ حَلَّةٍ عَنْ مَكْنَسِ
 فَهُوَ فِي حَرٍّ وَخَفِيفٍ مِثْلَ مَا لَعِبَتْ رِيحُ الصَّبَا بِالْقَبَسِ

• • •

٠٢

بِأَحَادِي الْجَمَالِ عَرَّجَ عَلَى سَلَا (١) قَدْ هَامَ بِالْجَمَالِ قَلْبِي وَمَا سَلَا
 عَرَّجَ عَلَى الْخَلِيجِ وَالرَّهْلِ فِي الْحَقَى
 فِي الْمَنْظَرِ الْبَهِيحِ بِالْبَيْضِ كَالْدُمَى
 وَالْأَبْطَحِ النَّسِيحِ مِنْ صَنْعَةِ السَّامَا

(١٣) عقود : فتح

(١٤) عقود : نهب

(١٥) عقود : حلا

* النص في «نفاضة الجراب في علالة الإغتراب» لابن الخطيب، تحقيق
 د. أحمد مختار العبادي، ص ١٦٩. ويضم الكتاب موشحة أخرى لابن
 الخطيب، مطلعها :

قَدْ قَامَتِ الْحُجَّةُ فَلْيَعْذِرِ الْعَاذِرُ فَالْعَذْلُ لَا يَجْدِي
 شَيْئًا سِوَى الْكَرْبِ وَشَقْوَةُ الْخَاطِرِ وَشِدَّةُ الْوَجْدِ
 (ص ١٦٧) وَصَدَرَهُمَا ابْنُ الْخَطِيبِ بِقَوْلِهِ :

«وَنظِمْتُ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ (وَرَجَّحَ الْمُحَقِّقُ فِي الْمَقْدَمَةِ، ص ٤ أَنْ
 الْكِتَابَ لَمْ يُؤَلَّفْ فِي الْفَتْرَةِ مَا بَيْنَ سَنَةِ ٧٧٣ - ٧٧٦ أَيْ الْفَتْرَةَ الْأَخِيرَةَ مِنْ
 حَيَاةِ ابْنِ الْخَطِيبِ الَّتِي قَضَاهَا فِي مَفَاهِ الْأَخْتِيَارِيِّ بِالْمَغْرِبِ الْأَقْصَى بَلَى أَكْد =

لَقِيَ مِنْ جَلَالِ تَخَنُّنِكَ فِي حُلَا
وُطِفَ مِنَ الرَّبَاطِ
بِرُكْبِي طَائِفِ
دَارِ الْخِلَافِ
مُسْتَدْسِ الْمَوَاطِ
جِسْمِ الْعَوَارِفِ
كَمْ مِنْ سِنَا هِلَالٍ بِأَفْقِهِ أَنْجَلِي
أُجْنِي النَّعِيمِ دَائِ
أَهْلَةُ الشَّوَانِي
فِي أَفْقِهِ تَسِيرُ
وَقَهْوَةُ الدَّانِ
يُدِيرُهَا مُدِيرُ
أَغْرُ كَالْغَزَالِ مَقْلَدُ الظَّلَا
يَسْطُورُ لَا يَأْلِي بِالْإِسْدِ فِي الْفَلَا

أُولَى إِلَيْكَ أَوْلَى
أَكْثَرُ فِيهِ قَوْلَا
خَذَ فِي امْتِدَاحِ مَوْلَى
مُتَجِدِ الْجَلَالِ مُشْتَهَرِ الْعُلَا
مِنْ ذِكْرِ مَعْدِ
فِي كُلِّ مَشْهَدِ
نَسَبِ مَوْيِدِ
قَدْ فَاقَ فِي كِمَالِ وَرَاقِ مُجْتَلَا

مِوَافِقُ الْخَلِيلِ
ذِي الْمَنْظَرِ الْجَمِيلِ
مُكْرَمِ الدَّخِيلِ
وَمَحِيبِ الثَّوَالِ لِمَنْ تَوَسَّلَا
فِي الْأَسْمِ وَالسَّمَائِ
الرَّائِقِ الصِّفَاتِ
وَمُجْزِلِ الْمَسَائِ
وَرَافِعِ الْمَعَالِي سُخْباً مُظْلَلَا

بِأَمْنِ غُلَاهِ دَرْتِ
خُذَهَا إِلَيْكَ جَرْتِ
وَفِي حُلَالِ أَزْرْتِ
بِأَمْنِزَلِ الْغَزَالِ حَبِيتَ مَنِرَلَا
كُلَّ نَائِلِ
دَيْلِ الْخَمَائِلِ
بِقَوْلِ فَائِلِ:
فَمَا أَرَى بِسَالٍ عَنْهُ وَإِنْ سَلَا

« أن الكتاب ألف خلال المدة التي كان فيها ابن الخطيب برفقة السلطان محمد الخامس الغني بالله عندما خلع وأقام بالعدوة. أي من سنة ٧٦٠ إلى سنة ٧٦٣) موشحتين استطردت فيما إلى مدح السلطان، تنويعاً في الوسائل، وسيراً للفرجة ».

(١) مدينة بالمغرب الأقصى على المحيط، وأقام بها ابن الخطيب فترة في خلال مدة عزل السلطان، الغني بالله.

• ابن رمرک (المتوفى سنة ٧٩٥ هـ) :

نسيمُ غرناطيةٍ عليلُ	لكنةٌ يبرىءُ العليلُ
وروضُها زهرٌ بلبلُ	ورشفةٌ يققُ القلبيلُ
سقى بنجدٍ رُبا المصلّى	مباكِراً روضه العمامُ
فجمنه كلما استهلاً	تبسم الزهرُ في الكمامُ (١)
والروضُ بالخُني قد تجلى	وجرد النهرُ عن حُتامُ
ودوحها ظلُّه ظليلُ	يحسُنُ في ريعه المقيّلُ
والبرقُ واخِرُ مستطيلُ	يلعب بالصارم الصّقيّلُ
عقيلةٌ ناحها الشبيكةُ	تطيلُ بالمرقب المنيفُ
كانها فوقه مليكةُ	كرسيُّها جنة القريبُ
نطبعُ من عسجدٍ سبيكةُ	شموشها كلُّها تطيفُ (٢)
أبدعها الخالقُ الجليلُ	يامنظرا كلُّه جميلُ
قلبي إلى حسنه يميلُ	وقبلنا قد صبا جميلُ (٣)
وزاد للحسن فيك حسنا	محمدُ الحميدُ والسّمّاخُ
جدّد للفخر فيك مغنى	في طالع اليمى والنّجّاخُ (٤)
تدعى رشاداً وفيك معنى	يغصّك الفناء بافتناخُ (٥)
فالنصرُ والسعدُ لا يزولُ	لأنه ثابتُ أصيلُ

• النص في «نفح الطيب ١٠٤/١٠ يتصدرها:» وقال أيضاً من الموشحات الرائقة، في مثل هذه السابقة (إشارة لموشحة: «بالله يا قامة القضيبي» في الشوق الى غرناطة ومدح الغنى بالله) وأشار الى محاسن، من وصف الرشاد. ويرد النص في «الغذاري المائتات» ص ٣٤ يتصدرها: «وقال متشوقاً الى غرناطة ومادحا السلطان ايده الله نصره»

(١) في النفح: «فحفنه كلما استهلاً» في الغذاري ينسم

(٢) في النفح: كلما تطيف

(٣) في النفح: وقلبنا

(٤) في النفح: فيك منى

(٥) في الغذاري تدعى دنارا

سعد وأنصاره قبيل
أبدى به حكمة القدير
ودرع النهر بالسفير
فمن هدبل ومن هدبر
هبت على روضها القول
فلم يزل بيئها يحول
للزهر في عطفها رقوم
والسدى بينها رشوم
وكسل واد بها يم
سنبأها مده منه نيل
وعين واد له تسيل
كم من ظلال به ترف
ومن زجاج به يصف
ومن شمس به تحف
مزاجها العذب لسيل
وكيف والشيب لي عذول
ياسرحه في الحمى ظليلة
روضك الله من خيلة
وبرقها صادق المائلة
أنجز لي وعدك القبول
ياسرحه بامطلول

آبائة عنرة الرسول
وتوج الروض بالقفات
وريس الزهر بالحناب (٦)
ما ألع الحنن بالشباب
وطرفها بالشري كيل (٧)
حتى نبذت له حجون
تلوح للعين كالنجوم
عقد الندى فوقها نظيم (٨)
ولم يزل حولها يحوم
والسفن الف لمسيل (٩)
من فوق حد له أسيل (١٠)
تطفو له فوقها شوز
ما بين نور وبين نور
تديرها بينها البدوز (١١)
ياهل إلى رشفها تبيل
وصبغة صفرة الأصيل
كم نلت في ظلك المني
بجنى بها أطيب التجنى
ما زال بالغيب محينا
فلم أقل مثل من يقول:
شرح الذي بيننا يظول

(٦) في النفع: ودرع الزهر... وزين النهر

(٧) في النفع: كب على روضها

(٨) نفع: فوقه

(٩) في النفع: شيلها

(١٠) نفع: بها نيل

(١١) في النفع: به تصف

• اللخمي الفرناطي (أحمد بن علي)، من شعراء القرن التاسع الهجري :

حيّاك بالأفراج داعي الضّباح قم لاصطباح

فالنوم في شرع الهوى لا يُباح

والصبحُ قد جرّده منه حُسام	باد القسام
تضحّى وجوه الزّهر منه وتام	ذات ابتسام
وحامُ جنح الليل قد عاد سام	مما يُسام
وخافقُ البرق بدا بالنّياخ	سامي اللّياخ

وأدُمع المُزِن به في انسيّاخ

والروضُ من ذاك المتهون البليل	ظِلّ ظليل
يغدو نيم الزهر منه عليل	يشفي القليل
وساجعُ البلبِل يُبدي أليل	على الخليل
لما رأى تلك الغياضُ الفِساخ	غنى وصاخ

وكساد يزري بالطيور الفِصاخ

إنّي بذكري للتاصيبي أطيّب	عن كلّ طيب
كأنّما تذكّره لي مطيب	غَضّ رطيب
حتى إذا ما قتُ فيه خطيب	بما يَطيّب
أنت مدحي للصفات المِلاخ	عبي الصّلاخ

• ترد في «العذارى المائسات» ص ١٨ تسبقها جملة «قال .. على أثر ففوله
من الملح عام ٨٤٩»

فلم اميخ فيه إلى قول لاخ

أما نرى ابن البازي استمات قلبني فستان
غيت ولكن ليس فيه انهمات إلا بستان
بدر ولكن ليس إلا الكمات ثم السجستان
به بأفقت المعلوات التماخ إلى الطماخ

وشائنه البذذ وفطرط التماخ

قد حاز فضل (١) التيق بين الوجود جلماً وجمود
تقوي اليها كان اليه مجود منها مجود
وذاته السمليناء رومس مجود عالي النجوم
شذاه للمأمول (٢) والموال راخ والاقنـسـراخ

ومسورد السمايين منه قسراخ

بمثل هذا التذخير يُشقى الغرام مما يُغرام

(١) في المطبوع: حصل

(٢) في المطبوع: بالمأمول

وقد جاء في «نفح الطيب» ح ٩ ص ٢٩٣ مطلع موشحة للسان الدين بن الخطيب

قد حرك الجبل بازي الصباح والسفـجـر لاح
فيا غراب الليل حث الجناح

وذكر أنه «معارض للموشح الشهير الذي أوله:

بنفسج الليل تذكي وفاح بين السبـطـاح
كأنه يلقى بمك وراح»

ومن المعارضات الأخرى له قول ابن سهل الأشيلي «ناكر إلى اللذة والأصطباح»
وموشحة لاس نباته المصري أولها «ماسح محمد دموعي وساح» وتردان في «عقود
الآل» - غطوطة الاسكوريان - ورقة ٥، ونحىء لاحيرة في «نفح الطيب».

فإيه فحزُ النصاة الكرام بلا اصرام
وجاهله أرزى بكل احترام صفت المرام
وجوده في الناس حاوي الجناح بالامتساح
فهل على مداحه من جناح

وهاكها مولاي ذات اعتماك كما يُفان
ترجو بدئي يفصي نجل العفان للإستفان
وها أنا عارضتُ فيها مستاك من كان قال:
سنبج الليل تزكى وناح فوق البطح
أظنه يُسقى بماء وراخ

• • •

• المنصور السعدي (المتوفي سنة ١٠١٢هـ):

عطر الأرجاء لما ستننا
وأنت شمس الصبح تنبغ ما
طاف بالكأس من التذق فتى
فتش الألباب لما التفتنا
وأنا بالخمب فتى
وكزوش الرّاج بين الشدما
نمرة صمراء في السلورما
باير اللذات واجتمع شملها
ذي عيون ساعست كم لها
وافر الأرداف عانى حملها
كلما أفرغ كأساً قال ما
فابذل الجهد وكن مغتنباً
فرض اللذات كن منتهزاً
وليسالي الألي كن منتجراً
واجتني زهر الهوى مختبراً
لا تكن يوماً جبالاً حبشاً
ما مضى يوم وواهي مثلها
للرياض اذهب ترى بليلها
وتحدو الروض قد كللها

شمال الصهباء عند القلبي
يفراً الليل لنا بين عتري
مولع بالشد عني ما فتى
واجتني منه بعض الشفة
صدت نية الهوى عن الفتى
أزجت بالمعرف أفق المجلس
أشبه الرّاح بروض الشرجي
بسمبداً وغلام مطرب
من فنون البحر ما يلعب بي
ساجل الخمر وذا من غمخب
أنت بالشاري حياة الأنقي
لسميت العيت طيب الأنقي
بشذاها قل حديق الخبر
قبل أن نمضي كلمج البصر
من جنابات صوم الكسر
لاحت اللذات كالمختلي
كان فالدهر لنا بالخرس
بشفس بين زهر ينجلي
دمع طل لأشفاق الليل

• يرد النص في «الدراري السع: الموشحات الأندلسية» ص ١٥، وعلى رأسه: «لابي العباس المنصور سلطان الأندلس»، كما يرد في «الكواكب السبعة السيارة» — مخطوطة الطاهرية — النص السام، بتصدره «لأبي العباس المنصور مولاي أحمد، سلطان الأندلس».

والموشحة — كما هو واضح — مما نسخ على موال موشحتي ابن سهل وابن الخطيب اللتين مرنا من قبل، وموشحة المنصور السعدي نموذج لموشحات متأخري المغاربة، وقد سناها — على غلاتها — لتوضيح صيغ هؤلاء المتأخرين في حرصهم — وهي عدم حرصهم — على تحكاة صيغ العدمي.

وَقُدُودَ السَّانِ قَدْ قَامَ لَهَا
 وَالرُّبَى فَاخْتِ نَحَاكِي حُرْمًا
 جِيْبُهَا زَرَّرَ بِالزَّهْرِ كَمَا
 وَجَلَّالَ الرُّوْحُ لَنَا أَشْجَارُهُ
 وَتَسْرَى فِي جِيْدِهَا أَنْوَارُهُ
 خَلَعَ اللَّيْلُ بِهِ أَطْمَارُهُ
 وَبَسَقَابَاهُ زَهَتْ فِيهِ كَمَا
 كَبِيْذَارٍ فِي مُحَبَّتِنَا عِلْمًا
 حَبِذَا الْمَعْبُودَةُ أَيَّامَ الْقَبَا
 فَاذَا. أَيْقَطَلَهَا دَهْرٌ مَبَا
 جَرَدَ الشَّيْبُ بِيَاضًا أَشْيَبَا
 وَغَمَدَا الْإِنْسَانُ شَيْخًا قَرِيْمَا
 فَاذَا مَا فَاتَ يَقْضِي نَدْمًا
 لَا تَدْعُ عَمْرَكَ يَتَقَفِي هَذَرًا
 وَارْقَ بِالْجَهْلِ مِنَ النَّبْلِ ذَرَى
 إِنَّمَا الْإِيَّامُ أَمْثَالُ الشَّرَى
 وَوَحْشَى الْأَنْسَى تَبْقَى مَغْمَا
 تَرِكَ السُّوْهَمَ وَخَافَضَ الظُّلُمَا

يَبَايَعُ الْفُصَيْنِ مَقَامَ الْأَتْلِ
 وَعَلَيْهَا مِنْ ثِيَابِ الشُّنْطِ
 زَرَّ بِالْفُضَّةِ ثَوْبَ الْأَطْلَسِ
 مَائِسَاتٍ فِي قَبَاءٍ أَحْضَرِ
 تَتَلَلَا كَمَقْشُودِ الْجَوْهَرِ
 فَعَدَا كَالصَّبْحِ بَاهِي الْمَنْظَرِ
 فِي شَفَاءِ الْغَيْدِ حَسَنَ اللَّقَى
 فَبَدَا لِلْمَعِيْنِ لَا لِلْمَلَقَى
 وَعَمِيْدُ الشَّيْبِ فِي سَهْوِ الْوَسْنَجِ
 لَمَصْرُوفٍ حَدَّ حَدَّثِهَا وَسَنَ
 وَاقْتَفَنِي شَرَحَ شَبَابٍ وَطَمَنَ
 وَاعْتَصَرَاهُ لَاعِجٌ مِنْ هَجَسِ
 وَاعْتَنَنَامُ الْوَقَيْتِ فَعَلُّ الْأَكْيَسِ
 أَنْتَ إِذَا ذَاكَ جَبَانٌ غَافِلُ
 وَاجْتِهَدُ فَالْدَهْرُ ضِرْنَجٌ حَاقِلُ
 وَالْجَمْرُءُ الشَّهْمُ لَيْثٌ بَايِلُ
 بَارِدَا لِلْأَسَدِ الْمُفْتَرِسِ
 وَلَهُ عَزَمُ أَنْسَا كَالْقَبَسِ

أهم المصادر والمراجع

أولاً : المخطوطات :

ابن اياس: الدر المكنون في السبع فنون. مخطوطة المكتبة الوطنية بباريس.
ابن تغري بردى: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي. مخطوطة المكتبة الوطنية بباريس.

ابن سناء الملك: فصوص الفصول وعمود العقول. مخطوطات دار الكتب بالقاهرة وخزانة الأزهر والمكتبة الوطنية بباريس.
ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار. مخطوطة المكتبة الوطنية بباريس.
الدرويش: العقيدة الدرويشية في السبع فنون الادبية. مخطوطة المكتبة المركزية بجامعة الملك عبدالعزيز - مكة المكرمة.

السلفي: معجم السفر نسخة حققها شير محمد زمان (لم تنشر بعد)
الصفدي: الوافي بالوفيات، ٣٠ مجلداً، مصوره عن مخطوطات الزيتونة واستامبول والمتحف البريطاني.

النواجي: عقود اللآل في الموشحات والأزجال. مخطوطة الاسكوريال
مجهول: الكواكب السبع السيارة. مصورة عن مخطوطة الخزانة الظاهرية بدمشق.

ثانياً: مصادر:

الابشيبي: المستطرف في كل فن مستظرف. جزآن. القاهرة ١٩٥٢ .
ابن الأبار: الحلة السراء. تحقيق د. حسين مؤنس. القاهرة ١٩٦٣.
ابن الأبار: التكملة لصلة الصلة. جزآن. القاهرة ١٩٥٥
ابن الأحمر: (اسماعيل بن يوسف): نثر الجمان: (أعلام المغرب والأندلس في القرن الثامن). تحقيق. محمد رضوان الداية، بيروت ١٩٧٦
ابن أبي أصيبعة: عيون الأبناء في طبقات الاطباء. تحقيق د. نزار رضا، بيروت، ١٩٦٥

ابن الخطيب: (لسان الدين): حيتس التوسيح. تحقيق هلال ناجي، تونس ١٩٦٧

- ابن الخطيب: الكتبة الكامنة في من لقياء بالأندلس من شعراء المائة الثامنة. تحقيق د. احسان عباس، بيروت ١٩٦٣
- ابن الخطيب: الاحاطة في أحبار غرباطة. تحقيق محمد عبدالله عان. القاهرة ٧٣ - ١٩٧٤
- ابن الخطيب: نفاضة الجراب في علالة الاغتراب. تحقيق د. أحمد مختار العبادي القاهرة لا تاريخ.
- ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. صدر منه بإشراف لجنة من العلماء القسم الأول في مجلدين، ثم المجلد الأول من القسم الرابع القاهرة ١٩٣٩ - ١٩٤٥.
- القسم المجلد الاول من القسم الثاني تحقيق د. أحمد لطفي عبدالبديع القاهرة ١٩٧٥.
- ابن بشكوال: الصلة. جزآن، القاهرة ١٩٦٦
- ابن خاتمة: ديوان تحقيق د. محمد رضوان الداية. دمشق ١٩٧٢م
- ابن خاقان : قلائد العقيان في محاسن الأعيان. تونس ١٩٦٦
- ابن خنيس: المقدمة ط. كاترمير ٣ أجزاء باريس ١٨٥٨
- ابن خوام: وفيات الأعيان ٦ أجزاء، ط. محي الدين عبدالحميد القاهرة ١٩٤٨
- ابن دحية: المطرب من أشعار أهل المغرب. تحقيق الياياري وحامد عبدالحميد وأحمد بدوي. القاهرة ١٩٥٤
- ابن الزقاق: ديوان. تحقيق عفيفة ديرياني بيروت ١٩٦٥
- ابن زيدون: ديوان تحقيق علي عبدالعظيم. القاهرة ١٩٥٧
- ابن سعيد (المغربي) المغرب في حل المغرب (قسم الأندلس) جزآن تحقيق د. شوقي ضيف. القاهرة ١٩٦٤
- ابن سعيد (المغربي) رايات المبرزين وغابات الميزين. تحقيق د. النعمان عبدالتمال القاضي القاهرة ١٩٧٣
- ابن سعيد (المغربي): المقطف من أراهر الطريف. قسم منه نشره د. عبدالعزير الأهاسي ضمن «أعمال مهرجان

خلدون» القاهرة ١٩٦٢

ابن سناء الملك: دار الطراز في عمل الموشحات. تحقيق. جودت الركابي، دمشق ١٩٤٩.

ابن سهل (الاشيلي): ديوان. تحقيق د. احسان عباس بيروت ١٩٦٧
ابن شاكر (الكتسي): فوات الوفيات ط. محيي الدين عبد الحميد، جزءان
القاهرة ١٩٥١

ابن عسد ربه: العقد الفريد. تحقيق أحمد أمين — أحمد الزين — ابراهيم
الابيارى ط ٣ القاهرة.

ابن عربي: ديوان. طبعة حجر. بومباي.

ابن قتيبة: الشعر والشعراء. تحقيق د. خويه. ليدد ١٩٠٢

ابن المعتز: ديوان. ط. صادر بيروت ٦١، وطبعة دمشق ١٣٧١، والقاهرة
١٨٩١

ابن المعتز: شعر عبدالله بن المعتز، صفة أبي بكر الصولي. تحقيق استامبول
١٩٥٠

الأصفهاني (أبو الفرج): الأغاني ط. دار الكتب.

الأصفهاني (عماد الدين): خريدة القصر وجريدة العصر. تحقيق عمر
الدسوقي وعلي عبد العظيم (قسم المغرب والأندلس)
القاهرة.

امرؤ القيس: ديوان تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم. القاهرة

الباقلائي: اعجاز القرآن. تحقيق أحمد السيد صقر ط ٣ القاهرة ١٩٧٣

التبريزي: الوافي في العروض والقوافي. تحقيق د. فخر الدين قباوة وعمر
يحيى. بيروت ١٩٧٥

التطيلي: (الأعمى) ديوان تحقيق د. احسان عباس. بيروت ١٩٦٣

الثعالبي: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ٤ أجزاء. القاهرة ١٩٤٧

الحلي (صفي الدين): العاقل الخالي والمرخص الغالي. تحقيق هونرباخ
ويباد ١٩٥٥

السلمي: أحبار وبراخمة أدلية، مستخرجة من معجم السفر اختارها د.

احسان عباس بيروت ١٩٦٣

الصفدي: الوافي بالوفيات. الأجزاء المطبوعة (من ١ - ٩)

الصفدي: توشيع التوشيع تحقيق. البير مطلق. بيروت ١٩٦٣

الضبي: بغية الملتبس ط. مجريط ١٨٨٤م

الغبريني: عنوان الدراية. تحقيق عادل توهض. بيروت ١٩٦٩

القفطي: الحمدون من الشعراء. تحقيق محمد معاصري. الرياض ١٩٧٠

المرزباني: الموشع في مآخذ العلماء على الشعراء. القاهرة ١٣٨٥هـ

المعري: رسالة الغفران تحقيق د. نت الشاطيء طه القاهرة ١٩٦٩

المقري: أزهار الرياض في أخبار عياض، ٣ أجزاء بتحقيق السقا

والإياري وشلي. القاهرة ١٩٣٩ - ١٩٤٢

المقري: نصح الطبيب من غصن الأندلس الرطيب. طعة محيي الدين (١٠)

أجزاء) وطعة احسان عباس (٨ أجزاء).

ياقوت (الحموي): ارشاد الأريب الى معرفة الأديب (معجم الادباء) نشر

دار المأمون بالقاهرة.

مجهول: العذارى المائسات في الأرحال والموشحات. اختيار فيليب قعدان

الحازن. حوية ١٩٠٢

ثالثا: مراجع عربية:

الأهواني: (د. عبدالعزيز) الزجل في الأندلس. القاهرة ١٩٥٧

أنيس: (د. ابراهيم) موسيقى الشعر. الطعة الثانية. القاهرة

البستاني (بطرس): أدباء العرب في الأندلس وعصر الابتعاث ط١ بيروت

١٩٦٨

الجراري (د. عباس): القصيدة (الزجل في المغرب) الرباط ١٩٧٠

الركابي (د. حودت) في الأدب الأندلسي. القاهرة ١٩٦٠

الريسوني (محمد المنتصر): الشعر السوي في الأندلس. بيروت ١٩٧٨

الرزقي (الصادق): الأغاني التونسية تونس ١٩٦٧

الزركلي: (حبر الدس) الأعلام ط٣

الشكعة: (د. مصطفى) الأدب الأندلسي: مصادقاته ومفهومه. بيروت ١٩٧٤

- صيف (د. شوقي): العصر العباسي الأول ط ٣. القاهرة الفن ومداهبه في الشعر العربي ط ٤ القاهرة ١٩٦٠
- الطنحي (محمد تاويب): ومحمد الصادق عفيفي: الأدب المغربي. بيروت ١٩٦٠
- الطيب (د. محمد عبدالله): المرشد الى فهم أشعار العرب وصاعتها ج ١ القاهرة ١٩٥٥
- عباس (د. احسان): تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة) بيروت ١٩٦٠
- عباس (د. احسان): تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) بيروت ١٩٦٢
- عناني (د. محمد زكريا): نشأة فن التوشيح بالمشرق: مسئلة من مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية (مكة المكرمة) العدد الثاني
- غومس (اميليو غرسية): الشعر الأندلسي. ترجمة د. حسين مؤنس، ط ٣ القاهرة ١٩٦٩
- غومس (اميليو غرسية): مع شعراء الأندلس والمتنبي ترجمة د. الطاهر مكي القاهرة ١٩٧٤
- كراتشكوفسكي: الشعر العربي في الأندلس القاهرة ١٩٧١
- كرامة (بطرس): الدراري السبع (الموشحات الأندلسية) بيروت ١٨٦٤
- كيلاني (كامل): نظرات في تاريخ الأدب الأندلسي. القاهرة ١٩٢٤
- الكريم: (د. مصطفى عوض) فن التوشيح. بيروت ١٩٥٩
- هدارة (د. محمد مصطفى): اتجاهات الشعر في القرن الثاني الهجري. القاهرة ١٩٦٩
- هيكل (د. احمد): الأدب الأندلسي القاهرة ط ٦، ١٩٧١
- ياقيل: مجموع الأغاني من كلام أهل الأندلس. الجزائر ١٩٠٤
- يلس (حلول) والحفناوي امقران: الموشحات والازجال. حرءا، الجزائر ١٩٧٢

رابعاً: مراجع أجنبية:

- Blachère (R.): Le Vizir Poète Ibn Zumruk et son oeuvre. Annales de l'Institut d'Etudes Orientales. II 1936.
- Gomez (Emilio Garcia): Estudio del Darat - Tiraz - Preceptiva Egipcia de la Muwassaha. Al - Andalus. Vol xxvii (1962) pp. 21 - 104
- Hartmann (M.) Das Arabische Strophengedicht. Das Muwassah, Weimar, 1897.
- Jargy (S.) la poésie populaire traditionnelle chantée au Proche - Orient, Paris - la Haye, 1970
- Levi - Provençal: Islam d'Occident. Paris, 1948.
- Menendez Pidal: Poesia arabey poesia evropa- Madrid, 1941.
- Nykl (A.R.): Hispano - Arabic Poetry. Baltimore 1946.
- Pellat (Ch.). Langues et Literature arabes, Paris 1952.
- Pérès (H.). La poesie andalouse en arabe classique au xle siecle. Paris 1953.
- La poésie arabe d'Andalousie et ses relations Possibles avec la poesie des Troubadours. Le Cahiers du sud, 1974.
- Stern (S.N.) Hispano - Arabic strophic Poetry, Oxford 1974.
- Les Vers Finaux (Kharjas) en espanol dans les Muwashshah arabes et hebreux. Oxford, 1964.
- Les chansons mozarabes, Palerme 1953.



المحتويات

- مقدمة
- أضواء على التاريخ:
 - (فتح الأندلس - الاسم والموقع - عصور التاريخ الأندلسي: مرحلة الولاة والامارة ثم الخلافة الأموية - عصر ملوك الطوائف - عصر المرابطين - عصر الموحيدين - العصر الغرناطي - ما بعد الرحيل (مرحلة المدجنين)
- ملاحظات حول الثقافة والمجتمع (السكان : المستعربة - المولدون - اليهود - أهل البلاد المعادون للعرب - العرب والبربر ..)
 - مكونات الشخصية الأندلسية (القلق وعدم الاستقرار - الاحساس بالنقص بإزاء المشرق - من جوانب الثقافة الأدبية الأندلسية - أوضاع المرأة)
- الشعر الأندلسي من البدايات إلى مرحلة النضج (أوائل الشعراء - شعراء البيت الأموي - يحيى بن الحكم الغزالي.
- شعراء عصر الإمارة والفتنة البربرية . ابن عبد ربه - ابن دراج القسطلي - يوسف بن هارون الرمادي -
- الشعر في عصر ملوك المرابطين (مثال من ابن زيدون - المعتمد بن عباد)
- من شعراء القرن السادس الهجري (مدخل عام - الأعمى العظيمي - ابن مجبر - ابن زهر الحفيد)
- فنون الأدب الأندلسي : الموشحات

